

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه ل.م.د

التخصص: لغة وأدب عربي

الفرع: الدرس اللغوي القديم وتداوليات الخطاب

إعداد الطالبة: أحلام بن عمرة

الموضوع:

تداولية الخطاب واستراتيجية التواصل اللغوي في

الخطاب الديني

لجنة المناقشة:

- أ.د. عمر بلخير، أستاذ التعليم العالي، جامعة مولود معمري، تيزي- وزو رئيسا
أ.د. ذهبية حمو الحاج، أستاذة التعليم العالي، جامعة مولود معمري، تيزي- وزو مشرفا ومقررا
د. الجواهر مودر، أستاذة محاضرة صنف "أ" جامعة مولود معمري، تيزي- وزو ممتحنا
د. نوارة بوعبياد، أستاذة محاضرة صنف "أ" جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية ممتحنا
د. كايسة عليك، أستاذة محاضرة صنف "أ" جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية ممتحنا
د. حياة خليفاتي، أستاذة محاضرة صنف "أ" جامعة مولود معمري، تيزي- وزو ممتحنا

تاريخ المناقشة: 2018/06/28

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى كلّ من أحبّ العلم، وجاهد من أجل أن يتعلّم

شكر وتقدير:

الحمد لله حمدا كثيرا على ما يسره لي من علم، وما وهبه لي من صبر؛ لإنجاز هذه الأطروحة؛ ولأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس؛ فأني أتقدم بجزيل الشكر وعظيم التقدير إلى الأستاذة المشرفة الدكتورة "ذهبية حمو الحاج" على رعايتها ودعمها طوال هذا الإشراف وعلى توجيهاتها ودقة ملاحظاتها.

كما أتقدم بعظيم شكري وجزيل امتناني لكل من ساعدني في إنجاز هذا البحث وبخاصة أساتذة وطلبة مختبر الممارسات اللغوية وعلى رأسهم الأستاذ القدير الدكتور "صالح بلعيد" والشكر والتقدير موصول كذلك إلى أعضاء اللجنة العلمية على قبولهم قراءة البحث ومناقشته وعلى ملاحظتهم السديدة التي تثري البحث.

مقدمة

تهتم التّداولية بعناصر العملية التّخاطبية، بهدف الكشف عن مضامين الخطاب الظاهرة والمضمرة، ويهدف التأثير في المخاطبين على اختلاف طبائعهم، ومستوياتهم الفكرية ولتحقيق الهدف من انتاج الخطاب ينبغي على منتج انتقاء الاستراتيجيات المناسبة والتي تختلف من خطاب لآخر؛ وقد اخترت أن أهتم في أطروحتي بنوع من أنواع الخطابات ألا وهو "الخطاب الدّيني" هذا الأخير هو ذلك الخطاب الذي يجمع بين أشكال متعددة ومتداخلة من الخطابات منها: القرآن الكريم، الحديث النبوي، تفسير القرآن، علوم القرآن، تاريخ المسلمين، الوعظ... الخ من الخطابات التي أنتجها أصحابها بهدف تبليغ رسالة الإسلام وتعليم مبادئه، ونشر تعاليمه؛ وقد ارتأيت الوقوف من خلال موضوع أطروحتي الموسوم بـ: "تداولية الخطاب واستراتيجية التّواصل اللّغوي في الخطاب الدّيني" عند مختلف أنماط الخطابات الدّينية: مركزة على نماذج من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والمقاطع الحوارية الواردة في السيرة النبوية، وقد انتقيتها من خطب الجمعة "لعبد الحميد مهدي" فكانت بما تحويه بما تحويه من موضوعات شاملة لمختلف مناحي الحياة دينيّة واجتماعيّة وثقافيّة... الخ نموذجاً للخطاب الدّيني الذي أردت من خلاله الوقوف عند الأهداف التي يهدف الدين إلى تجسيدها، ومن ثم تتبع أساليب عرضه، والدعوة إلى تجديده، وانتقاء أحسن الاستراتيجيات لتبليغه، بطريقة تتماشى ومدارك المخاطبين ومستوياتهم المختلفة؛ ليتحقق القصد منه؛ ولأنّ التّداولية تهتم بمقاصد اللّغة؛ فإنّ أهميّة هذا الموضوع تتجلي بوضوح في إتاحة الفرصة أمام المراهنة على نجاعة المناهج اللّسانية الحديثة، ومنها المنهج التّداولي الذي استطاع أن يبرهن على نجاعة أدواته الإجرائية في تناول الخطاب الدّيني وأثبت أنّه خطاب مفتوح للفهم والتّفسير، شريطة الاحتكام إلى مجاله التّداولي وإلى العقل.

أسباب اختيار الموضوع:

تتقسم أسباب اختياري للموضوع إلى أسباب ذاتيّة وأخرى موضوعيّة:

1. الأسباب الذاتيّة: يمكن إيجازها في النّقاط التّالية:

- الرغبة في الإحاطة بموضوع الخطاب الديني، وبالمقاصد التي يهدف لتحقيقها، والنظر في الأسباب التي جعلت بعض الناس يُقبلون على خطاب ديني دون آخر. مع العلم أن هذه الخطابات على اختلافها تستمد مرجعيتها من القرآن والسنة النبوية الشريفة؛

- الميل إلى الدراسات التداولية التي تهتم بطبيعة المخاطبين على اختلاف مستوياتهم وتراعي مداركهم، وتضع بين يدي منتج الخطاب، ومحلّه مجموعة من الآليات التي تعين الأول على إنتاج الخطاب، وتساعد الثاني على تحليله، والكشف عن المقاصد الظاهرة والمتضمنة فيه.

2. الأسباب الموضوعية: وأذكر منها:.

- عدم التّمييز بين مضمون الخطاب، وطريقة عرضه وتقديمه، جعلت كثيرا من الناس ينفرون من الخطاب الديني، بالإضافة إلى عدم التّمييز بين "الدين" بوصفه نسا مقدسا و"الدين" بوصفه خطابا بشريا، هذه المبررات وغيرها كانت وراء خوضي لموضوع "الخطاب الديني".

إشكالية البحث:

تأتي دراستي لموضوع "الخطاب الديني" من وجهة تداولية بعد القضايا المثيرة التي طرحها ولا يزال يطرحها هذا الموضوع حول مفهومه، والخطابات المؤسّسة له، وإمكانية إخضاعه للمناهج اللسانية الحديثة، ومنها المنهج التداولي، ومنه يأتي عملي في هذه الأطروحة ليجيب عن الإشكاليات الآتية:

- ما الفرق بين الدين، والخطاب الديني؟
- ما المقاصد التي يهدف الخطاب الديني إلى تبليغها؟
- ما الآليات والتقنيات التي يعتمد عليها الخطيب في تبليغ خطابه؟ وإلى أي مدى تضمن هذه الآليات نجاحه؟
- لماذا يتمّ تغييب التفسير اللغوي والبلاغي للنصوص المستشهد بها؟
- لماذا يقبل بعض الناس على خطاب ديني دون آخر؟

- هل استطاع الخطيب "عبد الحميد مهدي" في ما عرضه في كتبه، أن يحقق حاجة المستمعين ويراعي متطلّباتهم العصرية؟
 - وللإجابة عن هذه الإشكاليات لا بدّ من صياغة بعض الفرضيات منها:
 - أليس هناك فرق بين الدّين والخطاب الدّيني؟
 - ألا يرجع سبب فشل الخطاب الدّيني إلى الاستراتيجيات المنتهجة في تبليغه؟
 - ألا يعدّ تجديد الخطاب الدّيني مطلباً ملحا، وضرورة من ضرورات العصر؟
 - ألا تصلح التّداولية كمنهج لساني حديث؛ لدراسة مختلف جوانب الخطاب الدّيني؟
- المنهج المتبع:**

يعدّ المنهج السبيل الذي يضمن للباحث الوصول إلى الهدف؛ ولأنّ لكلّ موضوع منهجه الذي يتلاءم معه؛ فإنّ طبيعة موضوعي تفرض عليّ اتّباع المنهج التّداولي؛ الذي هو في حقيقة الأمر عبارة عن مقارنة تداولية تهتمّ بمنتج الخطاب ومقاصده والعلاقة بينه وبين مخاطبيه الذين تتسم معرفتهم بأسبقيتها على إنتاج الخطاب، ويستمد من البلاغة وينهل من اللّغة كلّ ما من شأنه ضمان حسن سير العمليّة التّخاطبيّة، ومن ثمّ نجاح الخطاب ويكشف للمخاطب عن مختلف المراحل الاستدلاليّة التي تعينه على إدراك قصد المتكلّم المضمّر.

بنية البحث:

اقتضت خطة البحث تقسيمه إلى ثلاثة فصول تطبيقيّة؛ تنصدها مقدّمة وتمهيد وأردفتها بخاتمة؛ حيث حرصت على التّسيق بينها؛ بهدف الكشف عن الجوانب المختلفة للموضوع فأما التّمهيد فجعلته للحديث عن المفهوم المركزي في البحث وهو: "الخطاب الدّيني"، كما عرضت فيه لأسباب فشل وعوامل إخفاق "الخطاب الدّيني"، ثمّ تطرّقت لعوامل قيامه، وفي مقدّمته ضرورة تجديده وإحداث تغيير في الأساليب التّقليديّة المنتهجة في عرضه.

وأما الفصل الأوّل والمعنون بـ: "الاستراتيجية التّواصلية والبعد الأخلاقي في الخطاب الدّيني"؛ فخصصته للحديث عن تجلّيات العناصر التّلفظية في المقاطع الحوارية، الواردة في سيرة سيّدنا محمد (ﷺ) كما تطرّقت إلى مختلف الاستراتيجيات التي اعتمدت عليها الذات

المحورية في تلك الحوارات؛ من أجل إثبات دعواها وإقناع الآخر. ويتفرع هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول المعنون بـ: "العناصر اللفظية وتحقق مبدأ التفاعل" حاولت من خلاله الوقوف عند عناصر بناء الخطاب وشروط نجاحه، كما ركزت فيه على وصف الذات المحورية، وعلى مظاهر تجليات العلاقة الإيجابية بين الذوات المتحاورة، والتي تتجسد من خلال التفاعل مع الآخر والامتثال له.

المبحث الثاني: المعنون بـ: "استراتيجيات التعامل الأخلاقي" تطرقت فيه إلى أهمّ المبادئ التي تؤسس للظاهرة الأدبية، وتؤكد على التعامل الأخلاقي، وعرضت لتجليات تلك المبادئ في الدراسات التراثية والحديثة، وتحدثت عن شروط انتقاء الاستراتيجيات التي من شأنها أن تحافظ على العلاقة بين أطراف الخطاب، وتضمن حسن سير العملية التواصلية من خلال اعتماد آليات إضفاء المشروعية على الخطاب، ويسطت في آخر عنصر من هذا المبحث للتقويمات الأخلاقية التي كشفت انطباع الخطيب "عبد الحميد مهدي" إزاء أخلاق الرسول (ﷺ)، الذي بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، فكان أول ما نزل عليه هي كلمة "اقرأ"؛ لأنّ القراءة والعلم هما أساس الأخلاق، وهذا ما يتّضح في الفصل الثاني:

الفصل الثاني: معنون بـ: "الحجاج ودور العلم في بناء الخطاب الديني" خصصته للحديث عن أهمية العلم في بناء الخطاب الديني، ودوره في التمييز بين الحق والباطل والنافع والضار، ولقد استثمرت مختلف الآليات اللغوية الحجاجية، وتطرقت لمختلف الآليات البلاغية والمنطقية، التي اعتمد عليها الخطيب من أجل إثبات أطروحته المتمثلة في التأكيد على مكانة "العلم" في الإسلام. وقد تفرع هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: موسوم بـ: "الأساليب الحجاجية وعوامل قيام العالم العربي والإسلامي" كشفت من خلاله عن أهمية "العلم" في النهوض بالعالم العربي والإسلامي؛ وبخاصّة في ظل التطورات الراهنة التي تفرضها المستجدات المعاصرة، واستثمرت مختلف الدراسات اللغوية والبلاغية والمنطقية التي تؤسس للحجاج، وتعمل على تحقيق الهدف منه، والمتمثل

في إقناع المخاطب والتأثير فيه؛ لحمله على التغيير، ومن ثم مواجهة التّحديات التي تعترضه.

المبحث الثاني موسوم بـ: " أشكال الحجاج وحتميّة المواجهة" وقد خصصته للحديث عن أشكال الحجج والتقنيات الحجاجية التي استخدمها الخطيب "عبد الحميد مهدي"؛ من أجل التأكيد على إمكانية مواجهة التّحديات والأزمات التي تعترض العالم العربيّ والإسلاميّ وذلك باستثمار الطاقات والمواهب البشرية التي يملكها العالم الإسلاميّ، ويكون ذلك بالاهتمام بالعلماء، والمرأة بوصفها عنصراً فعالاً في المجتمع، والنشء الذين هم أساس بناء مستقبل زاهر. ولا بدّ أن يشمل هذا الاهتمام الجانب الأخلاقي؛ كونه أساس تكوين الفرد السليم والمتحضر، الذي يميّز بين الأخلاق الحميدة والسيئة، وتظهر هذه الأخلاق في أفعال المخاطبين وهذا ما يتضح في الفصل الثالث.

الفصل الثالث: معنون بـ: " سلطة الفعل الكلامي في الخطاب الديني": بسطت فيه الحديث عن الأفعال الكلامية الواردة في خطب الجمعة "للخطيب عبد الحميد مهدي" حول موضوع الأخلاق والآداب والقيم، وحول موضوع "الأعياد والمناسبات الدينية والدولية" وركزت على عنصر السلطة في تحديد مقاصد ودلالات تلك الأفعال. وتفرع هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: معنون بـ: "أسلوب الاستفهام وترسيخ المفاهيم الدينية". عرضت فيه لمجموعة الأفعال الكلامية التي تضمنت المفاهيم النظرية للمنظومة الأخلاقية، وقد ركزت على أسلوب الاستفهام؛ لأنّه الطاغي في هذا المبحث، وتوصلت من خلال دراسته إلى أنّه خلف كل عملية تلفظ هناك مقاصد خفية، كما تحدثت فيه عن مراحل الاستدلال التي تعين المخاطب على التوصل إلى مقاصد مُنتج الخطاب.

المبحث الثاني الموسوم بـ: " قصديّة الامتثال في الخطاب الديني"؛ تطرقت فيه للأفعال المختلفة منها: النهي والأمر هذا الأخير كان هو الأسلوب الطاغي في هذا المبحث، وقد تعدّدت مقاصده؛ فمنها الأمر على سبيل الوجوب، وقد جاء ذلك مرتبطاً بأركان الإسلام منها: الصلاة والصوم والحج... الخ، ومنها الأمر الذي عدل إلى دلالات أخرى منها: الإباحة

والدعاء، كما بسطت الحديث عن أفعال الوعد والوعيد؛ كونها وسائل ترغيبية وترهيبية تجعل المخاطب يمتثل للأوامر.

وختمت بحثي بخاتمة عرضت فيها أهم النتائج؛ ولعلّ أهمّ نتيجة خلصت إليها أنّه يمكن دراسة الخطاب الديني بمناهج لسانية حديثة، شريطة الاحتكام إلى الضوابط الدينية والعقلية.

-الدراسات السابقة:

تعدّدت المراجع التي نهل منها بحثي، وتوّعت بسبب الحاجة، وأذكر منها على سبيل التمثيل: كتاب عبد الهادي بن ظافر الشهري "استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية" وكتاب طه عبد الرحمن، "اللسان والميزان أو التكوثر العقلي" وكتاب عبد الله صولة "الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية"، وكتاب أحمد كروم "مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي"، وكتاب ذهبية حمو الحاج، "لسانيات التلطف وتداوليات الخطاب". وكتاب إلهام المتمسك، "الخطاب الديني عند الدكتور عباس الجراري" وكتاب عماد علي عبد السميع حسين "تجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع روح العصر صورة دعوية في ضوء المستجدات والمتغيرات المعاصرة". وأطروحة دكتوراه لمحمد مدور، "الأفعال الكلامية في القرآن الكريم سورة البقرة دراسة تداولية" وهذه الأخيرة استفدت كثيرا منها في استلهام طريقة التطبيق.

إنّ معظم هذه المراجع على أهميّة ما قدّمته للتراث العربي، وللدراسات اللسانية، وعلى نفاسة ما أفادت به الخطابات الدينية، إلّا أنّها اهتمت أكثر بالتنظير سواء للمفاهيم التداولية، أم للمفاهيم والقضايا التي تثير إشكالات في "الخطاب الديني"؛ في حين يمتاز بحثي بتركيزه على الجانب التطبيقي، واخترت "خطب الجمعة" لأنها موجهة إلى أناس ذوي أعمار ومستويات مختلفة؛ ما جعلني أهتم أكثر بمدى استحضر المتكلم للمخاطب أثناء بناء خطابه، والبحث عن المقاصد التداولية التي يرمي إليها منتج الخطاب.

الصعوبات:

تواجه أي باحث مجموعة من الصعوبات، من بينها: صعوبة تطبيق المقاربة التداولية على الخطاب الديني؛ لأنه خطاب شامل يتضمن نصوصا مقدسة ممّا زاد من صعوبة البحث، ناهيك عن الرغبة في الإلمام بجوانب البحث المختلفة.

والفضل لله وحده في ما أصبت، وما كان من هفوات فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه، والله الموفق للصواب، وهو الذي يهدي للخير، ويعين عليه سبحانه وتعالى.

تمهيد

أثار موضوع "الخطاب الديني" إشكالات كثيرة، لعل أبرزها تقديم مفهوم دقيق له؛ نتيجة الخلط بين الدين والخطاب الديني؛ وعليه رأيت أنه من الأهمية بمكان أن أعرض لمختلف تعريفاته؛ لأكشف عن الفرق الموجود بين الدين والخطاب الديني.

1. الخطاب الديني: المفهوم والمرجعية المؤسسة:

يتشكل مصطلح الخطاب الديني من مصطلحين هما: الخطاب، والديني، وبالتالي فإذا أردت أن أحدد مفهوم الخطاب الديني لا بد وأن أبين مفهوم هذين المصطلحين المشكلين له ثم أعرض للخطابات المؤسسة له.

1.1. مفهوم الخطاب في الثقافة العربية:

ورد مصطلح الخطاب في الثقافة العربية في سياقات مختلفة؛ فقد ورد في القرآن الكريم، وعند الأصوليين والمحدثين... الخ.

- مصطلح الخطاب في القرآن الكريم: ورد مصطلح الخطاب في القرآن الكريم في مواقع

كثيرة منها: قوله تعالى ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ سورة الآية: 23 وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ سورة ص الآية: 20.

وقد فسر "الزمخشري" فصل الخطاب بقوله إنه: "البين من الكلام الملخص، الذي يتبينه من يخاطب به ولا يلتبس عليه"¹؛ يتضمن هذا التفسير العناصر الأساسية التي يبني عليها الخطاب والمتمثلة في المتكلم والمخاطب؛ حيث يجب على المتكلم أن ينتج خطابا واضحا لا غموض فيه لكي يتمكن المخاطب من فهم قصده.

ولا يختلف تفسير "النيسابوري" (850هـ) عن تفسير "الزمخشري"؛ فقد فسر فصل الخطاب بأنه: "القدرة على ضبط المعاني، والتعبير عنها بأقصى الغايات حتى يكون كاملا مكتملا فهما مفهما"²؛ أي التمكن من تحديد دلالات الكلمات والألفاظ التي يتضمنها الخطاب والقدرة على

¹ - الزمخشري، الكشاف، ط1، بيروت: 1977، دار الفكر، ص81.

² - النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، مج5، ج 17، 23، د.ط، القاهرة: 1962، دار الكتب، نقلا عن: مهى محمود إبراهيم العتوم، تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث دراسة مقارنة في النظرية والمنهج أطروحة دكتوراه الأردن: 2004، ص6.

توصيله للمخاطب بطريقة تمكنه من فهم قصد منتج الخطاب، ولا يبتعد تفسير "ابن عربي" (238هـ) عن تفسير "النيسابوري" و"الزمخشري"؛ فقد عرف فصل الخطاب بقوله: "وفصل الخطاب الفصاحة المبيّنة للأحكام؛ أي الحكمة النظرية والعملية والشريعة، وفصل الخطاب هو المفصول المبيّن من الكلام المتعلّق بالأحكام"¹؛ ربط "ابن عربي" مصطلح فصل الخطاب بالشريعة، وبيّن بأنّه الحكم الواضح الذي لا يشوبه اللبس. ويبدو من التعاريف السابقة أن كلمة فصل هي التي زادت المعنى وضوحاً وأزالت عنه الغموض.

- **دلالة الخطاب في المعاجم العربية:** جاء في لسان العرب "لابن منظور" (711هـ): "الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة"²؛ فالخطاب هو عملية انتقال الكلام من شخص لآخر؛ ويتم تبادل الأدوار بفعل الخاصية التناظرية له؛ وهذا هو المعنى الذي ورد في معجم مقاييس اللغة "لابن فارس" (ت395)؛ حيث ورد الخطاب "الكلام المتبادل بين اثنين يقال: خاطبه يخاطبه خطاباً"³؛ يبدو أنّ مصطلح الخطاب في المعاجم اللغوية العربية لم يخرج عن معنى تبادل كلام مفيد بين طرفيه؛ حيث يتحوّل المتكلّم من منتج للخطاب إلى متلق له.

- **دلالة الخطاب عند علماء الأصول:** اهتم علماء الأصول بتحديد دلالة الخطاب ومعرفة العناصر المشكلة له باعتباره القاعدة الأساس التي تبنى عليها أعمالهم؛ والمتمثلة في استنباط أحكام الشريعة، وقد حددوا دلالة الخطاب بقولهم هو "أحد مصدري فعل خاطب يخاطب خطاباً ومخاطبة، وهو يدلّ على توجيه الكلام لمن يفهم"⁴ أي هو الكلام الموجّه إلى إنسان عاقل يملك القدرة على فهم الأشياء.

¹ - ابن عربي، تفسير القرآن الكريم، تح: مصطفى غالب، مج 2، ط3، بيروت: 1978، دار الأندلس للنشر والتوزيع ص249.

² - ابن منظور: لسان العرب، لسان العرب، ط1، مج 1، بيروت: 1968، دار صادر للطباعة والنشر، مادة خطب.

³ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ط1، بيروت: 1992، دار صادر، ص167، 168.

⁴ - إدريس حمادي، الخطاب الشرعي وطرق استثماره، ط1، بيروت: 1994، ص21.

وعرّف "الأمدي" الخطاب بقوله: "اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه"¹؛ أي هو الكلام المتفق عليه، والذي يقصد المتكلم من خلاله إفهام السامع؛ فالخطاب بهذا المعنى هو الكلام المفيد الذي يهدف المتكلم من وراء إنتاجه إلى التأثير في المتلقي.

- دلالة مصطلح الخطاب عند المُحدثين: عرّف "طه عبد الرحمن" الخطاب بأنه: "كلّ منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصوداً مخصوصاً"²؛ فالخطاب هو كل ما يهدف إلى تبليغ مقصود للمخاطب.

يبدو بأنّ هذه التعريفات تتفق في أنّ الخطاب هو كل كلام موجه إلى الغير يفترض وجود مخاطب ومخاطب؛ بحيث يكون هدف الأول تبليغ رسالته الحاملة لمقاصد مختلفة.

2.1. الخطاب في الثقافة الغربيّة:

شهد مصطلح الخطاب اهتماماً من قبل الغربيين، ويعدّ "هاريس" (Harris) أول من اهتم بدراسة هذا المصطلح؛ حيث حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني بجعله يتعدى حدود الجملة إلى الخطاب، وقد نقل لنا الدكتور "سعيد يقطين" في كتابه تحليل الخطاب الروائي تعريف "هاريس" (Harris) للخطاب؛ حيث عرفه بأنه: "إنّه ملفوظ طويل أو هو متتالية من الجمل تكون منغلقة يمكن من خلالها معاينة سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية"³؛ فهو كل كلام تجاوز حدود الجملة يمكن دراسة مكوناته بواسطة المنهجية التوزيعية.

وأما "تودوروف" (Todorov)؛ فقد عرّف الخطاب بأنه "أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع، وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما"⁴؛ أي أنّ الخطاب يفترض وجود طرفين يهدف الطرف الأول للتأثير في الطرف الثاني.

يبدو من خلال هذه التعريفات أنّها وإن تعددت إلا أنّها تتفق على أنّ الخطاب بنية لغوية تتجاوز حدود الجملة وتستدعي وجود متكلم ومخاطب؛ يكون في نية الأول التأثير في الطرف

¹ - الأمدي، الأحكام في أصول الأحكام، تح: أحمد محمد شاكر، ط1، بيروت: 1980، دار الأفاق الجديدة مج1 ص136.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المغرب: 1998، المركز الثقافي العربي، ص15.

³ - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ط1، بيروت: 1989، المركز الثقافي العربي، ص17.

⁴ - تودوروف، اللغة والأدب في الخطاب الأدبي، تر: سعيد الغانمي، د.ط، بيروت: 1993، المركز الثقافي، ص48.

الثّاني وإقناعه، وعلى هذا الأساس يقترن لفظ الخطاب بوصف آخر يحدّده الموضوع، وبذلك يمكن تصنيف الخطاب حسب الموضوع إلى: الخطاب الأدبي، والخطاب السّياسي، والخطاب الثّقافي والخطاب الدّيني هذا الأخير تتمحور حوله دراستي.

3.1. مفهوم الخطاب الدّيني:

تطرقت في البداية لمفهوم الخطاب أما الدّيني: "فنسبة إلى الدّين، والدّال والياء والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلّها، وهو جنس من الانقياد، والطاعة"¹؛ وعليه فإنّ الأمر الدّيني أمر مختص بالدّين متعلق به؛ فهو مصطلح لم يخرج عن المعنى اللّغوي لألفاظه ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى صعوبة إيجاد تعريف دقيق لكلمة "دين"، فاللفظ يأخذ حمولته الدلالية من الخلفية الفكرية التي تعرفه؛ حيث تربطه الدّراسات الأنثروبولوجية بالمعتقدات التي يكونها الإنسان في علاقته بالكون والطبيعة، وما يترتب عن ذلك من سلوك اجتماعي يجسد هذه العلاقة ويعبّر عنها؛ في حين أن مفهومه بالنسبة للثقافات التي ارتبطت بالدّيانات السماوية أخذ بعدا آخر من خلال التّركيز على المعتقدات والشرائع التي تربط الإنسان بخالقه والإذعان لأوامره، وهذا المفهوم هو السائد في الثّقافة العربية الإسلامية²؛ بحكم أنّ الخطاب الدّيني في الثّقافات الإسلامية يستمد مرجعيته من القرآن الكريم والسنة النبوية.

ولا أهتم هنا بعرض اختلافات المفهوم، وإنّما أهدف لوضع إطار يمكنني من تحديد مفهوم "الخطاب الدّيني"، وبالتالي سأحصر مفهومي للدّين في هذه الرّؤية الإسلاميّة ما دمت أنتمي لهذه الثّقافة، فالدّين يرتبط بما جاء به الإسلام من تعاليم تهّم الجوانب العقائدية والتشريعية على حدّ سواء؛ والخطاب الدّيني "هو ذاك الخطاب أو تلك الخطابات المتعددة التي تجمع بين أشكال متعدّدة ومختلفة من الخطابات؛ القرآن الكريم؛ الحديث النبوي، تفسير القرآن، علوم الدّين، الفقه الوعظ..."³؛ أي هو مجمل الخطابات التي عملت وتعمل على توضيح صورة الإسلام.

¹ - ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، ص198.

² - سعيد جبار، "بلاغة الإقناع في خطاب الوعظ"، مقال منشور ضمن كتاب: بلاغة الخطاب الدّيني، إعداد وتنسيق:

محمد مشبال، ط1، الرباط: 2015، منشورات الاختلاف، ص220.

³ - الحسين بنو هشام، "بعض خصائص الحجاج في الخطاب الدّيني من خلال خطاب السيّد يوسف القرضاوي في برنامج الشريعة والحياة"، مقال منشور ضمن كتاب بلاغة الخطاب الدّيني، ص289.

وقد عرّف "يوسف القرضاوي" الخطاب الديني بقوله: "كل بيان باسم الإسلام يوجه للناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين؛ لتعريفهم بالإسلام، وقد يأخذ هذا الخطاب أشكالاً مختلفة مباشرة كالاتصال الشخصي أو غير مباشرة كالاتصال الجماهيري المقروء والمسموع والمرئي"¹؛ أي كل خطاب باسم الإسلام يحمل رسالة دينية يتمّ تبليغها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وقد عرّفه "خالد روشه" بأنّه: "هو البيان الذي يوجه باسم الإسلام إلى الناس مسلمين وغير مسلمين لدعوتهم إلى الإسلام، أو تعليمه لهم، أو تربيتهم عليه عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملة فكريا وسلوكا، لشرح موقف الإسلام من قضايا الحياة والإنسان والعالم فردية أو اجتماعية روحية أو مادية نظرية أو عملية"² فهو بهذا كلّ خطاب صادر عن جهات ناطقة باسم الدين الإسلامي موجهة إلى كافة الناس، بهدف ترسيخ العقيدة في نفوسهم، وتعليمهم أصول الدين وتربيتهم عليه، وتنشئتهم تنشئة إسلامية خالية من الشوائب.

وهناك من عرّفه بأنّه "الخطاب الذي يستند إلى مرجعية دينية، من أصول الدين الثابتة: القرآن والسنة، سواء كان منتج الخطاب منظمة إسلامية أم مؤسسة دعوية رسمية أم غير رسمية أم أشخاصا مختلفين؛ سعيا لنشر دين الله عقيدة وشريعة وأخلاقا ومعاملات وبذل الوسع في ذلك. ويتميّز الخطاب الديني بعودته إلى منهج السلف الصالح وتنقيته من البدع والخرافات"³؛ فهو الخطاب الذي تصدره مؤسسات ناطقة باسم الدين يقوم على مرجعية دينية ثابتة تتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية، يهدف إلى خدمة الدين الإسلامي من خلال نشره والدعوة إليه، وتنقيته من البدع والخرافات العالقة به، وتعريف الناس به.

وعرّفته "إلهام المتمسك" بأنّه "فن فنون القول، ووسيلة من وسائل التأثير، إته فن من فنون تلقين المعرفة الدينية، وطريقة من طرائق تحريك الوعي لدى المتلقي، وهو كذلك عملية تروية

¹ - يوسف القرضاوي، "بين ضغوط الخارج ومخاوف الداخل علماء ودعاة يشددون على ضرورة تجديد الخطاب الديني دون

إملاءات خارجية" عن الموقع الإلكتروني: <http://Memnber-alhewar.net/Forumphp?action=view&id=793> &cat_id=16. يوم: 2015/04/14

² - خالد روشه: "الخطاب الإسلامي مقارنة منهجية" عن الموقع الإلكتروني: <http://www.Islamselect.Com/> article/37174. يوم: 2015/04/14

³ - ينظر: أحمد محمد هليل، "تحديات الخطاب الديني في ظل التحولات المجتمعية والدولية الراهنة"، عن الموقع الإلكتروني: <http://repository.nouss.edu.sa/handle>. يوم: 2015/05/23

توجيهية أساسها القرآن الكريم والسنة النبوية، وهو أيضا كلّ تعبير عن رسالة الإسلام الأخلاقية والحضارية، وكل تعبير عن حقيقة الدين الإسلامي، كما أنّ الخطاب الديني هو الوسيلة التي يخاطب بها المسلمون العالم، والمنهاج الذي يصوغون من خلاله أفكارهم ومواقفهم التي يريدون إيصالها إلى الناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين¹؛ إنّه استراتيجية تقوم على مرجعية دينية يستند إليها الناطق باسم الدين، ويهدف من خلالها إلى التأثير في المتلقي وتوجيه سلوكاته من خلال توضيح رسالة الدين الأخلاقية والحضارية.

وهناك من يرى أنّ الخطاب الديني "هو الأقوال والنصوص المكتوبة التي تصدر عن المؤسسات الدينية أو عن رجال الدين، أو التي تصدر عن موقف إيديولوجي ذي صبغة دينية أو عقائدية، والذي يعبر عن وجهة نظر محددة إزاء قضايا دينية أو دنيوية"²؛ لذلك يعتبر مجموعة من الأفكار تعبر عن معتقدات دينية تسند إلى مرجعية دينية، وتهدف إلى التأثير في المتلقي المؤمن بهذا الخطاب، وتعمل على توجيهه وجهة معينة من خلال إبراز وجه المنفعة في ذلك الخطاب.

وبناء على ما سبق لم يكن المقصود بالخطاب الديني "هنا النصوص الدينية المقدسة (القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف) فقط، بل المقصود منه أيضا كلّ الخطابات الدينية البشرية؛ سواء أنتجها أصحابها في معرض تفسير القرآن، أم في معرض الاجتهاد في إصدار الأحكام الدينية، أم في معرض توصيل مبادئ الدين وتعاليمه واستلهاها"³، وهذا يعني بأنّ الخطاب الديني هو الخطاب الذي يتم فيه التركيز على شرح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ إذ ما الفائدة من سرد تلك الآيات الواحدة تلو أخرى دون الوقوف على دلالتها ومقاصدها؛ ولذلك يجب على الخطباء أن يحرصوا على انتقاء الاستراتيجيات الملائمة التي تساعدهم على تبليغ خطابهم، وتضمن لهم نجاح الرسالة؛ ولكي يكون الخطاب الديني إسلاميا عليه أن يستند إلى المرجعية الدينية المتمثلة في

¹ - إلهام المتمسك، الخطاب الديني عند الدكتور عباس الجراري المرجع والبنية، ط1، الرباط: 2008، منشورات النادي الجرائي، ص25.

² - إلهام المتمسك، الخطاب الديني عند الدكتور عباس الجراري المرجع والبنية، ص33.

³ - محمد مشبال، بلاغة الخطاب الديني، ص8.

القرآن والسنة النبوية، وأن لا يتجاوز أصولها الثابتة ونصوصها القطعية التي لا يصح الخروج عليها.

4.1. المرجعية المؤسسة للخطاب الديني:

- القرآن الكريم: القرآن الكريم هو كلام الله المنزه عن الخطأ أنزله الله سبحانه وتعالى على سيدنا محمد (ﷺ)؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ بما تضمنه من أحكام تفصل بين الحق والباطل، وترشد إلى الطريق المستقيم. وهو المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي؛ ولهذا يجب على الخطباء والدعاة أن يستندوا إليه في استنباط أحكامهم، وأن يحتكموا إليه إذا اختلفوا؛ إذ لا شك في أنّ القرآن الكريم: "... هو الأصل الذي تدور حوله الاجتهادات المختلفة للفهم الديني"¹ وهو الذي "امتاز بأسلوب تصويري عجيب في إيصال المعاني متجسدة؛ فأذهل أرباب البلاغة وهال سلاطين البيان، ووجدوا أنفسهم أمام خضم زاخر من القول المعجز الذي ما إن تصافح كلماته أسماعهم، حتى تمس شغاف قلوبهم وتستنقر في أذهانهم بما تضمنت من معان صفت من معان قيمة مفاهيم جديدة"²؛ ولهذا يبقى القرآن هو معجزة النبي محمد (ﷺ)؛ "وكلمة تقدمت المجتمعات في المعارف يظهر إعجاز القرآن أوضح حسب تفكير تلك المجتمعات؛ لأنّ القرآن هو الحقيقة المطلقة؛ حقيقة مطلقة في صياغته اللغوية والعلمية والخطابية والبيانية والفنية"³؛ ولهذا تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجان أن يأتوا بمثله.

والقرآن الكريم هو المنبع الذي يستمد منه الخطباء أفكارهم؛ نظرا لقوة حجته التي تكمن في إعجازه البلاغي والعلمي، ونظرا لسلطته في التأثير ولوظيفته التبليغية؛ وقدرته على إضفاء المشروعية على الخطاب؛ ولا يتحقق الهدف من الخطاب الديني بمجرد الاستشهاد بأية تلو أخرى وإنما بالوقوف على دلالتها بخاصة اللغوية.

¹ - عفة الشرقاوي، الفكر الديني في مواجهة العصر، دراسة تحليلية لاتجاهات التفسير في العصر الحديث، ط2، بيروت: 1979، دار العودة، ص56.

² - عبد الرحمن صيام، دراسات في أدب العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ط1، الجزائر: 1984، ص311.

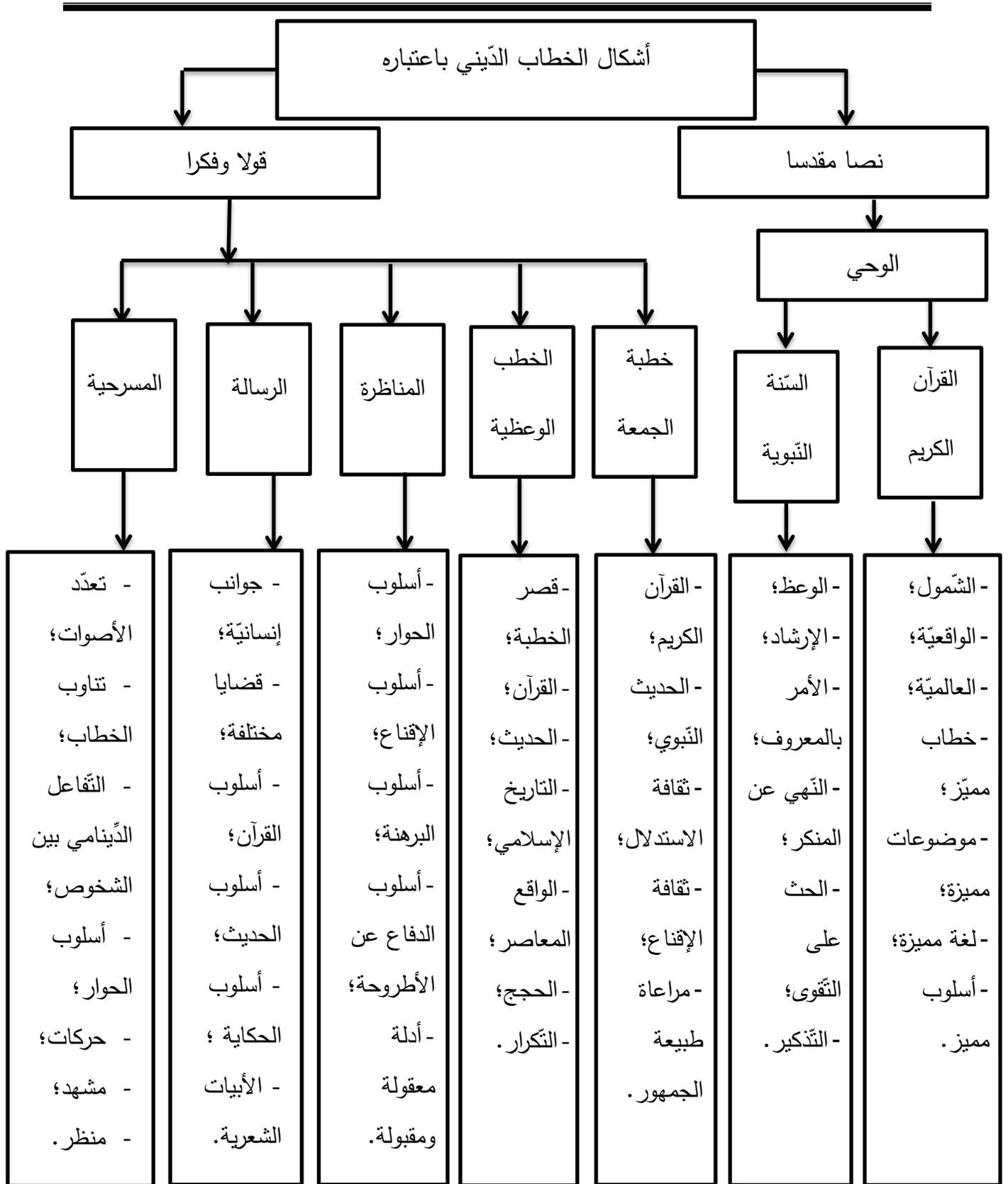
³ - صالح بلعيد، "مدخل في الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم"، مقال منشور ضمن أعمال اليوم الدراسي التاسع حول: الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، تيزي- وزو: 2014، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، ص9.

- السّنة النبوية: هي أقوال وأفعال الرّسول (ﷺ)، وهي "المصدر الثّاني من مصادر التّشريع الإسلامي، وتلي الكتاب العزيز في الرتبة من حيث الاستدلال بها على الأحكام الشّرعية واستنباطها منها"¹؛ لأنّ كلام الرّسول (ﷺ) هو المفصل والموضح لكلام الله سبحانه وتعالى. أستنتج مما سبق بأنّ الخطاب الدّيني هو الخطاب الذي يستند إلى مرجعية دينية ثابتة أساسها القرآن الكريم والسّنة النبوية، كما أنّه الخطاب الصادر عن هيئات ناطقة باسم الدّين الإسلامي تهدف إلى نشره والدعوة إليه والتّمسك به؛ لأنّه دين الحق ودين الحضارة؛ ولذلك ينبغي أن يبني الخطاب الدّيني على القيم الحضارية العالية، والمبادئ السّامية؛ فالخطاب الدّيني وسيلة تأثيرية؛ لهذا فإنّه من الضروري أن يهتم الخطباء بإنتاجه وانتقاء الأفكار المؤثرة التي تعمل على التّغيير الحقيقي، وليضمن الخطيب نجاح خطابه لا يبد له أن يستعين بالآليات الإقناعية لما لها من دور في التّأثير على عقول المُخاطبين، وحملهم على الإذعان.

وعادة ما يظهر الخطاب الدّيني في أشكال مختلفة، حيث يمكن أن يأخذ شكل المناظرة والرّسالة، والمقالة، والكتاب، والمسرحية،... وخطب الوعظ وخطب الجمعة، كما تبين الخطاطة التّالية.²

¹- شيخ امر الهوارية، تقنيات الإقناع في الخطاب الدّيني وآلياته التداولية دراسة في استراتيجية التّواصل اللّساني أطروحة دكتوراه، وهران: 2015، ص3.

²- إلهام المتمسك، الخطاب الدّيني عند الدكتور عباس الجراري، ص 26



يظهر من هاته الخطاطة أن خطبة الجمعة تختلف عن باقي أنواع الخطاب الديني؛ لأنها توجه لأناس ذوي أعمار مختلفة، ومستويات ثقافية متباينة؛ ولذلك يجب على الخطباء أن يحيطوا بطبيعة المخاطبين، وأن يسوقوا كلامهم على أقدارهم؛ وأن ينتقوا الاستراتيجيات المناسبة التي تتلاءم مع جميع الأعمار والمستويات حتى يستطيعوا التأثير فيهم؛ فليس الهدف من صلاة الجمعة أداء الركعتين فحسب، بل لا بد أن يهتم المسلمون بما يلقي عليهم من أفكار تهدف إلى التغيير وتسعى إلى بناء ما هو جديد، وأن يعتبروا مما يقص عليهم من قصص الأنبياء لما فيها من عبر وحكم تأخذ الألباب؛ فيشحنوا همهم ويوقفوا عزائمهم ويعرفوا واجبهم.

وإن خطبة الجمعة أهم أركان صلاة الجمعة؛ ولما كان الخطاب الديني الذي اخترته هو مجموعة من خطب الجمعة، فإنه من الأهمية بمكان أن أقدم تعريفاً وجيزاً عن مفهوم خطبة الجمعة.

2. خطبة الجمعة: صورة من صور الخطاب الديني:

1.2. مفهوم خطبة الجمعة:

هي تلك الخطبة التي "تلقى على المنبر يوم الجمعة قبل صلاة الجمعة، وهي شرط لصحة الجمعة، وبه قال: الأئمة أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد رحمهم الله"¹، وهي شعيرة أسبوعية يلتقي فيها الخطيب بالمصلين؛ ليعظهم، وينصحهم ويوصيهم، ويذكرهم، بالحكمة والموعظة الحسنة.

2.2. أركان خطبة الجمعة:

هذه الصورة من صور الخطاب الديني قد شملها العلماء بصنوف من التنسيق والتنظيم؛ فذكروا لها أركاناً لا يجوز إسقاطها وبدونها لا تصح الخطبة وهي الحمد والثناء والتشهد والدعاء والأمر بتقوى الله تعالى ويذكرون لها سنناً أيضاً منها²:

¹ - محمد بن عدنان بن محمد السمان، "خطبة الجمعة أهميتها، وأثرها في تعزيز الأمن الفكري" بحث مقدم للمؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري "المفاهيم والتحديات"، السعودية: 2008، على الموقع الإلكتروني: Repository.taibahu.edu.sa/handle. يوم: 2015/05/20.

² - عماد علي عبد السميع حسين، تجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع روح العصر، صورة دعوية في ضوء المستجدات والمتغيرات المعاصرة، ط1، بيروت: 2004، دار الكتب العلمية، ص21، 22.

- أن تكون الخطبة على منبر؛ أي مكان عال مرتفع عن الأرض، ليتمكن جمهور الحاضرين من رؤية الإمام؛ فيكون ذلك أدعى لانتباههم ومتابعتهم خطابه؛
- أن يقبل الخطيب بوجهه على الناس مستدبرا القبلة؛
- أن يسلم الخطيب قائما مادام يقدر على القيام؛
- أن يرفع الخطيب صوته حسب الحاجة؛
- أن يجلس بين الخطبتين جلسة قصيرة للاستراحة والفصل بينهما؛
- ألا يكثر من الإشارة إلا مما تفيد في قوله؛
- أن تكون الخطبة قصيرة بقدر الإمكان حتى لا يمل السامع؛
- أن يحضر الخطيب وقت حلول الخطبة.

وفي الأخير لا بد أن تشتمل الخطبة على دعاء للمسلمين عامّة والحاضرين خاصّة وهذه السنن في الخطبة مأخوذة من هدي النبي (ﷺ)، وتعدّ الخطبة الدّينية على هذا النحو صورة من صور الخطاب الدّيني الأكثر فائدة وتأثيراً، وذلك لما لها من مكانة في قلوب النّاس من تقديس والتزام.

3. الخطاب الدّيني: أسباب الفشل وعوامل الإخفاق:

تعتبر الخطبة الدّينية من أشق أنواع الخطب، فإذا استهان بها "الخطيب وجعلها أمراً تقليدياً هانت وسقطت، وأصبحت عديمة الفائدة، ولعل هذا التّصور الخاطئ للمواعظ ودورها ومنزلتها الفكرية والفنية هو ما هبط إليه الوعظ في العصر الحديث في بعض الأقطار الإسلاميّة، من ضعف في اللّغة وجفاف الفكر وبعد عن الفن"¹ يظهر من هذا القول بأن الخطاب الدّيني يواجه عراقيل كثيرة أدت إلى إخفاقه نذكر منها:

1.3. غياب الإبداع:

يعدّ غياب الإبداع من أهمّ العوامل التي تقف وراء إخفاق الخطاب الدّيني؛ لأنّ المتلقي يمل من الاستماع إلى موضوعات مكرّرة يغيب فيها الجانب التّوعوي ويطغى عليها جانب الوعظ، فلا تضيف شيئاً جديداً، ولا تسد حاجة المجتمع، وفي ذلك يقول ابن القيم الجوزية: "إنّها تفيد أمورا

¹ - إلهام المتمسك، الخطاب الدّيني عند الدكتور عباس الجراري المرجع والبنية، ص62.

مشتركة بين الخلائق وهي النّوح على الحياة والتّخويف بالموت؛ فإنّ هذا الأمر لا يحصل في القلب إيمانا بالله ولا توحيدا له، ولا معرفة خاصّة به، ولا تذكيرا بأيامه ولا بعثا للنفوس على محبته والشوق إلى لقاءه؛ فيخرج السّامعون ولم يستفيدوا فائدة؛ غير أنّهم يموتون، وتقسّم أموالهم، ويجلي التّراب أجسامهم، فيا ليت شعري أي إيمان حصل بهذا؟ وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به¹؛ هذا العرض السّلبى للخطاب الدّيني تسبب في ركوده؛ فأصبح خطابا إنشائيا تقليديا جامدا. وبناء على ذلك يجب أن لا يركز الخطباء على موضوع واحد يؤدي إلى الانطواء "ويجعل الخطاب الدّيني محصورا في اتّجاهات معيّنة لا يمكن تجاوزها أو الخروج منها، ولا يبرز في الأماكن التي تحتاجها الأمة في الحضارة، والتّقدم والرّقي والاستفادة من الآخر"²؛ فالأمة بحاجة إلى موضوعات تخدم المجتمع في جوانب مختلفة من حياة الإنسان، وتتماشى مع الواقع الذي يعرفونه ويعيشونه.

2.3. تجاهل المخاطب وضعف الرصيد المعرفي:

يهمل كثير من الخطباء جوانب مهمّة في خطابهم؛ إذ نجدهم يتجاهلون طبيعة مخاطبيهم الذين ينقسمون إلى فئات مختلفة؛ فمنهم العالم، والجاهل؛ والصغير والكبير والمتفتح، والمتعصب؛ كما لا يحرصون على اكتساب المعرفة التي تؤهلهم؛ لإنجاز مهامهم على أكمل وجه" فهل يصلح لخطبة هذا شأنها، ومنبر هذه مكانته، أن يتولاها من لا يحسن شيئا، يتولاها من يردّد كلاما لغيره لا يعالج مشاكل المصلّين، ويعيد خطبا قيلت مرات وألقيت في مجتمعات غير مجتمعه، ويتطرّق إلى مشاكل غير واردة وبطيل في غير ما يهم"³؛ فلا تتحقق الفائدة المرجوة من الخطاب، زد على ذلك أنّ معظم الخطباء يتعجلون في سرد الأخبار والآثار والحكايات والعبر، والعظات دون أن يتساءلوا عن الذي تمّ تقديمه، هل كان سوقه مناسبا لأولويات المخاطبين، وحاجاتهم أم لا؟

¹ - ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج1، نقلًا عن إلهام المتمسك، الخطاب الدّيني عند الدكتور عباس الجراري المرجع والبنية ص61.

² - إلهام المتمسك، الخطاب الدّيني عند الدكتور عباس الجراري المرجع والبنية، ص13.

³ - أبو عبيدة مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان، القول المبين في أخطاء المصلّين، ط4، الرباط: 1996، دار بن حزم، ص368.

3.3. تغييب التفسير اللغوي والبلاغي للآيات القرآنية والأحاديث النبوية:

يهتمّ الخطباء في خطاباتهم الدينية بالاستشهاد باعتباره الدليل القاطع عن صحة أقوالهم؛ فنجدهم يستحضرون من القرآن الكريم والسنة النبوية كلّ ما يخدم موضوعهم؛ لكن النقد الذي يمكن أن يوجه لهم هو أنهم يهتمون بسرد الآيات الواحدة تلو الأخرى دون شرحها وتحليلها وتقريبها للمخاطبين؛ وينسون بأنّ الناس بحاجة إلى من يحلّل لهم الآيات ويبين مقاصدها وأهدافها، ومن الأهمية بمكان أن أوضح هنا بأن دعوتي إلى الاهتمام بالتفسير اللغوي لا تعني البتة إهمال جهود الفقهاء في تفسير النصّ أو الخطاب الديني على أنّ منهج التحليل اللغوي "المنهج الوحيد الممكن الملائم لموضوع الدرس ومادته؛ بل هو المنهج الوحيد الإنساني الممكن لفهم الرسالة، وفهم الإسلام"¹؛ وإنّما أروم الجمع بين التفسير الفقهي والتفسير اللغوي .

4. الخطاب الديني وضرورة التجديد نحو إحداث تغيير للأساليب التقليديّة:

عرضت في ما سبق أبرز التّحديات التي تسببت في فشل الخطاب الديني الراهن ووقفت ضد نجاحه، ورأيت أنّه من المهم البحث عن أهم الطرائق التي نواجه بها هذه العوائق.

1.4. تجديد الخطاب الديني:

إنّ الحديث عن موضوع "التّجديد" في الخطاب الديني ليس وليد عصرنا، بل تعود جذوره إلى "عصور التّخلف التي عاشها العالم الإسلامي في أواخر أيام الدعوة العثمانية؛ فقد أصيبت الحياة بشيء من الجمود والتقليد"²، وهذا يعني أنّ الحديث عن التّجديد، وإن بدا جديدا إلا أنّه قديم، وقد مسّ مختلف المجالات: الاقتصادية والاجتماعية والدينية... الخ.

ويقصد بتّجديد الخطاب الديني: " حفظ نصوص الدين الأصليّة صحيحة نقيّة، ونقل المعاني الصحيحة للنصوص، وإحياء الفهم السليم لها، والسعي للتقريب بين واقع المجتمع المسلم في كلّ عصر، وبين المجتمع النّمونجي الأول الذي أنشأه الرسول (ﷺ)، وإحياء مناهج ذلك المجتمع في فهم النصوص والاجتهاد، كما يشمل التّجديد تصحيح الانحرافات النّظرية والفكرية والعملية

¹ - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النصّ، دراسة في علوم القرآن، ط5، الدار البيضاء: 2000، المركز الثقافي العربي ص25، 26.

² - عماد علي عبد السميع حسين، تجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع روح العصر، ضرورة دعوية في ضوء المستجدات والمتغيّرات المعاصرة، ص33.

والسلوكية وتنقية المجتمعات من شوائبها"¹؛ يعني تجديد الدين تنقيته من البدع والشوائب التي ألحقها به المنحرفون عن الصراط المستقيم؛ وإحياء ما اندثر منه وإعادته لأصله، "ولا يعني إحداث تشريع لم ينزل به الوحي، أو تغيير حكم ثابت بدليل قطعي، وإنما يشمل ما درس من أحكام الشريعة وما ذهب من معالم سننها، وما خفي من العلوم الظاهرة والباطنة.... كما أن التجديد لا يعني التخلص من القديم أو محاولة هدمه والاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر فهذا ليس من التجديد في شيء، وإنما يراد بالتجديد الاحتفاظ بالقديم وإدخال التحسين عليه ومحاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ، وتتميته من داخله"²؛ فمشروع التجديد يركز على فهمنا للدين وقراءتنا له لا على الدين نفسه.

بناء على ذلك لابد من التمييز بين "الخطاب الديني المقدس"؛ ممثلاً في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ و"الخطاب الديني الوضعي"، الذي هو كل خطاب ديني خارج القرآن الكريم والحديث النبوي دون أي استثناء؛ خطاب بشري له كل خصائص الخطاب البشري؛ خاصة قابليته للخطأ والصواب، وبالتالي للنقد"³؛ وتأتي ضرورة هذا النقد من مشروع "نقد العقل الإسلامي"؛ لأن نقد العقل، جزء أساسي وأولي من كل مشروع للنهضة، ولكن نهضتنا العربية الحديثة جرت فيها الأمور على غير هذا المجرى، ولعل ذلك من أهم عوامل تعثرها المستمر إلى الآن، وهل يمكن بناء نهضة بعقل غير ناهض، عقل لم يقم بمراجعة شاملة لآلياته ومفاهيمه وتصوراتهِ ورؤاه"⁴؛ فأدى إلى تخلف المسلمين، وتراجع مستوى الأمة الإسلامية.

ومن هنا تظهر أهمية التجديد، واهتمام الدين الإسلامي به؛ بحيث قيّض الله سبحانه وتعالى للأمة الإسلامية من يجدد لها دينها قال رسول الله (ﷺ): "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها"⁵؛ وهذا من فضل الله ورحمته "فالظروف المحيطة والزمن الذي

¹ - بسطامي محمد سعيد، مفهوم تجديد الدين، ط1، الكويت: 1984، دار الدعوة، ص27.

² - عماد علي عبد السميع حسين، تجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع روح العصر، ضرورة دعوية في ضوء المستجدات والمتغيرات المعاصرة، ص37.

³ - الحسين بنو هاشم، "بعض خصائص الحجاج في الخطاب الديني من خلال خطاب السيد يوسف القرضاوي في برنامج" الشريعة والحياة"، ص290.

⁴ - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ط10، بيروت: 2009، مركز دراسات الوحدة العربية، ص5.

⁵ - أبو داوود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، ج4، ص480.

يعيشه العالم، يفرض على الخطيب أن يساير العصر في دعوته إلى الله تعالى، وإلا اتهم بالتخلف، ونفر الناس منه، وما من داعية أو خطيب إلا ويحب أن يقبل الناس عليه؛ لينهلوا من علمه؛ وعليه يجب على الخطيب أن يطالب نفسه قبل أن يطالبه الناس بتجديد الخطاب الديني وإذا كان الإمام الشافعي قد غير كثيرا من فتاواه في مصر بعد أن غادر العراق تبعا لتغير الأجواء والظروف، فما بالك إذا تغير الزمن وتغير المكان، لا شك أن الضرورة ستكون أشد، وستكون حتمية للتجدد والتغير¹؛ نفهم من هنا بأن نجاح الخطاب الديني مرهون بالاستجابة للتطورات الراهنة التي مست جميع المجالات وبخاصة المجال التكنولوجي.

وذلك ما أكده الدكتور "جمال محمد بواطنه" بقوله: "وما كان يصلح خطاب قبل قرون لا يصلح الآن بالتأكيد في الأسلوب، وفي المعلومة وفي الفكرة، وأعتقد جازما أن العلماء والدعاة الذين جمعوا بين الثقافة الإسلامية الأصيلة، وبين الانفتاح على العصر مع القدر المعقول من المنطق والفلسفة استطاعوا خدمة الدين أكثر من غيرهم، وأفادوا أكثر من غيرهم كل من رآهم أو سمعهم"²؛ فخدمة الدين بحاجة إلى تكوين خطباء يفقهون أمور الدين، ويقبلون الانفتاح على الآخر ويحرصون على اكتساب جميع العلوم من أجل خدمة الدين وخدمة المجتمع.

2.4. الإعداد الجيد للخطباء:

يعدّ الخطيب المحور الأساس في عملية الارتقاء بالخطاب الديني؛ لذلك أروم من المسؤولين أن يحرصوا على تكوين الخطباء على مستويات مختلفة أهمها المستوى اللغوي؛ لئتمكّنوا من تبليغ رسالتهم على وجه صحيح، فإذا كان "الدعاة العاديون لا بدّ لهم من العلم والورع، وحسن الخلق والتزام الحكمة؛ ليصبحوا أهلا للدعوة؛ فإنّ خطباء الجمعة المؤهلين لها حقا وصدقا لا تكفي فيهم هذه الشروط؛ بل يجب أن يضعوا لها الحظ الكافي من بلاغة القول وحسن الإلقاء، وجودة الصوت وسلامة اللسان وملكة الخطابة، وصدق الفراسة"³؛ فاللغة هي وسيلة تبليغ الأفكار؛ ولذلك يجب أن يمتلك الخطباء ملكة لغوية تعينهم على أداء مهامهم.

¹ - جمال محمد بواطنه، "تجديد الخطاب الديني المعاصر ضرورة ملحة"، مقال منشور على الموقع الإلكتروني: Kep.org- sa/wp-content/uploads/2015/09/renewal.of_islamic_discourse_04pdf. 2015/05/25 يوم.

² - المرجع نفسه.

³ - إلهام المتمسك، الخطاب الديني عند الدكتور عباس الجراري المرجع والبنية، ص62.

وينبغي تكوينهم في المجال الديني حتى يدركوا فقه ترتيب الأولويات في الأحكام؛ لأنّ ترتيب الأولويات سنة تشريعية، يجب أن يعيرها الخطباء كامل اهتمامهم؛ حتى يقبل الناس على خطابهم ولا ينفروا منه؛ فقد تسبب التّشدد في كثير من الأحيان في النّفور من بعض الخطاب؛ في حين نجد إقبالا كبيرا على الخطابات التي يدرك منتجوها فقه الأولويات والمقاصد الأساسية للشريعة "وينبغي أن يستمد هذا التّكوين مادته من خصائص الوضع الراهن، الذي يدعو إلى الالتزام الصارم بالعمل على ترقية حقوق الإنسان، وعلى ترقية ثقافة السّلم والمحبة بين النّاس جميعا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وألسنتهم وديانتهم. إنّ الإمام الذي ننشده للإشراف على التّوجيه في مساجدنا هو الإمام المتّسم بالتّفتح، وليس الانفتاح وشتان بين التّفتح والانفتاح، والمتّصف بالتّسامح الذي لا يعني السماح والتنازل عن المبادئ والقيم"¹؛ أي الذي يقدم خطاب الوعي على خطاب الوعظ ويدعو إلى التّفاهم من خلال غرس فكرة أنّ الاختلاف سنة من سنن الله سبحانه وتعالى وظاهرة عالميّة يجب أن نتقبلها ولا يعني تقبلها التخلي عن المبادئ الإسلاميّة.

إنّ رفض رأي الآخر تعصب وتطرف وانغلاق وإنّ الإسلام دين لا يعرف الانغلاق ولا يهاب ما لدى الآخر من فكر وعلم أو ينظر إليه نظرة عداة وازدراء؛ فهذا الدّين يربي المسلم تربية استقلالية تنتفع بما لدى غيرها من خير، وتهمل ما عداه، وهذه التّربية تتمتع بحصانة تحول بينها وبين أن تذوب في سواها، وهي في ما تلم به من ثقافات ومعارف أيّا كان مصدرها تحيله إلى صبغة جديدة؛ فيصبح وكأنّه فكر إسلامي خاص؛ فهي تربية تشبه النّحلة التي تجمع الرحيق من شتى الأزهار، ثم تخرجه بعد ذلك ذا مذاق خاص ونفع خاص"²؛ فالدين الإسلامي يقبل الاختلاف ويقبل الآخر ويعلمنا أن المشاكل تحل بالحوار وتبادل الأفكار، ويعلمنا أنّ هذه المفاهيم من صميم ديننا الذي يدعو إلى التّعاون والتّعايش والتّعارف.

وليس من الحكمة "وهي الركيزة الأساسيّة التي يقوم عليها تقبل الموعظة الحسنة أن نسوي بين النّاس جميعا في التّعامل أو توجيه الخطاب، حتّى مع المخالفين لنا؛ فإنّهم ليسوا سواء فمنهم

¹ - العربي زروقي، التّكوين الديني والبنية المعرفيّة للأئمة في الجزائر، وهران: 2014، رسالة ماجستير، ص106.

² - عماد علي عبد السميع حسين، تجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع روح العصر، ضرورة دعوية في ضوء المستجدات والمتغيّرات المعاصرة، ص37.

الضَّالِّ، والمضللّ....والخط في الخطاب وعدم التَّمييز بين النوعيات المختلفة دون مراعاة لمقتضى الحال خطأ، كالخطأ في الخط بين المفاهيم تماما بتمام، وإذا كانت مقتضيات نجاح الخطيب توجب عليه أن يراعي في خطابه للنَّاس جميعا مقتضى الحال فإنَّه مع من ينعمون بنعمة الإسلام مثله ويستظنون براية التوحيد أوجب"¹؛ أي أنَّه يجب على الخطيب مراعاة طبيعة المخاطبين فلا يخاطب العامة بما يخاطب الخاصة، وأن يبتعد عن معالجة الموضوعات التي لا تؤتي ثمارها، وأن يعايش الجماهير في أفراحهم وأحزانهم؛ ولذلك عليه أن يولي الأهمية البالغة لانتقاء موضوعاته.

ويعد اختيار الموضوع من العوامل المساعدة على جلب المخاطب والتأثير فيه؛ فالخطيب المحنك هو الذي ينتقي من الموضوعات ما يعتقد أنَّ جمهوره بحاجة إليها؛ فلا تكون خطبه "تكرارا لخطب سابقة، ولا تكون بعيدة في معالجتها، غريبة في مضمونها، عقيمة الفائدة، خالية من الموعظة"²؛ أي أنَّه يجب أن يعالج في خطبه قضايا ترتبط بواقعهم حتى يستفيدوا منها في حل مشكلاتهم.

ولا شك أنَّ عدم الحنكة والذكاء في اختيار الموضوع المناسب يجعل الخطيب في واد والمخاطبين في واد آخر "فالمناسبة لها أثر كبير في تحديد المنطلق الرئيس لموضوع الخطبة؛ لذا لا يصح من الخطيب أن لا يغفل شأن المناسبة عند تحديد موضوع خطبته، بل عليه أن يختار الموضوع المناسب في الوقت والمكان المناسبين، فلا يعقل أن يتحدَّث الخطيب عن النِّكاح في وقت حدوث زلزال كبير؛ والأجدر أن يذكرهم بنوبهم وحثهم على الطاعة والاستعداد للموت ولقاء الله عز وجل، وحثهم على مساعدة الآخرين وغير ذلك"³، ولا يجب أن تكون المناسبة على حساب

¹ - عماد علي عبد السميع حسين، تجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع روح العصر، ضرورة دعوية في ضوء المستجدات والمتغيرات المعاصرة، ص 6.

² - إسماعيل محمد شندي، محمد محمد الشلش، "مواصفات خطبة الجمعة الناجحة"، ورقة علمية مقدمة إلى مؤتمر: خطبة الجمعة (بين الواقع والمأمول)، جامعة الخليل: 2014، نشر في الموقع الإلكتروني:

يوم: 2015/06/10. [WWW.qou.edu/home/sciresearchers pages/ismailshindi/r34_drismailshindi.pdf](http://WWW.qou.edu/home/sciresearchers/pages/ismailshindi/r34_drismailshindi.pdf)

³ - المرجع نفسه.

جمود الخطاب الديني؛ لأن ما يقوم به بعض الخطباء من تقسيم موضوعات معينة تقسيماً رتبياً على حسب المناسبات يجمد الخطاب الديني.

وقد جعل الجمود في الخطاب الديني "الناس حتى في القرى في فترات ليست بعيدة يعلمون مسبقاً ما سوف يقوله الإمام في خطبة الجمعة، خاصة في أشهر المناسبات من كثرة تكرار ذلك"¹ بحيث أصبح الدين مناسبات ومجموع عبادات شكلية، لا تنتظر للواقع ولا تستشرف المستقبل مع أن كثيرين ممن حاولوا تشويه الإسلام أنصفوه بعد أن درسوه واعترفوا بأنه ليس سبب تخلف المسلمين، وإنما سبب تخلفهم هو تهميشهم له في حياتهم يقول أحد العلماء الفرنسيين في ما نقله لنا عنه الدكتور "عماد علي عبد السميع حسين": "إن تقدم العلوم في الغرب في وقتنا هذا حصل رغماً عن الدين أما في دين الإسلام فإنه العكس من ذلك، - أي الدين الإسلامي - لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة إلا بانتشار العلوم؛ فإن بين الإسلام والعلوم رابطة كلية والغربي إذا صار عالماً ترك دينه، أما المسلم فلا يترك دينه إلا إذا صار جاهلاً"²؛ فالعلم هو أساس الحفاظ على الدين وهو وسيلة لبلوغ الهدف الذي يجب أن يضعه الخطيب نصب عينه، ويوظف طاقاته الإبداعية والمعرفية لتحقيقه، ولا ينبغي له أن يعلو منبر الخطابة دون أهداف محددة؛ لأن ذلك سيؤدي إلى تخبطه وتبعثر أفكاره في غير فائدة، ولا بد أن يكون الهدف تابعا للدوافع التي دفعته إلى اختيار موضوع خطبته ومتوافقاً مع الجمهور المستمع من حيث مستواه الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي؛ وغير ذلك فيكون اختياره للموضوع نابعا من صلاحيته للعرض على الناس ومقدار النفع المتوقع لهم منه"³؛ فليس الهدف من الخطاب سرد الأخبار، وإنما تحقيق المنفعة.

ويجب على الخطيب أن "يبذل جهده لإعداد موضوعه مسبقاً، ويجمع كل ما يتعلق به من آيات وأحاديث وأقوال وقصص وأمثال وأشعار وحكم وغير ذلك، ويضبطها ضبطاً جيداً دون أخطاء، ويعالج موضوعاً واحداً، في خطبته لا عدة مواضيع تشتت أذهان السامعين فلا يهتدون لمقصده من الخطبة، ويفترض أن يتأكد الخطيب مما ينقله من أقوال للجمهور فلا يقول شيئاً لا

¹ - عماد علي عبد السميع حسين، تجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع روح العصر، ضرورة دعوية في ضوء المستجدات والمتغيرات المعاصرة، ص 38.

² - المرجع نفسه، ص 63.

³ - إسماعيل محمد شندي، محمد الشلش، " مواصفات خطبة الجمعة الناجحة"، ص 8.

يتأكد من صحته، أو سمعه ولا يعرف مصدره، فعدم التثبت يزعزع ثقة الجمهور في علمه وقدرته ومصداقيته¹؛ أي يجب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار كل هذه الشروط؛ ليستطيع أن يحقق هدفه المنشود والمتمثل في إفادة المخاطبين.

وأن يجتهد في اختيار الموضوعات التي تعالج جوانب مختلفة من الحياة الإنسانية وأن يبلغ محتوى خطابه بأسلوب سهل يتلاءم مع مختلف أنواع المخاطبين؛ أي يجب أن يستحضر مخاطبيه أثناء إنتاج خطابه، ويخاطبهم على قدر عقولهم وفي هذا الصدد قال الرازي: "لو أراد الله تعالى خلق الدنيا والآخرة بما فيهما من السموات والأرض في قدر لمح البصر لقدر على ذلك، ولكن العباد خوطبوا بذلك على قدر عقولهم"²؛ وعن ابن عمر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) "حدثوا الناس، بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله"³؛ أي خاطبهم بما يفهمون حتى لا تكون فتنة وتنتشت عقول الناس ويفهمون أموراً في الدين لم يقصدها الدين، وقال ابن مسعود (رضي الله عنه): "ما أنت بمحدث قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة"⁴ وإذا تجاهل الخطيب عقول الناس وتفاوت فهمهم وإدراكهم لما يقول لم يحصل مقصوده من إظهار الحق، ولا من غيره مما يصبو إليه فلا ينبغي للعالم أن يملي ما لا يحتمله عقول العوام؛ لأن ذلك جهل وقصور يؤدي إلى نتيجة عكسية، وهي تكذيب الدين وتجهيله.

كما أنه إلى ضرورة الاستفادة من تقنيات العصر بخاصة ونحن في زمان التكنولوجيا وهو الزمن الذي يواجه فيه الخطاب الديني تحديات جمّة لا يمكن تجاوزها إلا إذا اجتهد الخطيب في عصرنة خطابه، لكي يحقق الهدف منه، ويصل إلى قلوب السامعين.

ولا تعني المعاصرة إلغاء الأصالة؛ إذ لا تعني الأصالة " التمسك بالتراث والوقوف عنده ولا نبغي به بديلاً على أنه الكمال والتّمام، فقد استوفى كلّ شيء، بل يعني تطويع معطيات الماضي لراهن العصر، إذ كيف يقاس الماضي في إطار مناخ الحاضر إن لم تكن هناك عوامل تشابه

¹ - إسماعيل محمد شندي، محمد الشلش، " مواصفات خطبة الجمعة النّاجحة" ص10.

² - محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، ط1، بيروت: 2000، دار الكتب العلمية، نقلا عن إسماعيل محمد شندي، محمد الشلش، "مواصفات خطبة الجمعة النّاجحة"، ص 20، 27.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

حيث إنّ دراسة الماضي في إطار مناخ الحاضر لا تحول دون التماس الخير في ما حققه التطور العلمي والإبداع العقلي¹؛ ولقد حاول "نصر حامد أبو زيد" إيجاد حلّ لمعادلة الأصالة والمعاصرة أي " كيف نربط بين المنجزات الغربية والتراث العربي؟ وما قيمة هذا الربط وجدواه؟ أهو وهم التأسيس الذي يتنازعنا؛ فكلما أتتنا صيحة من الغرب هرعنا إلى التراث نلوذ به ونحتمي، كأنّ المعرفة لا تستقيم في وعينا إلاّ إذا كان لها سند من تراثنا حقيقي أو وهمي"²، لقد شغلت هذه الأسئلة وأخرى ذهن "نصر حامد"، وجعلته يعود إلى التراث " وهذه العودة ليست نزقا طائشا نابعا من عدم التضج وعدم الاستقلال، ولكنها عودة نابغة من ضرورة وجودية وضرورة معرفية في نفس الوقت؛ فليس التراث في الوعي المعاصر قطعة عزيزة من التاريخ فحسب، ولكنه وهذا - هو الأهم - دعامة من دعامات وجودنا، وأثر فاعل في مكونات وعينا الراهن، وأثر قد لا يبدو من الوهلة الأولى بيّنا وواضحا، ولكنه يعمل فينا في خفاء، ويؤثر في تصوراتنا شئنا ذلك أم أبينا"³؛ ولذلك يجب أن نتمسك بالتراث وأن نستلهم منه أفكارنا بخاصة في بناء خطاباتنا، والتي يجب أن نراعي في بنائها متطلبات ومستجدات العصر وعلى ذلك أدلّة معتبرة من الكتاب والسنة؛ حيث "يعتبر أقوى دليل على تغيّر الخطاب بتغير ملبساته وموجباته هو القرآن ذاته، فقد رأينا خطاب القرآن المكي غير خطاب القرآن المدني وهو أمر معروف ومقرر لدى دارسي القرآن ويلاحظه كل من يقرأ القرآن ويعرف السور المكية فيه من المدنية؛ فموضوعات القرآن المدني تختلف عن موضوعات القرآن المكي في الجملة، وأسلوب القرآن المدني يختلف عن أسلوب القرآن المكي في الجملة"⁴؛ يبدو أن التجديد في الخطاب الديني ضرورة من ضرورات العصر.

ومن المسلمّ به هو أنّ القصور ليس في الدين؛ فالدين ثابت لا يتغيّر، وإنّما القصور في كيفية بناء الخطاب، واستخراج المواعظ وصياغتها بطريقة تستجيب للتغيرات الراهنة بخاصة ونحن

¹ - صالح بلعيد، في أصول النحو، ط1، الجزائر: 2005، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، ص3.

² - نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ط6، الدار البيضاء: 2001، المركز الثقافي العربي، ص51.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - إسماعيل محمد شندي، محمد محمد الشلّش، "مواصفات خطبة الجمعة الناجحة"، ص27.

في زمن التكنولوجيا، وهو الزمن الذي يحتم علينا مسايرة التقدم والتفوق في عرض دين الله وتقديمه في أفضل ثوب، ولن يتحقق ذلك إلا بالعمل على تجديده.

بناء على ما تقدم؛ فإن أفضل وسيلة لمقاربة الخطاب الديني والكشف عن أبعاده ومقاصده وتحديد أهدافه في اعتقادي، هي دراسة خطابات تتعلق بصورة من صورته دراسة دقيقة وشاملة وهذا هو غاية هذه الأطروحة؛ ولذلك ارتأيت أن أتناول شكلاً من أشكاله بالدراسة والتحليل، واخترت خطب الجمعة ل: "عبد الحميد مهدي".

التعريف بالصاحب المدونة:

ولد السيد "عبد الحميد مهدي" في يوم 12 فيفري من عام 1950، بقرية تحمات ولاية باتنة، ولما بلغ سن الرابعة أدخله والده إلى الكتاب الذي يشرف عليه، وفي سنة 1961 أتم حفظ القرآن الكريم، تحت إشراف والده، وفي سنة 1963 حفظ متن ابن عاشر ودرس عدة كتب في حلقات بالمسجد منها؛ متن ابن عاشر، الرسالة، تحفة الأطفال.

درس المرحلة الابتدائية والمتوسطة في مدينة أريس وفي سنة 1968 وجهته الإدارة مع بعض الزملاء إلى الثانوية التقنية توفيق خزندار بقسنطينة، فرع تقني رياضيات، في نظام داخلي وفي سنة 1972 / 1973 تحصل على شهادة البكالوريا، وتخصص في مادة الفيزياء والكيمياء. ووقفه الله سبحانه وتعالى في السنة التحضيرية إلى فتح مصلى وفي سنة 1976 / 1977 بدأ بتأليف أول كتاب له سماه "ماذا تعرف عن القرآن؟" تحوّل عنوانه في سنة 1983 في مطبعة البعث بقسنطينة إلى: "أمة القرآن" وفي سنة 1979 طلب منه والده رحمه الله، أن يقوم مقامه في تحضير دروس وخطب الجمعة، وفي غيرها من المناسبات؛ فبدأ في تحضيرها عام 1980 وفي نفس السنة، قام بعدة ندوات في مساجد باتنة، وطبعت منها اثنتين في كتيبات صغيرة: "منهاج المسلم الصالح" و"كتاباً صغيراً عنوانه: "النفس مطمئنة"، وفي سنة 1984 طلب منه بعض المصلين طباعة خطب الجمعة، فجمعها في ثلاثة أجزاء تحت عنوان: أمة الجمعة. وطبعتها في دار الشهاب بباتنة.

وفي الفترة الممتدة بين 1996 و 2002 عيّن أستاذا مشاركا في كلية الشريعة بجامعة الحاج لخضر بباتنة، وكلف بمادة التّحفيظ وترتيل القرآن برواية ورش عن نافع ومن 2002 إلى 2010 عيّن إماما بمسجد "عمرو بن العاص".

وفي عام 2010 وهو العام الذي تقاعد فيه من وظيفته بصفته أستاذاً في التّعليم الثانوي للعلوم الفيزيائية فكر في إعادة صياغة وترتيب خطب الجمعة، وجعلها في ثمانية أجزاء وجعل لكلّ منها جزءا مستقلا وسماها موسوعة أمة الجمعة. وهي كما يلي:

1. خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية.
2. خطب الجمعة في أركان الإسلام الخمسة.
3. خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم.
4. خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل قصة وعبرة وأسوة.
5. خطب الجمعة في الحياة الزوجية وتربية الأولاد.
6. خطب الجمعة في الأمراض النّفسية والعضوية والوقاية منها.
7. خطب الجمعة في الانتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة.

ولقد تناولت في دراستي خطب الجمعة التّالية:

1. خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية.
2. خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم.
3. خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل قصة وعبرة وأسوة.

الفصل الأول:

الاستراتيجية التّواصلية والبعد الأخلاقي في
الخطاب الدّيني

مدخل:

يستعمل الإنسان اللّغة؛ ليتواصل مع غيره من بني البشر على اختلاف عاداتهم وطبائعهم، وطبقاتهم الاجتماعيّة، ومستوياتهم الثقافيّة؛ وليتمكّن من قضاء حوائجه وتحقيق التّكامل والتّعايش مع غيره لا بدّ له أن يتوخى مجموعة من الاستراتيجيات التي تعينه على تحقيق أهدافه، ولا بدّ له أن يستحضر العلاقة التي تربطه بمُخاطبيه قبل إنتاج خطابه؛ ليضمن حسن سير العملية التّواصلية ونجاحها؛ وهذا هو الهدف الأسمى من التّواصل، إذ نجاحها يدلّ على قدرة الخطيب على الإقناع والتأثير في غيره.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف يؤثر الخطيب في جمهوره؟ "إنّه يؤثر بالخلق الذي يظهر به في خطابه؛ حيث يجلب خلق الخطيب الإقناع عندما يصاغ الخطاب على نحو يكون فيه الخطيب جديراً بالثقة؛ إننا ننجذب بشكل أكثر تلقائية وسرعة نحو الأشخاص الأخيار"¹؛ أي الأشخاص الذين يتقنون فن التّعامل الأخلاقي؛ لما له من أهميّة بالغة في تحقيق انسجام الفرد مع مجتمعه؛ ولذلك يجب على الإنسان أن يستخدم الأساليب التّأديبية في خطابه، وأن يعامل غيره بلين وأدب ورحمة وفي ذلك قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّفُتِنُوا مِن حَوْلِكَ﴾ آل عمران: الآية 159.

لقد استطاع الرّسول (ﷺ) أن يؤثر في غيره، ويمتلك قلوبهم بأخلاقه الطيبة والحميدة وينبغي للمسلمين أن يقتدوا به عملاً بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب: الآية 21.

ولا يمكن أن نقنّدي به؛ إلاّ إذا اطلعنا على سيرته العطرة، وتدبرنا فيها، وما فيها من عبر وفي ذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف: الآية 111.

¹ - أرسطو، فن الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافيّة العربيّة، آفاق عربيّة، ص30.

بناء على ما سبق سعيت في هذا الفصل إلى دراسة سيرة سيّدنا محمد (ﷺ) من منظور لسانيات التّلفظ، وقد ركزت على المقاطع الحوارية التي تضمنتها السّيرة؛ لاحتوائها على مختلف جوانب التّعامل الأخلاقي.

المبحث الأوّل: العناصر التّلفظيّة وتحقق مبدأ التّفاعل:

يجب على الذوات المتخاطبة أن تبني خطابها وفق استراتيجيات وشروط معيّنة، تمكنها من التّأثير في الآخرين، وجعلهم يتفاعلون معها؛ فما هي الشروط وما هي الاستراتيجيات التي ينبغي على الذوات المتلفظة مراعاتها في بناء خطابها من أجل ضمان نجاحه؟

1. عناصر تشكل الخطاب وشروط نجاحه:

يتطلّب بناء الخطاب وجود مخاطب ومخاطب أي أن إنتاج الخطاب من جهة المتكلّم وفهمه من طرف المخاطب عمليتان متكاملتان لا انفصال لإحدهما عن الأخرى، وفي ما يلي بيان لأهميّة كلّ عنصر من هذه العناصر.

1.1. المتكلّم:

يحظى المتكلّم بمكانة هامّة في العمليّة التّخاطبية؛ كونه "الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنّه هو الذي يتلفظ من أجل التّعبير عن مقاصد معيّنة، وبغرض تحقيق هدف فيه"¹؛ فهو ينتج خطابات مختلفة تتضمن معاني ظاهرة وأخرى خفية، لا يمكن فهمها إلا بعد الإحاطة بطبيعة المتكلّم؛ لأنّ المعنى مرتبط بما يقصده هو.

ولذلك نجد "تشومسكي" (CHOMSKY) يعيب وينتقد اللسانيين البنيويين الذين اعتنوا بدراسة "بنية اللّغة الداخليّة دون اعتداد بأي من عناصر البنية الخارجيّة، بما فيها المتكلّم وبذلك بدأ الاهتمام به في اللّسانيات الحديثة بعدّه أساس فهم المعنى وقصد الدلالة أما الدّراسات العربيّة؛ فقد أولته منذ بداياتها أهميّة بالغة، واعتبرته طرفاً أساسياً في عمليّة

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ط1، بيروت: 2004، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص45.

الكلام، وعنصراً فعالاً في تحديد خصائص النص¹؛ أي أنه هو المسؤول الأول في العملية التخاطبية؛ ولذلك حرصت الدراسات اللغوية المعاصرة على إعادة الاعتبار له.

2.1. المخاطب:

إذا كان المتكلم هو منتج الخطاب؛ فإنّ المخاطب هو من يساعده على إنتاجه؛ ولذلك يجب على المتكلم أن يضعه في اعتباره، ويفكر في كيفية بناء خطابه؛ لأنّ نجاحه مرهون بمعرفة حال المخاطب أو بافتراض تلك الحال، "والافتراض المسبق ركن ركين في النظام البلاغي العربي، إذ العناية في المقام الأول موجّهة إلى المرسل إليه، حتّى في ما يعرف بالمحسنات البديعية بوصفها تحقق هدف المرسل من الخطاب، وذلك بالتأثير فيه، فالعناية بالمحسنات ليست من قبيل الزخرفة اللفظية، أو إبراز القدرات اللغوية للمرسل كما يشاع عن ذلك؛ لذا فإنّنا نجد أهل البلاغة يعيرون كثرة الزخرفة اللفظية دون داع لذلك"²؛ يظهر من هذا القول اعتناء أرباب البلاغة بالمخاطب، وبالأسايب التي يضمن تطبيقها نجاح الرسالة التي يسعى المتكلم لتبليغها لمخاطبيه.

ولهذا نجدهم يوفرون للمتكلم الشروط الواجب اتّباعها، ويضعون بين يديه الآليات الكفيلة بتحقيق الاتّصال النّاجح مع السّامع؛ فيبلغ المعنى إلى قلبه وعقله، ويؤثر فيه ويحقق هدفه؛ وهذا ما وضحه "أبو هلال العسكري" بقوله: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها، وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات؛ فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتّى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"³؛ أي أنّه يجب على المتكلم أن يخاطب النّاس على قدر مستوياتهم وطبقاتهم الاجتماعية التي ينتمون إليها

¹ خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1. الجزائر: 2009، بيت الحكمة للنشر والتوزيع. ص163.

² عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص48.

³ أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، د. ط بيروت: 1986، منشورات المكتبة العسكرية صيدا، ص135.

ويجتهد في اختيار الكلمات والدلالات التي تناسب أقدار المستمعين من النّاحية: الدّينية والاجتماعيّة والسّياسية، والغاية من ذلك كسب المخاطب، والتأثير فيه وتحصيل المنفعة منه. ويجب على المتكلم مراعاة الحالة النّفسيّة للمخاطب؛ لتجنب انفعالاته السّلبية؛ باختصار يجب على المتكلم أن يراعي جميع الظروف المحيطة بالحدث الكلامي، وهذا ما يصطلح عليه بالسياق.

3.1. السياق:

السياق هو مجموع الظروف المحيطة بالحدث الكلامي، والتي يجب استثمارها من أجل تحديد مرجع العناصر الإشارية التي تضمنها الخطاب. وينقسم إلى " سياق لغوي: ويقصد به النّظم اللفظي للكلمة، وموقعها منه، ويشمل الكلمات والجمل السّابقة واللاحقة للكلمة، وكلّ ما يصاحب الكلمة من ألفاظ تساعد على توضيح المعنى، تقدمت عليها أو تأخرت عنها مما يؤثر على الدلالة المعجمية (أي: أصل الاستعمال اللّغوي) مضيفا إليها الدلالة الثّانوية التي تتغير بتغير العصر أو الثّقافة أو طبيعة الإنسان أو تصورات¹؛ فهو المحيط الدّخلي الذي يشمل مكوّنات لغويّة مختلفة تساعد على تحديد المعنى الدلالي للكلمة دون الاستعانة بالعناصر غير لغوية.

والآخر هو السياق الخارجي: " ويمثل كلّ ما يحيط بالكلمة من عناصر غير لغويّة تتصل بالعصر أو نوع القول أو جنسه أو المتكلم أو المخاطب أو الإيماءات، أو أية إشارة عضوية أثناء النّطق تعطي للفظ دلالتها"²؛ إذ لا يمكن في بعض الأحيان "العثور على الدليل الذي يرشدنا إلى المعنى الصحيح لمصطلح لغوي داخل الجملة نفسها، بل نستمد ذلك من مجمل المحادثة"³، نفهم من هذا بأنّ السياق الخارجي يؤدي دورا هاما في الوقوف على دلالة الخطاب.

¹ - أسامة عبد العزيز جاب الله، "السياق في الدراسات البلاغية والأصولية دراسة تحليلية في ضوء نظرية السياق" ص31، منشور على الموقع الإلكتروني: www.kfs.edu.eg. يوم: 2016/02/04.

² - المرجع نفسه، ص 35.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ويعد الخطاب استراتيجياً تلفظاً، وقد عرّف "بنفست" (Benveniste) التلفظ على أنه عملية تحريك اللغة بواسطة فعل فردي استعمالياً¹، أما "أسكومبر" (Anscombe) و"ديكرو" (O.Ducrot) فيعرفان التلفظ بقولهما: "هو ممارسة لغوية من طرف المتكلم في الوقت الذي يتكلم فيه، وأيضا من طرف الذي يسمع في الوقت الذي يسمع فيه"²؛ فالتلفظ عملية إنتاج القول وتبادل الكلام بين الأطراف التخاطبية في زمن معين ومكان معين.

4.1. زمان ومكان الخطاب:

يظهر الزمن في اللغة من خلال "القرائن التي تتحدّد بجوار الأفعال سواء عند نهايتها أو عن طريق الظروف التي يطلق عليها مصطلح المبهمات الزمانية: الآن، اليوم، الغد أمس، الأسبوع الماضي... وتبقى لحظة التلفظ المحور الذي ترتب بواسطته مختلف مبهمات الزمن"³ ولتحديد مختلف هذه المبهمات تبعاً لأزمونها اقترحت "أوركينيوني" (Orecchioni) هذا التصنيف⁴

1/ المبهمات التزامنية: هي المبهمات التي يتم استخدامها في الزمن الحاضر.

2/ المبهمات القبلية: هي المبهمات تتدرج ضمن الزمن الماضي.

3/ المبهمات البعدية: هي التي لم ينته زمنها بعد.

4/ المبهمات الحيادية: زمنها غير محدد، ودعيت بهذا الاسم لأنها تخرج عن

المبهمات المحددة بسبب اختلافها عنه.

انطلاقاً مما سبق يمكن أن نصنف الظروف المبهمة وغير المبهمة كما يلي:

¹ - E. Benveniste: problèmes de linguistique générale, T2, Paris:1974, Gallimard, p80.

² - J.C. Anscombe ; O. Ducrot; "l'argumentation dans la langue", in langage n°42, Paris: 1976 p18.

³ - ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ط2، تيزي- وزو: 2012، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ص117.

⁴ - C.K. Orecchioni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p47. نقلاً عن: ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص118

الظروف غير المبهمة	الظروف المبهمة	
في ذلك الوقت	الآن	التزامنية
في ذلك اليوم، بعد مرور أسبوع ساعات قبل ذلك	البارحة، الأسبوع الماضي، قبل ساعات، منذ قليل	القبلية
اليوم التالي، السنة التالية، بعد مرور يومين	غدا، في الأيام المقبلة، بعد يومين، السنة القادمة	البعديّة
في يوم آخر	اليوم	الحيادية

وينبغي الإشارة إلى أنّ الظروف ليست كلّها مبهمات، لأنّ منها ما لا يمت بأية صلة إلى الزمن الذي يتحدث فيه الشّخص: ساعات قبل ذلك، أيام بعد، وإنّ المرجعية في المبهمات هي زمن الخطاب، والمرجعية في الظروف غير الإبهامية هي السياق النصّي¹؛ أي السياق الداخلي.

والحديث عن الزمن يجعلني أتحدّث عن المكان الذي "يتأسس في تلك النقطة من الفضاء التي يتواجد فيها المتكلّم أثناء الحديث"²؛ فقول المتكلّم: "سلمى" هنا في الجامعة يشير إلى أن "سلمى" على مقربة من المكان الذي يقف فيه المتكلّم المتلفظ بتلك الجملة. إنّ وضعية المتكلّم وإشاراته أثناء الكلام هي التي تحدّد المكان (القرب، البعد، الخلف الأمام) وفي ذلك يقول: "مانغنو" (Mainguenu) "تتحدّد المبهمات المكانية بوضعية المتكلّم: وضعيته الجسدية إضافة إلى إشاراته"³؛ فمعرفة وضعية المتكلّم أمر ضروري لتحديد مرجعيات المبهمات المكانية.

¹ - عمر بلخير، الخطاب تمثيل للعالم، دراسة بعض الظواهر التّداولية في اللّغة العربية (الخطاب المسرحي نموذجاً)، رسالة ماجستير، الجزائر: 1997، ص 81.

² - ذهبية حمو الحاج، لسانيات التّلفظ وتداوليّة الخطاب، ص 124.

³ - D. Mainguenu Eléments de linguistique pour le texte littéraire, 3^{ème} édition, Paris: 1987

نقلا عن ذهبية حمو الحاج، لسانيات التّلفظ وتداوليّة الخطاب ص 15.124 Bordas,

2. مفهوم المرجعية:

يجب التنبية إلى أنّ مفهوم المرجعية لم يرد بهذا الشكل اللغوي في مختلف المعاجم العربية، ولكن ورد بمصدره الذي تتعدّد دلالاته لغة؛ حيث ورد في لسان العرب لابن المنصور "المرجع من رجع، يرجع رجعا، ورجوعا ورجعى ورجعانا ومرجعا ومرجعة: انصرف أي الرجوع والمرجع"¹. يتضح من خلال هذا التعريف أنّ المرجع يرتبط أولا: بحركة الانتقال من مكان إلى آخر (الذهاب وعكسه الرجوع)، حركة داخل الحيز المكاني: رجع، يرجع رجوعا، والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى في الآخرة، قال الله تعالى ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ الْوَاحِدُ﴾ (العلق: الآية 8).

وتوجد في المعجم الوسيط دلالة أخرى للمرجع، تتمثل في " ما يرجع إليه من علم وأدب من عالم أو كتاب، جمع مراجع"²؛ لقد ارتبطت دلالة المرجع هنا بالعلم الذي ينور العقل وينميّه، والذي تتعدّد وسائله من العلماء والكتب، ومن هذا نستنتج أنّ دلالة المرجع تتغيّر من سياق لآخر حسب استعمالات الكلمة في سياقات مختلفة.

أشرت إلى أنّ لفظ "مرجعية" لا يوجد بهذه الصيغة في كتب اللّغة القديمة، ولكنّه في هذا العصر يستعمل بكثرة، كقولهم (معنى مرجعي)، (خطأ مرجعي)، (نظرية مرجعية)... الخ وأهتم في دراستي بالمرجعية اللسانية.

1.2. المرجعية اللسانية:

يعرّف "أزوالد ديكرود" (Oswald Ducrot) المرجعية اللسانية بقوله: " هي الجمل التي تسمح للمتكلّم بالإشارة إلى المخاطب أو إلى أشياء من عالم الخطاب، سواء كان حقيقيا أو خياليا"³ أي أن الأشياء مرتبطة بالواقع، وبتجربة الأفراد في العالم "إنّ اللّغة في ذاتها هي مجموعة من البنى والأشكال ويرتبط وجودها بتجربة المتخاطبين في العالم"⁴؛ فالوظيفة

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (رجع).

² - مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، د، ط. شركة الإعلانات الشرقية: 1985، ص 383.

³ - Oswald Ducrot, Dire et ne pas dire, 3^{ème} édition, Paris: 1972, Hermann éditeur, P221. نقلا عن

ذهبية حمو الحاج، لسانيات التّفظ وتداوليات الخطاب، ص 102.

⁴ - ذهبيّة حمو الحاج، لسانيات التّفظ وتداوليّة الخطاب، ص 103.

المرجعية للغة هي التي تحدّد دلالة الخطاب الحقيقية ويقتضي تحديد دلالتها دراسة مرجعية الضمائر والإشارات الزمكانية.

3.2. مرجعية الضمائر:

وتوفر اللغة للمتكلّم مجموعة من الأدوات اللّسانية التي تساعده على تبليغ مقاصده ومن هذه الأدوات اللّسانية نجد الضمائر التي يصفها "بنفنست" (Benveniste) بأنّها "أشكالٌ فارغة مناسبة لكلّ متكلّم يمارس الخطاب، يعلّقها بشخصه معرّفًا نفسه بوصفه "أنا" ومعرّفًا شريكًا له في الوقت ذاته بوصفه "أنت"، وهكذا؛ فإنّ الوضع الخطابي يشتمل على جميع المعطيات التي تحدّد الذات"¹، بالمقابل نجد "أوركينيوني" (Orecchioni) تعارض قول "بنفنست" (Benveniste) بأنّ الضمائر أشكال فارغة من جميع النّواحي وتقول: قد تكون الضمائر أشكالًا فارغة من النّاحية المرجعية، ولكنّها ليست فارغة من النّاحية الدلالية"²؛ فالضمائر من بين أهمّ الوحدات الإشارية التي تتدخل الوضعية التّواصلية في تحديد دلالتها والوقوف على مرجعيتها، وهذا في ما يتعلّق بضمير المتكلم "أنا" وضمير المخاطب أنت اللذين تربطهما الخاصية التناظرية وهذه الأخيرة تعمل على تبادل الأدوار بين أطراف الخطاب؛ فينتقل الخطاب من الطرف الأول "أنا" إلى الطرف الثاني "أنت" وتجعل من الطرف الثاني أنت يتحول إلى "أنا" فيفرض بالتالي ذاته بجعل الطرف الأول يتحول إلى الجانب الخارجي من العملية، ومن هذه الجدلية تتحقق الأسس اللّسانية للذاتية"³؛ أي أنّ الذاتية تتحقق بمجرد تنصيب المتكلّم نفسه في مرتبة أعلى من مرتبة مخاطبه، وهذا ما أكده لنا "بنفنست" (Benveniste) لما أوضح بأنّ الذاتية تتحدّد "بوضعية الشّخص اللّسانية إذ لا يكون الوعي بالذات إلا عندما أتوجه إلى شخص ما يكون "أنت" في خطابي وهو شرط يستلزم

¹ - ينظر: إميل بنفنست، عن الذاتية في اللغة، ضمن: تلوين الخطاب، فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والحجاج، ط1، تونس: 2007، الدار الوسطية للنشر، ص110.

² - Catherine Kerbrat- Orecchioni, l'énonciation de la subjectivité dans le langage, p44

نقلا عن بلخير، الخطاب تمثيل للعالم، دراسة بعض الظواهر التداولية في اللغة العربية (الخطاب المسرحي

³ - عمر بلخير، الخطاب تمثيل للعالم، دراسة بعض الظواهر التداولية في اللغة العربية (الخطاب المسرحي

نموذجًا)، ص67.

التّبادل أصبح "أنت" في خطاب من يصبح بدوره "أنا" في خطابه فالمتكلم بمجرد تلفظه بـ"أنا" في الخطاب يفترض أنه يخاطب ذاتاً أخرى تتلقى خطابه الواقعي أو المفترض ويضع شخصاً آخر يقابله هو "أنت"، وهذا ما يسمى "تقاطب الضمائر"، إذ يظهر المتكلم أعلى رتبة من الشخص المخاطب، وهذا هو الوجود التّداولي للضمائر في الخطاب¹؛ هذا يعني بأن الحديث عن الذاتية مرتبط بوجود قطبين للتّواصل يمثلهما الضميرين "أنا" و"أنت".

ويرتبط معنى هذه القطبية بوضعية الذات المتعالية بالنسبة لـ "أنت" الذي يمثل الآخر؛ من هنا يرى "بنفنست" (Benveniste) أنه يمكن تحديد التّلفظ بالنسبة للغة بوصفه حدث امتلاك للغة فالمتكلم يمتلك الجهاز الصوري للغة، ويعلم عن موقفه بوصفه متكلماً من خلال أمارات خاصّة لكن بمجرد أن يقوم بذلك في ذات الوقت يكون قد نصب الآخر قبالته أي كانت درجة الحضور التي يحولها للآخر²؛ لأنّ السّلطة التي يتمتع بها تمنحه الحق في فرض ذاته على الآخر مهما كانت درجة حضوره في الخطاب؛ فالمتلفظ بـ"أنا" صاحب الحضور الأقوى في العملية التّلفظية ومن هذا المنظور "سوف نعتبر الأفعال التّلفظية تلك الآثار اللسانية التي تبرز وجود المخاطب المتلفظ في خضم ملفوظه، والمواقع التي يدخل هذا الوجود في إطارها وهو ما يطلق عليه "بنفنست" (Benveniste) و"أوركينيوني" (Orecchioni) الذاتية في اللّغة، "وما هو مهم بالنسبة للسانيات التّلفظية هو الوحدات الذاتية التي تشكل جملة من الوحدات التّلفظية"³، وتتمثل تلك الوحدات التّلفظية في مجموع الوحدات اللسانية التي يقتضي تحديد دلالتها معرفة الدور الذي تؤديه الذات في العملية التّخاطبية.

3. تجليات الذات والكشف عن بؤادر النبوة:

ونجد أن الخطاب الذي سنتناوله بالدراسة قد كشف عن تجليات الذات المحوريّة- الرسول(ﷺ)- والذي كشف عن علامات النبوة بعدما سأله الصحابة (رضي الله عنهم): "يا

¹ - إميل بنفنست عن الذاتية في اللغة ضمن: تلوين الخطاب، فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والحجاج، ص 108.

² - كاترين ك. أوريكيوني، فعل القول من الذاتية إلى اللغة، ترجمة: محمد نظيف، د.ط، المغرب: 2007، إفريقيا الشرق، ص 40.

³ - ذهبية حمو الحاج، التداولية واستراتيجية التّواصل، ط1، القاهرة: 2015، رؤية للنشر والتوزيع، ص 151.

رسول الله أخبرنا عن نفسك؟ فقال: نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوء ثلجا، ثم أخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقاها فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته. فوزني بهم فوزنتهم. ثم قال: زنه بمئة من أمته. فوزني بهم فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزني بهم فوزنتهم. فقال دعه فو الله لو وزنته بأمته لوزنها¹.

تضمن هذا الخطاب مجموعة من الإشارات الشّخصية والمقصود بها "الضمائر الشّخصية الدّالة على المتكلم وحده مثل أنا أو المتكلم ومعه غيره مثل نحن، والضمائر الدّالة على المخاطب مفردا أو مثني أو جمعا، مذكرا أو مؤنثا، وضمائر الحاضر هي دائما عناصر إشارية؛ لأنّ مرجعها يعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي تستخدم فيه"²؛ أي أن السياق هو الذي يحدّد دلالة هذه المبهمات.

إنّ "المبهمات عامل هام في تكوين بنية الخطاب من خلال القيام بدورها التّحوي ووظيفتها الدلالية، ويستعمل المرسل هذه الصفات في الخطاب الذي يجري بينه وبين المرسل إليه، عندما يمده في نسيج يتجاوز في كليته الجملة الواحدة؛ فتصبح فائدة المبهمات في هذه الحال الإحالة إلى المعلومات القديمة التي تلفظ بها أحدهم، والتي أصبحت جزءا من المعلومات المشتركة"³؛ أي الإحالة إلى المعلومات المشتركة بين المتكلم والمخاطب.

ويؤدّي الحديث عن الإحالة إلى الحديث عن المرجع، الذي يحدّد دلالة الضمائر يقول "بنفنيست" (Benveniste) عن "أنا": "إنّ إثبات استعمال (أنا) لا تشكّل نوعا مرجعيا

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ط2، تيزي- وزو: 2016، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ص309.

² - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د، ط، الإسكندرية: 2002، دار المعرفة الجامعية ص18.

³ - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص81.

باعتبار أنّه لا يوجد موضوع محدّد مثل "أنا" حيث يمكن أن ترجع إليه هذه الإنيات والأمر مماثل في حال الضمير (أنت)، فلكي يكون للضمير "أنا" معنى ذلك الشّخص الذي يتحدّث يعني أن تكون له أهميّة في العمليّة التّخاطبية، ولا يتخذ معنى إلا في الحال التي يتحدّث فيها شخص معين ويشير إلى نفسه بقوله (أنا)¹؛ أي في الحالة التي يسند المتكلم فيها الأقوال إلى نفسه من خلال استعماله لضمير المتكلم "أنا" والضمائر المتصلة بالأسماء أو الأفعال مثل ما جاء في الخطاب السابق، والذي أسند فيه الرسول (ﷺ) الأقوال إلى نفسه من خلال استعماله لضمير المتكلم "أنا" والذي تكرر مرتين، واستعماله للضمائر المتصلة بالأسماء أو الأفعال في قوله: (أبي، أخي، أمي، بي، استرضعت، لي، لنا، أتانِي، قلبي بطني، وزنني) وقد جاء استخدام هذه الضمائر في سياق الكشف عن إرهاصات النبوة والتي تجلت بوضوح في خطابه (ﷺ).

كما تضمن خطابه (ﷺ) أداتين إشاريتين زمانيتين ويقصد بالعناصر الإشارية الزمانيّة تلك "الكلمات التي تدلّ على زمان يحدده السّياق بالنسبة إلى زمان التّكلم؛ فزمان التّكلم هو مركز الإشارة الزمانيّة في الكلام، فإذا لم يعرف زمان التّكلم أو مركز الإشارة الزمانيّة التّبس الأمر على السّامع أو القارئ فقولك مثلا: بعد أسبوع يختلف مرجعها إذا قلتها اليوم أو قلتها بعد شهر أو بعد سنة وكذلك إذا قلت نلتقي الساعة العاشرة؛ فزمان التّكلم وسياقه هما اللذان يحددان المقصود بالسّاعة العاشرة صباحا أو مساء من هذا اليوم أو من يوم يليه، وزمن الفعل نلتقي ينفي أن يكون اللّقاء قد حدث فعلا، بل يصرف زمن اللّقاء إلى زمن لم يمض بعد"²؛ أي أن إدراك لحظة التّلفظ شرط أساسي لتحديد مرجع الإشارات الزمانيّة وتأويلها وفي ذلك يقول "عبد الهادي بن ظافر الشهري" إنّه: "ومن أجل تحديد مرجع الأدوات الإشاريّة الزمانيّة وتأويل الخطاب تأويلا صحيحا يلزم المرسل إليه أن يدرك لحظة التّلفظ؛ فيتخذها مرجعا يحيل عليه، ويؤول مكوّنات التّلفظ اللّغوية بناء على معرفتها"³؛ فلا يمكن تحديد مرجعية هذه المبهمات دون العودة إلى السّياق الذي وردت فيه.

¹- E. Benveniste, Problème de linguistique générale, T2, P252.

²- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، ص 19.

³- الشهري عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 83.

ويظهر من سياق الخطاب بأنّ الرسول (ﷺ) يتحدّث عن أحداث ماضية تعلقت به تمثل الحدث الأول في حمل أمّه به، وتمثل الحدث الثاني في حادثة شق الصدر، ما يجعلني أدرج الظرفين الزمانيين (حين) و(بيننا) الواردين في قوله: (ورأت أمي حين حملت بي أنّه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبيننا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى)، ضمن المبهمات القبليّة التي انقضى زمانها وفات وقتها؛ لأنّ التّلفظ بها لم يتزامن، ولحظة التّلفظ بالخطاب.

بالإضافة إلى الإشارات الزمانية تضمّن هذا الخطاب بعض الإشارات المكانية وهي "عناصر إشارية إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التّكلم أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السّامع، ويكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قريبا أو بعدا أو وجهة، ويستحيل على النّاطقين باللّغة أن يستعملوا أو يفسروا كلمات مثل: هذا وذاك، وهناك ونحوها إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان فهي تعتمد على السّياق المادي المباشر الذي قيلت فيه"¹؛ أي إنّها عناصر تعمل على تحديد مكان الخطاب ويتعذر تحديده إلا بمعرفة مكان المتكلم وقت التّلفظ بالخطاب. وفي الخطاب السابق لم يتزامن ظرف المكان (خلف) في قوله: (أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى) ومكان المتكلم وقت التّلفظ به، ما يجعلني أصنّفه ضمن الظروف المكانية غير المبهمة؛ لأنّ المتكلم استعمله ليشير به إلى المكان الذي تواجد فيه مع أخيه أثناء وقوع حادثة شق صدره.

4. مرحلة نزول الوحي وتحقق مبدأ التّفاعل بين الذوات:

ينتقل الرسول (ﷺ) من مرحلة التّعريف بالذات، والكشف عن إرهاصات النبوة إلى مرحلة بداية نزول الوحي؛ ويظهر ذلك جليا في الحوار الذي جرى بينه وبين الملك جبريل (ﷺ)؛ حيث جاءه جبريل (ﷺ) فقال: "اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. قال فأخذني فغطني، حتى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية، حتى

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 22.

بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: (اقرأ باسم ربك الذي خلق)¹.

أمر سيدنا جبريل (عليه السلام) الرسول (ﷺ) بالقراءة، وقد تكرر هذا الأمر ثلاث مرات والتكرار ليس مجرد تماثل صوتي؛ بل هو آلية حجاجية تمنح الكلمات نوعاً من القوة والكثافة وتعكس التشديد على أغراض الخطاب، كما أن التكرار يمنع غفلة المتلقي، ويقرر لديه مقاصد بعينها²؛ أي أنّ التكرار يشد انتباه المتلقي ويمنع تشتيته، حتى يتكيف ويتلاءم مع ما يعرضه عليه، ووقد رد الرسول (ﷺ) عن طلب جبريل (عليه السلام) بقوله: "ما أنا بقارئ"؛ وبذلك يعدّ الرسول (ﷺ) هو الذات المتحركة في اللغة؛ لأنه هو المتلفظ بالملفوظ "أنا"، ولكن لا وجود لها من دون الآخر؛ "إن وظيفة "أنا" هي "تطق المتكلم ب" أنا" في حال التلفظ ويشير "أنت" إلى المستمع المتلقي للخطاب"³، فلا يمكن إنتاج الخطاب دون استحضر طرفيه كل من المتكلم والمخاطب.

ويتحول المتكلم من منتج للخطاب إلى متلق له بفعل الخاصية التناظرية للخطاب وهذا ما أسماه "بنفنست" (Benveniste) بتقاطب الضمائر، ولا تعني "القطبية التساوي ولا التناظر فلذات دائماً وضعية مفارقة مقارنة بـ(أنت)، ولكن على الأقل لا يتكوّن أحد هذين المصطلحين دون الآخر، فهما متكاملان، ولكن حسب تقابل (خارجي/داخلي) وقابلان للانعكاس في الوقت نفسه"⁴، وقد كشف هذا التبادل في الأدوار عن تجليات العلاقة الإيجابية بين أطراف الخطاب، ومن مظاهرها تحقق "مبدأ التفاعل".

ويقصد بالتفاعل "ذلك المسار للتأثيرات المتبادلة التي يمارسها المشاركون في التبادل التواصلي أو المتفاعل بعضهم مع بعض"⁵، ومن مظاهره التخفيف من روع الآخر؛ حيث

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص315.

² - عبد اللطيف عادل، الحجاج في الخطاب، مقاربات تطبيقية، ط1، المغرب: 2017، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، ص41.

³ -D. Maingueneau, éléments de linguistique pour texte littéraire, p03.

⁴ - ذهبية حمو الحاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ص160.

⁵ - باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، دط، تونس: 2008، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، ص 309.

خفف سيِّدنا جبريل (ﷺ) من روع سيِّدنا محمد (ﷺ) وضمَّه إليه، وأخبره بأنَّه رسول من الله جاء ليبلغه رسالة ربِّه، وتلا عليه قوله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ سورة العلق الآية 1.

وبعدما سمع سيِّدنا محمد (ﷺ) ما قاله له جبريل (ﷺ) رجع مسرعا إلى خديجة (رضي الله عنها) وهو يرتجف، وقال: "زملوني زملوني، فزملوه حتَّى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة لقد خشيت على نفسي؛ فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبدا. إنَّك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"¹؛ ولأنَّه يتمتع بكلِّ هذه الصفات وقفت خديجة (رضي الله عنها) إلى جانبه وأمنت به وصدقته وآزرتة على أمره بدليل قولها: (كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنَّك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

أحال ضمير المَخَاطَب (الكاف) إلى الرسول (ﷺ)، وقد استعملته الذات المتلفظة خديجة (رضي الله عنها) في سياق مدح الرسول (ﷺ) بما يمتاز به من صفات وأخلاق عالية؛ فهي بصدد إسقاط تقييم ذاتي نابع من عاطفتها، ترمي من خلاله إلى التَّخفيف من روع الرسول (ﷺ) وتبشيريه ليزداد أنسا.

وانطلقت به حتَّى أتت به "ورقة بن نوفل" فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: "يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله (ﷺ) خبر ما رأى؛ فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل على موسى، ليتني فيه جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك؛ فقال رسول الله (ﷺ): أو مخرجي هم؟ قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا"²، وهذا يدل على تحقق مبدأ التَّفَاعُل ومن مظاهره مساندة الآخر، حيث وعد "ورقة بن نوفل" الرسول (ﷺ) بمساندته بقوله: (وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا).

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 315.

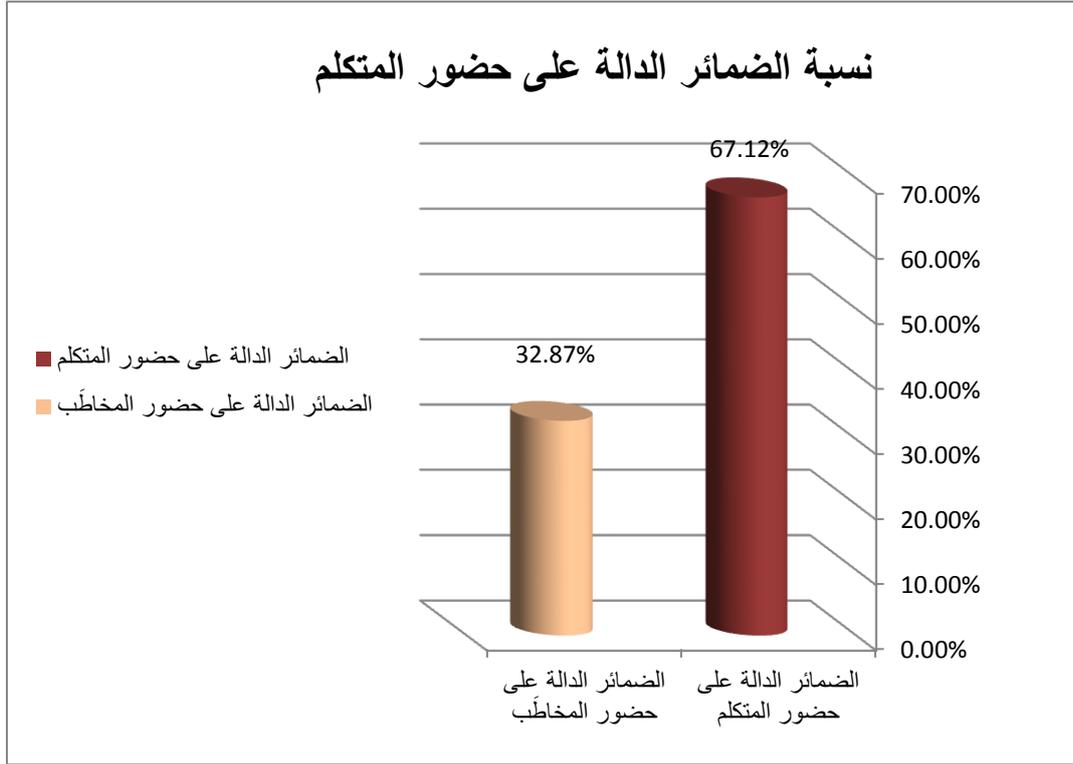
² - المرجع نفسه، ص 315.

ويمكن أن أوضح عدد الضمائر الدالة على حضور كل من المتكلم والمخاطب في هذه

الخطابات في الجدول التالي:

الخطاب	الضمائر الدالة على حضور المتكلم	عدد	الضمائر الدالة على حضور المخاطب	عدد	الضمائر الدالة على حضور المتكلم والمخاطب	عدد
الخطاب 1: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك.... فو الله لو وزنته بأمته لوزنها.	(نا) (أخبرنا، لنا) بيوتنا (أنا) تكرر مرتين الياء (أبي، أخي أمي، بي، لي أتاني، أخذاني (بطني، قلبي) تكررت مرتين (وزني) تكررت ثلاث مرات التاء (استرضعت) نرعى الضمير المستتر (نحن)	21	الكاف: (نفسك) الضمير المستتر أنت (زنه) تكررت ثلاث مرات (دعه)	4		
الخطاب 2: قال: اقرأ. قلت : ما أنا بقارئ.... اقرأ باسم ربك الذي خلق.	التاء: (قلت) تكررت ثلاث مرات (أنا) تكررت ثلاث مرات الياء: (أخذني، غطني، أرسلني)، تكررت كل	17	الضمير المستتر أنت (اقرأ) تقديره اقرأ (أنت) وقد تكررت هذه الفظة أربع مرات	5		

			ربّك: (الكاف)		كلمة من هذه الكلمات ثلاث مرات منّي (تكررت مرتين)	
		9	الكاف: (لا يخزيك، إنك) الضمير المستتر أنتم (زملوني) تكررت مرتين أنت (تصل، تحمل، تكسب، تقري، تعين)	4	الياء (زملوني تكررت مرتين)، (نفسى) التاء: (خشيت)	الخطاب 3: زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروح.... وتعين على نواب الحق
		6	الكاف: (أخيك يخرجك، قومك، يومك، أنصرك)، التاء (جنت)	7	الياء: (أخي) ليتني تكررت مرتين (مخرجي، يدركني) الضمير المستتر (أنا) في الفعلين (أكون، أنصرك) تقديره أنا أكون، أنا أنصرك.	الخطاب 4: قالت له خديجة... نصر مؤزرا.



تعليق: يوضح الرّسم البياني نسبة حضور الضمائر الدالة على المتكلم والضمائر الدالة على المخاطب، وقد بلغت نسبة حضور ضمائر المخاطب 32,87% في حين بلغت نسبة حضور ضمائر المتكلم 67,12%، أي بفارق 34,25% والسبب في ذلك هو أنّ الذات المحورية في هذه الخطابات ركزت على التعريف بذاتها، والإخبار عن مكانتها؛ ومرتبها وعلو شأنها؛ الأمر الذي اقتضى أن تستخدم الضمائر التي تعبر بها عن ذاتها، وتعكس مدى حضورها.

المبحث الثاني: استراتيجيات التّعامل الأخلاقي:

يعتمد المتكلم في تبليغ خطابه على بعض الاستراتيجيات، ولا يختص مصطلح الاستراتيجية بتخصص دون آخر، وإنما يشمل مختلف التّخصصات منها: العسكرية والتّجارية والسياسية والاجتماعية واللّغوية ونعني بالاستراتيجية مجموع " الطرق المحددة لتناول مشكلة ما أو القيام بمهمة من المهمّات، أو هي مجموعة عمليات تهدف إلى بلوغ غايات معيّنة أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محددة، والتّحكم بها"¹، يعني أنّها في المقام الأول خطة للوصول إلى الغرض المنشود، وبما أنّها كذلك فهي ذات بعدين²:

أولهما: البعد التّخطيطي، وهذا البعد يتحقق في المستوى الذهني.

ثانيهما: البعد المادي الذي يجسد الاستراتيجية لتتبلور فيه فعلا، ويرتكز العمل في كلا الفعلين على الفاعل الرئيس؛ فهو الذي يحلّل السياق ويخطط لفعله، ليختار من الإمكانيات ما يفي بما يريد فعله حقا، ويضمن له تحقيق أهدافه؛ فاختيار استراتيجية دون أخرى يعتمد على قدرات الإنسان الذي يدرك حاجاته المختلفة، ويدرك مختلف الوسائل المناسبة والواجب اتخاذها لبلوغ مراميه؛ فالاستراتيجية مجموعة من الوسائل التي تتحد في ما بينها، وتعين الإنسان على إنجاز أعماله.

وتتنوع الأعمال التي ينجزها الإنسان بين أعمال اجتماعية، وثقافية، وتجارية، الأمر الذي جعل هذا المفهوم يكتسب معان مختلفة، ليتناسب كلّ معنى منها مع سياق معيّن "وتستعمل كلمة استراتيجية عادة بثلاثة معان:

"أولا: للتّدليل على اختيار الوسائل المستخدمة للوصول إلى غاية معيّنة؛ والمقصود بذلك هو العقلانية المستخدمة لبلوغ هدف ما.

ثانيا: للتّدليل على الطريقة التي يتصرف بها أحد الشركاء، في لعبة معيّنة، تبعا لما يعتقد أنه سيكون تصرف الآخرين؛ باختصار الطريقة التي نحاول التّأثير بها على الغير.

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 53.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وأخيراً؛ للتّذليل على مجمل الأساليب المستخدمة في مجابهة ما لحرمان الخصم من وسائله القتالية وإرغامه على الاستسلام؛ وعليه تتحدد الاستراتيجية باختيار الحلول الراجعة¹ يتبيّن لي من هذه المعاني العامة أن الاستراتيجية هي نتاج فعل فردي أو جماعي يتخذها الإنسان كوسيلة تساعد على تحقيق أهدافه، وكونها شاملة لجميع الميادين فإنني أهتم في بحثي بمفهوم الاستراتيجية في الخطاب.

يستطيع المرسل أن ينتج خطابه حسب استراتيجيات متفاوتة وكثيرة، ولكنّه يعتمد إلى اختيار استراتيجية معيّنة مراعاة لعناصر منها العلاقة بين الذات المتحاورة التي تعد من العناصر المؤثرة في بناء الخطاب.

وتتسم العلاقة بين الذات بأسبقيتها على إنتاج الخطاب؛ فتساعد المرسل على انتقاء الاستراتيجية المناسبة التي يفرضها السياق " فاختيار هذه الصورة وليس تلك، يتعلق بالسياق في عموميته؛ أي يتعلّق بالمخاطبين (المتحاورين) وعلاقتها داخل السياق، بل ويتعلّق بما هو خارج السياق، أي يتعلّق بما يعرفه هذا المخاطب عن الآخر، وما يعرفه المخاطبان عن المقام، وعمّ يريدان قوله أو سماعه، وهما يعرفان معرفة تامّة المدى الذي يمكن أن يبلغاه في الخطاب؛ فأحد المخاطبين يمكن أن يكون خطيباً أو معلماً، والآخر يمكن أن يكون فرداً أو جمهوراً؛ فالعلاقات تظل هي ذاتها والصور يجب أن تكون مضبوطة حتّى تناسب المقام بالشكل الأقرب²؛ وهذا يعني بأنّ المعرفة المشتركة والافتراضات المسبقة من العناصر المؤثرة في اختيار الاستراتيجية الخطابية، ويهدف منتج الخطاب من خلال هذا الاختيار إلى المحافظة على العلاقة بينه وبين مخاطبه، ولذلك نجده يتوخى مجموعة من المبادئ التّأديّة وسأعرض لبعض الدّراسات التي اهتمت بمبدأ التّأدب.

1. مبدأ التّأدب واستراتيجية المصادقية:

اهتمت الدّراسات العربية والغربية القديمة منها، والحديثة بالعلاقة بين المخاطبين وسعت إلى تأسيس مجموعة من القواعد والمبادئ التي من شأنها أن تحافظ على هذه العلاقة

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص55

² - المرجع نفسه، ص88.

إن كانت موجودة، أو تعمل على بنائها إن لم تكن موجودة "ويتلفظ المرسل بخطابه وفقا لما تقتضيه، وبهذا تغدو نموذجا له عند استعمال اللغة، وينعكس اعتبار العلاقة بين أطراف الخطاب في تجسيدها وفق ما تقتضيه ظاهرة التآدب بمقادير مختلفة"¹؛ ولذلك تختلف الخطابات من حيث نسبة استخدام الأساليب الأدبية مع المخاطبين على اختلاف طبائعهم. وأعرض في ما يلي تجليات مبادئ التآدب في الدراسات العربية والغربية.

1.1. مبدأ التآدب في القرآن الكريم:

تجلت ظاهرة التآدب في القرآن الكريم في أكثر من موضع؛ فقد أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا محمدا (ﷺ) بأن يجعل الموعدة والحكمة مفاتيح لدعوة كفار قريش فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ سورة النحل 125. تضمنت هذه الآية أسس الدعوة، والتي ينبغي للرسول (ﷺ) أن يستعين بها في دعوته لقومه؛ وعلى "هذه الأسس يرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها، ويعين وسائلها وطرائقها (...). والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يتقل عليهم ولا يشق (...). والطريقة التي يخاطبهم بها، والتتبع في ذلك حسب مقتضياتها (...). وبالموعظة الحسنة التي تدخل في القلوب برفق، وتعمق المشاعر بلطف لا بالزجر والتأنيب في غير موجب (...). فإن الرفق في الموعدة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة (...). وبالجدال بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له ولا تقبيح حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن هدفه ليس الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق (...). هذا هو منهج الدعوة ودستورها، ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة"²، يبدو أن نجاح الخطاب مرهون بمدى احترام المتحاورين لظاهرة التآدب وهذا يعدّ دليلا على أولوية التعامل الأخلاقي الذي يجري حدوث الفعل الخطابي وهناك مبادئ كثيرة تنص على أهمية هذا الجانب في تكوين العلاقات مع الآخرين والمحافظة عليها منها:

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 91.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 92.

2.1. مبدأ التصديق في التّراث الإسلامي:

ويتجلى هذا المبدأ في أشكال مختلفة منها: "مطابقة القول للفعل وتصديق العمل للكلام، وقد صاغ "طه عبد الرحمن" هذا المبدأ كما يلي: لا تقل لغيرك قولاً لا يصدقه ففعلك يقوم هذا المبدأ على عنصرين: أحدهما، نقل القول الذي يتعلق بما أسماه "طه عبد الرحمن" بالجانب التّبليغي من المخاطبة، والثاني تطبيق القول الذي يتعلق بما أسماه بالجانب التّهذيبي منها"¹؛ أي أن مبدأ التصديق حسب "طه عبد الرحمن" يشمل جانبيين هما الجانب التّبليغي والجانب التّهذيبي.

وتتفرع عن مبدأ التصديق في جانبه التّبليغي مجموعة من القواعد أشار "طه عبد الرحمن" إلى أنها وردت مفصلة عند "المارودي" في كتابه أدب الدنيا والدين وهي:²

- أ. ينبغي للكلام أن يكون لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر؛
- ب. ينبغي أن يأتي المتكلم به في موضعه، ويتوخى به إصابته فرصته؛
- ج. ينبغي أن يقتصر الكلام على قدر حاجته؛
- د. يجب أن يتخير اللفظ الذي به يتكلم.

كما تتفرع على مبدأ التصديق في جانبه التّهذيبي مجموعة من القواعد قام "طه عبد الرحمن" باستقراءها من التّراث الإسلامي العربي، وأجملها في ثلاث قواعد مع صياغتها على مقتضى قواعد التّخاطب وهي:³

- قاعدة القصد: لتتفقد قصدك في كلّ قول تلقي به إلى الغير؛
- قاعدة الصدق: لتكن صادقاً في ما تنقله إلى غيرك؛
- قاعدة الإخلاص: لتكن في توددك للغير متجرداً من أغراضك.

ويتم على مستوى قاعدة القصد ربط الجانب التّبليغي بالجانب التّهذيبي، فلا يهتم المرسل فقط بتليغ محتوى الخطاب، وإنما بطريقة تبليغ هذا الخطاب، والتي تكشف عن

¹ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 249.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - المرجع نفسه، ص 250.

حدود مسؤوليته الأخلاقية، كما يترتب على قاعدة القصد إمكانية خروج المتكلم عن الدلالة الظاهرة للقول؛ فيحمل اللفظ دلالة ضمنية، كما يمكن هذا المستوى المتكلم من تجنب غضب مخاطبه، ويأمن في ذات الوقت ردة فعله.

وتقتضي قاعدة الصدق ممارسة الصدق في مستويات ثلاثة: "الصدق في القول" والصدق في العمل" ومطابقة القول للفعل فالصدق في الخبر هو أن يقول المتكلم الحقيقة المطابقة للواقع، وأمّا الصدق في العمل؛ فهو أن يصون سلوكه حتّى لا يُشعر المخاطب بأوصاف هي على خلاف ما يتصف به؛ وأمّا مطابقة القول للعمل؛ فهو أن يحفظ لسانه وسلوكه عن إشعار المخاطب بوجود تفاوت بينهما.¹ أي لا بد أن يظهر تواضعه، بالقول والفعل.

3.1. مبدأ التّأدب والقواعد التّهذيبية:

أشار "طه عبد الرحمن" في كتابه اللسان والميزان إلى أنّ "روبين لاكوف" وقد اعتنت بالجانب التّهذيبى أثناء صياغتها لمبدأ التّأدب²، وصيغة هذا "المبدأ هي: لتكن مؤدبا: ويقضي هذا المبدأ بأن يلتزم المتكلم والمخاطب، في تعاونهما على تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام من ضوابط التّهذيب ما لا يقل عما يلتزمان به من ضوابط التبليغ³؛ أي يجب أن يجمع طرفا الخطاب بين الجانب التبليغي والتّهذيبى حتّى تستمر العمليّة التّخاطبية وتستمر العلاقة الوديّة بينهما.

ولقد فرعت "لاكوف" حسب ما نقله لنا "طه عبد الرحمن" على مبدأ التّأدب القواعد

التّهذيبية الثلاث الآتية⁴:

- قاعدة التّعفف، ومقتضاها هو: لا تفرض نفسك على المخاطب؛
- قاعدة التّشكك، ومقتضاها هو: لتجعل المخاطب يختار بنفسه؛
- قاعدة التّودد، ومقتضاها هو: لتظهر الود للمخاطب.

¹ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 251.

² - المرجع نفسه، ص 240.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الصفحة نفسها.

وتستوجب كل قاعدة من هذه القواعد الشروط الآتية:

تشتترط "قاعدة التّعفف" على المتكلّم أن يستخدم العبارات المؤدبة التي تمكنه من المحافظة على عرى التّواصل بينه وبين مخاطبه؛ فلا يتعدى المتكلّم حدوده، ولا يتدخل في الأمور الشّخصية للمخاطب، بل يجب أن يترك مسافة بينه وبين مخاطبه حتّى يضمن بقاء الاحترام بينهما.

وتشتترط "قاعدة التشكك" على المتكلّم اختيار أساليب دون أخرى؛ فلا يحمل المخاطب على الاعتراف، بل يترك له حرية اتّخاذ القرارات من خلال طرحه للأسئلة كما لو كان متشككا في مقاصده.

وأما "قاعدة التّودد" فإنّها تشتترط على المتكلّم أن يتقرب إلى مخاطبه، ويبذل جهده في كسبه، معتمدا في خطابه له على الآليات التي تجسد تضامنه معه، نحو ضمير المخاطب والاسم والكنية واللّقب، فلا يستعمل الأدوات التي تكشف عن الفارق بينهما بل لا بد له أن يعامله معاملة النّد للنّد؛ ولا تنفع هذه المعاملة إلا إذا كانت مرتبة المخاطب تساوي مرتبة المتكلّم¹، والهدف من وضع هذه الشروط هو ضمان سير ونجاح العملية التّخاطبية وتبليغ الرسالة والمحافظة على العلاقة بين طرفي الخطاب، فمبدأ التّأدب من المبادئ السامية التي يجب أن يراعيها الإنسان في حياته وتعامله مع الأشخاص على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم الاجتماعية، وثقافتهم، وبذلك تتحقق رسالة الإسلام السامية والمتمثلة في الدعوة إلى التّشبيث بالأخلاق في المعاملات.

ولقد كان لنا في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة في معاملته لأهله، وقومه الذين خاطبهم بصدق وأدب واعتبر نفسه واحدا منهم، وأظهر لهم الود، وترك لهم حرية الاختيار منذ بداية دعوته إلى الله سبحانه وتعالى، وبنى خطابه على خبرات مسبقة بأحوال المخاطب الذي "يسهم في حركية الخطاب بل يسهم في قدرة المرسل التّنويعية، ويمنحه أفقا، لممارسة واختيار استراتيجية خطابية"² تتلاءم وطبيعة المخاطب الذي يهدف المتكلّم إلى التّغيير من

¹ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 241.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 48.

سلوكه وفعله ودعوته للقيام بعمل مرغوب فيه في المستقبل؛ ولذلك نجد المتكلم يتوخى الاستراتيجيات المناسبة ومن بينها: استراتيجية المصادقية وهي عند ب. "شارودو" من ظواهر استراتيجية الخطاب على غرار استراتيجيات إضفاء المشروعية، والاستهواء، وتتمثل عند المتكلم في: "تحديد موقع صدق بحيث يمكن (...). أن يؤخذ مأخذ الجد. ولتحقيق هذه الغاية يمكن للمتكلم أن يلوذ بأنواع ثلاثة من التّموقع:¹

- أن يضع نفسه في وضعية تلفظية تتسم بالحياد تجاه الرأي الذي يعبر عنه" وهو وضع يحمله في طريقة احتجابه على محو كل أثر لحكم أو تقييم شخصي سواء كان ذلك لتفسير أسباب واقعة أم للبرهنة على أطروحة؛

- أن يضع نفسه في موقع التزام "ومن شأن هذا أن يحمله على عكس ما رأينا في الحالة السابقة، على أن يختار (بكيفيات تتفاوت وعيا) موقفا في اختيار الحجج أو اختيار الكلمات أو بجهة تقييمية يضيفها لخطابه" وهو ما ينتج خطاب افتتاح مجعولا ليشاركه فيه المخاطب؛

- أن يضع نفسه في وضعية تبعيد تقوده إلى سلوك الباحث المختص "البارد" الذي يحلل في غياب الأهواء كما يفعل الخبير.

وتتجلى هذه المفاهيم بوضوح في خطابات الرسول (ﷺ) الذي وضع نفسها في مواقع دون أخرى لدواعٍ سياقية منها هذا الخطاب الذي خاطب به قومه: "ما أعلم إنسانا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به، قد جئتم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربكم أن أدعوكم إليه فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر؟ فأعرضوا عنه وهموا بتركه، ولكن سيدنا عليا (رضي الله عنه) نهض من بينهم وهو ما يزال صبيا دون الحلم، وقال: أنا يا رسول الله عونك أنا أحارب من حاربت"²؛ حيث اختار الرسول (ﷺ) أن يضع نفسه في موقع التزام، ولذلك بدأ كلامه بإصدار تقييم ذاتي صادر عن قناعة، ونابع عن قوة وتحذّر وناتج عن إيمان ثابت لا يتزعزع، ثمّ أخبر قومه بأنّه قد آتاهم بخير الدنيا والآخرة، وأنّه لم يسبقه لذلك أحد، وبيّن لهم

¹ باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 152.

² عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 319.

بأنّ مصدر الخير هو الله سبحانه وتعالى الذي بعثه رحمة للعالمين؛ ليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

ويبدو أنّ المتكلّم هنا تحدث عن ذاته باعتباره واحداً من المخاطبين، بهدف التأثير فيهم وحملهم على سلك الطريق نفسه الذي يسلكه هو؛ لأنّ الهدف من تبليغ الرّسالة هو التأثير في المخاطب ويشير مصطلح "التأثير إلى العمليّة التي يتوصل بها الشّخص إلى تحوير تفكير شخص آخر، أو إرادته أو سلوكه بواسطة نفوذه أو صيته أو قوته"¹؛ أي العمل على تغيير سلوكه ومعتقداته بأساليب مختلفة، وقد أصبح هذا المفهوم مركزياً في علم النّفس الاجتماعي. وفي تحليل الخطاب استعاد "ب. شارودو" استعمال هذا المصطلح في عبارة مبدأ التأثير "ليشير إلى أحد المبادئ المؤسّسة لعمل اللّغة ويحدّد هذا المبدأ عمل اللّغة بأنّه عمل تبادل بين طرفين يقرّ بأنّ ما يحفز قصدية الذات المتكلّمة يندرج في غائية عملية (أو نفسية) تحمل أطراف التّواصل على إنتاج خطابات تهدف إلى أن يكون لها مفعول على الطرف الآخر"²؛ فالهدف من إنتاج الخطاب هو توجيه الآخر إلى القيام بفعل في المستقبل.

وتعد دراسة التأثير من أهمّ الموضوعات التي تحتاج إلى مزيد من الجهد من الباحثين؛ لأنّها محاطة بإشكالات عديدة، من هذه الإشكالات على سبيل المثال، "كيفية ضبط العلاقة بين الخطاب والاستجابة؛ أي كيفية البرهنة على أنّها استجابة ما هي نتاج مباشر لتشكيل الخطاب أو أدائه أو تداوله، خاصّة إذا وضعنا في الاعتبار التأثير الكبير للعوامل غير الخطابية في تحديد استجابات الجمهور، إضافة إلى تأثير إيديولوجيا المتلقين ومعارفهم المسبقة وتزداد إشكالات دراسة تأثير الخطاب إذا وضعنا في الاعتبار أن عمليّة التأثير ذات أبعاد نفسية مهمة، مثل تشكل الاتجاه، وإنجاز الإقناع، وترسيخ المعتقد، لا بد أن توضع في الاعتبار أثناء المعالجة"³؛ فعمليّة التأثير في الآخر من أصعب المهام التي يمكن للفرد أن ينجزها؛ لأنّ نجاحها متعلق بعوامل مختلفة اجتماعيّة وثقافيّة ودينيّة وإيديولوجية.

¹ - باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 304.

² - المرجع نفسه، ص 304.

³ - عماد عبد اللطيف، "كيف ندرس التناص في الخطاب؟ إطار نظري وتطبيقات على بلاغة السياسة الدينية" مقال منشور في كتاب بلاغة الخطاب الدّيني، إعداد وتنسيق محمد مشبال، ص 280، 281.

ولذلك "تتطلق التّداولية في تحديد العلاقة بين المتخاطبين من هدف أساس هو استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسالة لغويّة معيّنة وجعل المعني بها يعيها ويتحرك في إطار إنجازها"¹، ولا يتحقق دور المخاطب بشكل فعليّ إلا بعد الفعل بالقول وفق التّصور الجديد للخطاب، أي "جعل شخص ما يعتقد أنّ شيئاً ما هو كذلك إقناعه بالقيام بأمر ما إغضابه، شد أزره"² من هنا تأتي ضرورة تحديد دور المخاطب في الخطاب الدّيني والذي ينقسم إلى:³

- مخاطب لا مستمع؛

- مخاطب سامع لا يفعل بالقول؛

- مخاطب سامع يفعل بالقول.

ونجد في خطاب الرسول (ﷺ) المخاطب السّامع الذي لا يفعل بالقول، وهؤلاء هم قوم النّبي محمد (ﷺ) الذين أعرضوا عنه وهموا بتركه بعدما استمعوا لقوله، وهناك المخاطب السّامع الذي يفعل بالقول، وهو سيدنا علي (ﷺ)؛ حيث نهض من بينهم وهو ما يزال صبياً دون الحلم، وقال: (أنا يا رسول الله عونك أنا أحارب من حاربت) وهكذا تكون الذات المتلفظة ب: "أنا" قد أثبتت مساندتها للآخر، وتضامنها معه ومحاولة التّقرب إليه، وهنا يمكن التّمييز بين ثلاثة أنواع من استجابات الجماهير، "النوع الأول هو الاستجابات الآنية المباشرة، والثاني هو الاستجابات الآنية غير المباشرة، والنوع الثالث هو الاستجابات اللاحقة"⁴؛ فلا تتحقق استجابات الجماهير في وقت واحد نظراً لاختلاف طبيعتها.

¹ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط1، لبنان: 2008، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص175.

² - جون لايز، علم الدلالة اللساني، تر: صابر حباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، (مقالات مترجمة)، ط1، سوريا: 2010، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص204.

³ - فتحة بوسنة، استراتيجية الخطاب النبوي من خلال التبليغ القرآني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، تيزي- وزو: 2016، ص 238.

⁴ - عماد عبد اللطيف، "كيف ندرس التناص في الخطاب؟ إطار نظري وتطبيقات على بلاغة السياسة الدّينية" ص281.

ولذلك تواصل الذات المحورية في هذه الخطابات انتقاء الاستراتيجيات التي تدفع الآخر لمساندتها؛ فنجدها تكشف عن وجهها الإيجابي، "وقد ميّز بروان وليفنسون" حسب ما ورد في معجم تحليل الخطاب بين وجهين متكاملين لكل ذات: الوجه السلبي (مجموع مساحات الأنا: الحرم الجسدي، والفضائي، والزمني، والمادي والرمزي)، والوجه الإيجابي (مجموع الصور التمجيدية التي يبنينا المنكلمون لأنفسهم ويسعون إلى فرضها في التفاعل)¹؛ وهي صفات تجعل المخاطب يصدق المتكلم ويفتدي به.

ويجب الاعتراف بوجود أعمال "ترفع من شأن الوجوه وهي مسماة من قبل ك. "كربرات أوركيوني" (Orecchioni) حسب ما ورد في معجم تحليل الخطاب ب (الأعمال الرافعة للرأس) وهذه المفاهيم القاعدية هي التي يبنينا منها نظام آداب التّعامل²؛ يبدو أن التّعامل النّاجح هو التّعامل المبني على مجموعة مبادئ، والتي يكون الصدق واحداً منها بل من أعظمها؛ حيث يرفع من شأن المتخلّق به، ويقرب النّاس منه، ويحببهم فيه، ويجعلوهم يثنون عليه ويصدقون أخباره؛ بناء على هذا تغدو "مصداقية المتكلم المصدر الأكبر للتأثير الذي يحدثه خطابه؛ فالمتلقي لا يقبل التّسليم بدعوى ما من دون أن يؤمن بصاحبها، وهنا يقيم "أرسطو" صلة عضوية بين القول وبين المسؤول عنه؛ إنّه باختصار يربط قوّة الخطاب بصورة المصدر الذي ورد منه"³؛ أي أن خلق الخطيب هو الذي يؤثر في المخاطبين.

ونظرا لقوة الصدق في التأثير على الآخر بنى الرسول (ﷺ) استراتيجيته الخطابية عليه ويتضح ذلك جليا في قوله: " يا معشر قريش: قالت قريش: محمد على الصفا يهتف؛ فأقبلوا عليه يسألونه ما به؟ قال: رأيتم لو أخبرتم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقون؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذبا قط. قال فإنّي نذير بين يدي عذاب شديد. قال يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني تيم يا بني مخزوم، يا بني أسد، إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرنين، وإنّي لا أملك لكم من

¹ - باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب ، ص252

² - المرجع نفسه، ص252

³ - أرسطو، فن الخطابة، ص 29، 30.

الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً". إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله). فنهض أبو لهب وكان سريع الغضب، وقال تبا لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعنا¹.

يندرج الاستفهام الذي تضمنه هذا الخطاب ضمن استفهام التّقرير، وقد حمل هذا النوع من الاستفهام المخاطب على الاعتراف بصدق السائل (الرسول ﷺ) والثناء عليه وتمجيده وتصديق أخباره وكان عليهم أن يصدقوا بما جاء به النبي (ﷺ).

وقد بدأ الرسول (ﷺ) بقومه؛ حيث قال (ﷺ): (إنّ الله أمرني أن أُنذر عشيرتي الأقرين وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً. إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله)

نلاحظ في هذا الخبر حضور الذات المتألفظة بالخطاب، وقد دل على ذلك ضمير المتكلم المتصل (الياء) المقترن بالفعل (أمر) في قوله: (أمرني)، والياء المقترنة بالاسم في قوله: (عشيرتي) بالإضافة إلى اقتران الياء بأداة التّوكيد (إنّ) والتي تكررت مرتين "وجدوى التّوكيد أنك إذا كررت فقد قررت المؤكّد في نفس السّامع، ومكّنته في قلبه، وفائدة التّأكيد تمكين المعنى في نفس المخاطب"²، وهذا يخدم الغرض التّداولي؛ لأنّ المتكلم يكرّر حتى لا يبقى في نفس المنكرين أي شك وهذا ما حرص عليه الرسول (ﷺ).

وهناك خطابات يغيب فيها مبدأ التّأدب؛ حيث نجد من لا يأبه لدعوة الرسول (ﷺ) وينكر رسالته ويحاول دحض ما جاء به مثلما فعل "أبو لهب" الذي كان سريع الغضب ونهض وقال: "تبا لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعنا"³، وهي إجابة جريئة تعمل على احتقار الآخر والخط من مكانته والتّقليل من شأن أعماله، وإنكار فائدتها، وكان "ينبغي على المتحاورين الإبقاء على حد أدنى من الانسجام بينهم، وأن يبذلوا جهداً لتلطيف كل ما يذهب بماء الوجه مما يحملون على ارتكابه تجاه المشاركين لهم في عمليّة التّفاعل (كالأوامر والانتقادات والدحض والتّعزيز؛ حتّى لا يكون جارحاً جرحاً بعيد الغور لوجوه المشاركين الحساسة والهشة"⁴؛ أي يجب أن يتجنب المشاركون كلّ ما يعمل على إفساد العلاقة بينهم

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 319.

² - ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، ط 1. ج 3، بيروت: 2001، دار الكتب العلميّة، ص 221.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 319.

⁴ - باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 31.

لكن يبدو أن كفار قريش لا يرغبون في المحافظة على هذه العلاقة؛ حيث بدأوا بعدما أسلم سيّدنا حمزة وسيدنا عمر (رضي الله عنهم) يأخذون قضية سيّدنا محمد (ﷺ) بالجدّ، بخاصّة لما رأوا أصحابه يزدادون كل يوم قوّة ثم لا يثنّونهم الأذى، ولا يصرفهم العذاب عن إيمانهم والجهر به، وعن صلواتهم وأداء فرضها، وخيّل إليهم أن يتخلصوا من محمد (ﷺ) بما توهموا من إرضاء مطامعه؛ فأرسلوا إليه وهو جالس في الكعب عتبة بن ربيعة؛ الذي أظهر تضامنه مع الرسول (ﷺ).

2. من الاستراتيجية التّضامنية إلى الاستراتيجية التّوجيهية وإضفاء المشروعية:

تعرف الاستراتيجية التّضامنية بأنّها "الاستراتيجية التي يحاول المرسل أن يجسّد بها درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبر عن مدى احترامه لها، ورغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما، وإجمالاً هي محاولة التّقرب من المرسل إليه وتقريبه"¹، وتضمن نجاح الخطاب وتواصله، وتتجلى هذه الاستراتيجية في الحوار الذي جرى بين "عتبة بن ربيعة" والرسول (ﷺ) حيث قال عتبة: "يا ابن أخي إنّك منّا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة (أي الشرف) والمكان في النسب، وإنّك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّحت به أحلامهم، وعبت به من مضى من آبائهم فاسمع منّي أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعك تقبل منها بعضها؛ فقال رسول الله (ﷺ): قل يا أبا الوليد: أسمع. قال يا ابن أخي: إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لا جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتّى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكانا علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبيدنا فيه أموالنا حتّى نبرئك منه؛ فاتّه ربما غلب التابع على الرجل حتّى يداوى منه؛ فقال له رسول الله (ﷺ): أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم. قال فاسمع منّي قال أفعّل؛ فتلا عليه سيّدنا محمد (ﷺ) سورة فصلت؛ فألقى عتبة يده خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع لتلاوة رسول الله (ﷺ) حتّى انتهى إلى آية السجدة

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 257.

من سورة فصلت؛ فسجد رسول الله (ﷺ)، ثم قال لعتبة: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت؛ فأنت وذاك¹.

استخدم "عتبة" في خطابه للرسول (ﷺ) صيغة تقريبية تعمل على التّقريب أكثر بين المتكلم والمخاطب؛ إذ ناداه بقوله: (يا ابن أخي)؛ بالإضافة إلى قوله: (إنك منّا وبدل هذا الاستعمال على أنّ المتكلم يريد أن يقرب المخاطب منه من خلال الكشف عن العلاقة الحميمية التي تجمعهم به وقومه، ويمكن تعريف العلاقة الحميمية بأنها التّعابير "القيم المشتركة، والقرابة، والجنس، والجنسية، والموقع الوظيفي، وتكرار التّواصل"²؛ فالرسول (ﷺ) هو ابن أخ عتبة، وتربطه بقومه علاقة مودة ومحبة، وقد أراد "عتبة بن ربيعة" أن يحافظ على هذه العلاقة ويزيد من توطيدها.

وظهر ذلك واضحا من خلال استعماله لضمير المخاطب "نحن" في قوله (منّا جمعنا أموالنا، أكثرنا، علينا، طلبنا، وبدلنا، أموالنا)، والذي حمل قيمة تداولية تمثلت في التّعبير عن التّضامن مع الطرف الآخر، وهذا ما يصطلح عليه بالاستراتيجية التّضامنية.

ولا تتحقق هذه الاستراتيجية إلا بالحفاظ على مبدأ التّأدب والذي مقتضاه أن يأتي المتكلم بفعل القول على الوجه الذي يبرز به دلالته القريبة، ويقوي أسباب الانتفاع العاجل به فلا يخفى أن هذا الضرب من التّهذيب يولي الأهمية في التّخاطب لعملية التّبادل، ومعلوم أن كلّ تبادل بين طرفين يكون مبناه على سعي كلّ منهما إلى تحقيق أغراض تكون مشتركة أو متساوية بينهما وإلى طلب الأعراض عن أعماله التي لا يأتي الطرف الآخر بمثلها³؛ فالهدف من تبليغ الرسالة هو تحقيق الانتفاع العاجل لكلا الطرفين.

لذلك نجد المتكلم "في هذه المرتبة من التّعامل حريصا على أن يحفظ عرى التّواصل حتى يجلب أقصى ما يمكن من عاجل المنفعة لنفسه ولمخاطبه؛ فيجتهد في التّوسل بما يجلب إقبال المخاطب على سماعه، وفهم مراده وتلقيه له بالقبول طمعا في أن يبادل نفسه

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 323.

² - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية.

³ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 223.

الحرص على التّواصل، وعلى الوصول إلى المنفعة المشتركة¹؛ فيختار من الألفاظ ما يخدم غرضه، ويحقق أهدافه.

ويستعين "عتبة بن ربيعة" بكلّ ما من شأنه أن يعمل على نجاح هذا التّواصل، ويظهر ذلك في قوله: (يا ابن أخي: إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتّى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك ربيّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبيدنا فيه أموالنا حتى نبرئك) وهو بذلك يقدّم المخاطب على نفسه وأصحابه، والغرض من هذا الإيثار هو كسب المخاطب وهذا ما يسمى بمبدأ التّخلق.

ويدعو مبدأ التّخلق المتكلم إلى "الخروج عن الأغراض والغناء (بفتح الغين) عن أعواض، فلقد لزم أن يكون الباعث عليه تحقيق المزيد من الإنسانية للمتكلم، إذ لا إنسانية بدون أن يزيد اعتبار الغير على اعتبار الذات؛ حيث لا تصبح نسبتها إلى المتكلم حتى يزيد أنس المخاطب به، ولا يحصل للمخاطب هذا الأُنس المطلوب، حتّى يشعر بأنّ المتكلم قد تخلص من أقواله وأفعاله مما يقصر نفعه على نفسه ولا يتعداه إلى غيره علما بأنّه لا شيء أقصر نفعاً من الأغراض والأعواض"²؛ فكلّما أشعر المتكلم المخاطب بأنّه يسعى إلى تحقيق مصلحته؛ بحيث يمنحه تقدّما على نفسه، فإنّه سيطمئن وتهدأ نفسه، ويتحقق له الأُنس المرغوب فيه، إلا أنّ الرسول (ﷺ) لم يغتر بهذه الأموال، وتلا عليه قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ الآيات من 1 إلى 6.

¹ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الصفحة نفسها.

² المرجع نفسه، ص 223.

بعدما سمع "عتبة بن ربيعة" تلاوة سيّدنا محمد (ﷺ) أيقن بأنه رجل صادق لا مطمع له في مال ولا جاه، ولا في ملك ولا هو بالمجنون، ولا بالساحر، وإنّما يأمر بالمعروف ويدعو إلى الخير، ويدفع بالتي هي أحسن مع الإعجاز في العبارة، فانصرف عتبة إلى قريش مأخوذاً بجمال ما رأى وسمع ومأخوذاً بعظمة هذا الرجل، وسحر بيانه، ولما جلس إليهم قالوا: ما ورايك يا أبا الوليد؟ وقد دل سؤالهم عن دلالاته الحقيقية والتمثلة في طلب الاستعلام في قولهم: (ما ورايك يا أبا الوليد؟) فأجاب إجابة مخاطب سامع يفعل بالقول؛ حيث " قال: ورائي، أني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم؛ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فأصنعوا ما بدا لكم"¹ ويتضح من خلال إجابته بأنّه متضامن مع الرسول (ﷺ) ولكنّه لم يؤمن به.

عكس الأنصار الذين آمنوا به ويتضح ذلك جلياً في خطابه لهم، وقد جاء في سياق هذا الخطاب " بأنّ المسلمين بعد معركة حنين أصابوا أموالاً كثيرة، فوزعها رسول الله (ﷺ) على المؤلفة قلوبهم، وكلّهم من مكة المكرمة، ولم يعط الأنصار شيئاً، حتّى قال الأنصار: لقي رسول الله (ﷺ) قومه؛ فسمع النبي (ﷺ) قالتهم؛ فقال: اجمعوا لي الأنصار في هذه الحظيرة؛ فأتاهم رسول الله (ﷺ)، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "يا معشر الأنصار ما قاله بلغتنى عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا بلى. والله ورسوله أمّن وأفضل! ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل؛ فقال (ﷺ): أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقت أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدّنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 323.

الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فقالوا جميعا: رضينا بقسمة رسول الله وسالت دموعهم حتى ابتلت لحاهم (رضي الله عنهم) أجمعين¹.
بدأ الرسول (ﷺ) كلامه بالنداء ليلفت اهتمام المخاطب إلى ما يريد إبلاغه به، ثم جاء بالاستفهام في قوله: " ألم آتكم ضللا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟) وقد عدل الاستفهام عن دلالة الحقيقية إلى دلالة المجازية المتمثلة في التقرير، أي حملهم على الاعتراف بفضل الله سبحانه وتعالى الذي بعث لهم رسولا من أنفسهم، وبين لهم طريق الحق والباطل، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى سواء السبيل ثم جاء باستفهام آخر في قوله: (ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟) والذي افتتحه بأداة العرض "ألا" والعرض هو "طلب الفعل بلين وتأدب ومن أدواته "ألا" وكذا "لو"² ويعد أسلوب العرض من الآليات التي يعتمد عليها المتكلم في توجيه المخاطب إلى القيام بفعل ما، وقد ظهرت نتيجة هذا التوجيه من خلال السؤال الذي طرحه الأنصار على الرسول (ﷺ) (بماذا نجيبك يا رسول الله؟) ما جعلني أصنفهم في خانة المخاطب المستمع الذي يفعل بالقول ويرضى بقسمة الله ورسوله وهذا يدل على تضامنهم مع الرسول (ﷺ).

تحدثت عن بعض الآليات التي تمدنا بها الاستراتيجية التضامنية التي يسعى المتكلم من خلالها إلى توطيد العلاقة بينه وبين مخاطبه، إلا أن السياق في بعض الأحيان يفرض على المرسل استراتيجيات أخرى منها الاستراتيجية التوجيهية؛ لأن هناك سياقات لا تناسبها الخطابات المرنة التي تمنح الأولوية لمبدأ التهذيب وعوامل التخلق، ومرد ذلك إلى أسباب كثيرة منها ما يتعلق بأولوية التوجيه على التأدب في خطابات التهديد والتحذير وغيرها.
ومن أمثلة ذلك خطاب الرسول (ﷺ) لكفار قريش الذين رفضوا الاستجابة له وعقدوا اجتماعا تبادلوا فيه أطراف الحديث؛ حيث قالوا " ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط! سفه أحلامنا وسب آلهتنا فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله (ﷺ) فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مرّ بهم طائفا بالبيت، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول قال:

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة ، ص 349.

² - ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ج 1، ط 2، بيروت: 2007، ص 69.

فعرفت ذلك في وجه رسول الله (ﷺ)، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله (ﷺ)، ثم مرّ بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فوقف رسول الله (ﷺ) ثم قال: (أتسمعون يا معشر قريش، وأما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح! أي إذا لم تؤمنوا فقد جئتكم بالهلاك، فأخذت القوم كلمته، حتى إنّ أشدهم فيه وصاة قبل ذلك، ليقول: انصرف أبا القاسم؛ فو الله ما كنت جهولاً! فانصرف رسول الله (ﷺ) حتى إذا كان الغد، اجتمعوا في الحجر وقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا ما بدأكم بما تكرهون تركتموه! بينما هم في ذلك، طلع عليهم رسول الله (ﷺ)، فوثبوا وثبة رجل واحد، وأحاطوا به. يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؛ فيقول رسول الله (ﷺ): نعم. أنا الذي أقول ذلك" ¹.

يعد استعمال المتكلم للضمير "نحن"، في الكلمات التّالية: (رأينا، صبرنا، آهتنا) دليلاً على الجمع وعلى استحضار الطرف الآخر إن كان غائباً عن عينه، ولإيقاع معنى التّعظيم والغلبة، وقد كانوا يستهزئون به، وينقصون من قدره، ويحطون من شأنه، ويتغامزون عليه كلّما مرّ عليهم فما كان لرسول الله (ﷺ) إلا أن يواجههم، وأن يتصدّى لهم بقوة ولهجة حادة؛ حيث أقسم بالله (وأما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح!) واستخدام القسم يكون لغايات التأكيد يقول الدكتور "بكري شيخ أمين" القسم أفضل المؤكّدات" ²؛ أي من أفضل العناصر المسهمة في تقوية الحجة.

إنّ هذه الإمكانيات الإقناعية التي ينطوي عليها القسم هي ما تبرر اعتماده من طرف الرسول (ﷺ) والذي استعمله في سياق تهديده للآخر والحدّ من تجاوزاته، والتأثير فيه وحمله على سلك اتجاه دون آخر، وتوجيهه إلى الوجهة التي يرغب فيها. ومن هذا المنطلق؛ فإنّ الخطاب ذا الاستراتيجية التّوجيهية "يعد ضغطاً وتدخلاً ولو بدرجات متفاوتة على المرسل إليه، وتوجيهه لفعل مستقبلي معيّن وهذا هو سبب تجاوز المرسل لتهديب الخطاب من خلال استعمال بعض الأساليب والأدوات اللّغوية التي لا

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسول، قصة وعبرة وأسوة، ص 324.

² - بكري شيخ أمين، التّعبير الفني في القرآن الكريم، ط2، لبنان: 1976، دار الشروق، ص246.

تتضمن بطبيعتها ذلك؛ فتهذيب الخطاب يأتي لديه في المقام التّالي، في حين تتقدمه مرتبة تبليغ المحتوى¹؛ يعني هذا أن اللّغة تضع بين يدي المرسل مجموعة من الآليات اللّسانية التي تعينه على تبليغ مقاصده، وتبقى هذه الآليات غير كافية مالم تعزز بسلطة المرسل. وتعدّ السّلطة من أهمّ عناصر الاستراتيجية التّوجيهية لأنّ الفعل المنجز هو فعل تهديد وتحذير وترتبط هذه الاستراتيجية بمفهوم إضفاء المشروعية ويستعمل "مفهوم إضفاء المشروعية ليشير إلى أن الذات المتكلمة تدخل في مسار خطاب يجب أن ينتهي بالاعتراف لها بالحق في الكلام ومشروعية أن تقول ما تقول؛ فاستراتيجية المشروعية ترمي إلى تحديد موقع السلطة الذي يسمح للذات أن تأخذ الكلمة"²؛ وهذا يعني بأن السلطة هي التي تسمح للمتكلّم بأن يفرض ذاته، وذلك ما كشفت عنه من خلال الخطاب الذي جرى بين الرسول (ﷺ) وكفار قريش الذي انصرف بعدما هددهم بالهلاك، وردّ على سؤالهم (أنت الذي تقول كذا وكذا) بكلّ ثقة، وقدرة على فرض الذات.

ورغم الأذى الذي ناله منهم ظلّ (ﷺ) يعرض نفسه على القبائل العربيّة، يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنّه نبي مرسل، يسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتّى يبلغهم رسالة الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك قال "ربيعة بن عباد": "إني لغلّام شاب مع أبي، ورسول الله (ﷺ) يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: "يا بني فلان إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين لكم من الله ما بعثني به"³.

نلاحظ في خطاب الرسول (ﷺ) التّركيز على الجانب النّبوي، وتجلى ذلك في استعمال ضمير المتكلّم المتصل "الياء" في قوله: (إني رسول الله إليكم) بالإضافة إلى دعوتهم لاتباعه وتصديقه، ومساندته في قوله: (إني، تؤمنوا بي، تصدقوني، تمنعوني، بعثني).

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 322، 323.

² - باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 330.

³ - المرجع نفسه، ص 330.

كما ركز على الجانب النّبوي لما لقي وفدا من أهل المدينة في أيام التّشريق بمنى فكلمهم، وقرأ عليهم القرآن، وقال لهم: "أنا نبي هذه الأمة"¹؛ حيث دل الضمير أنا على حضور الذات وعلى حرصها على التعريف بنفسها مقدّمة الجانب النّبوي على الجانب البشري ودعاهم إلى الإسلام، "فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: والله إنّه للنبي الذي تواعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. فأجابوا سيدنا محمد (ﷺ) إلى دعوته، وأسلموا"²

ومثلما هناك خطابات تهتم الذات فيها بتقديم الجانب النّبوي على الجانب البشري نجد خطابات أخرى يتم فيها تقديم الجانب البشري على الجانب النّبوي من ذلك قوله لأصحابه: "لا تطروني كما أطري عيسى بن مريم (عليه السلام)، إنّما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله"³؛ خوفا من أن يقع المؤمنون في الكفر مثلما فعل قوم عيسى (عليه السلام) الذين قالوا بأنّه هو الله ومنهم من قال بأنّه هو ابن الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا؛ فقدم المتكلم صفة البشرية وركز عليها حتّى لا ينزله المؤمنون إلا المنزلة التي ارتضاها الله سبحانه وتعالى له.

والجدول الموالي يوضح عدد حضور ضمائر المتكلم والمخاطب في هذه الخطابات:

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص330.

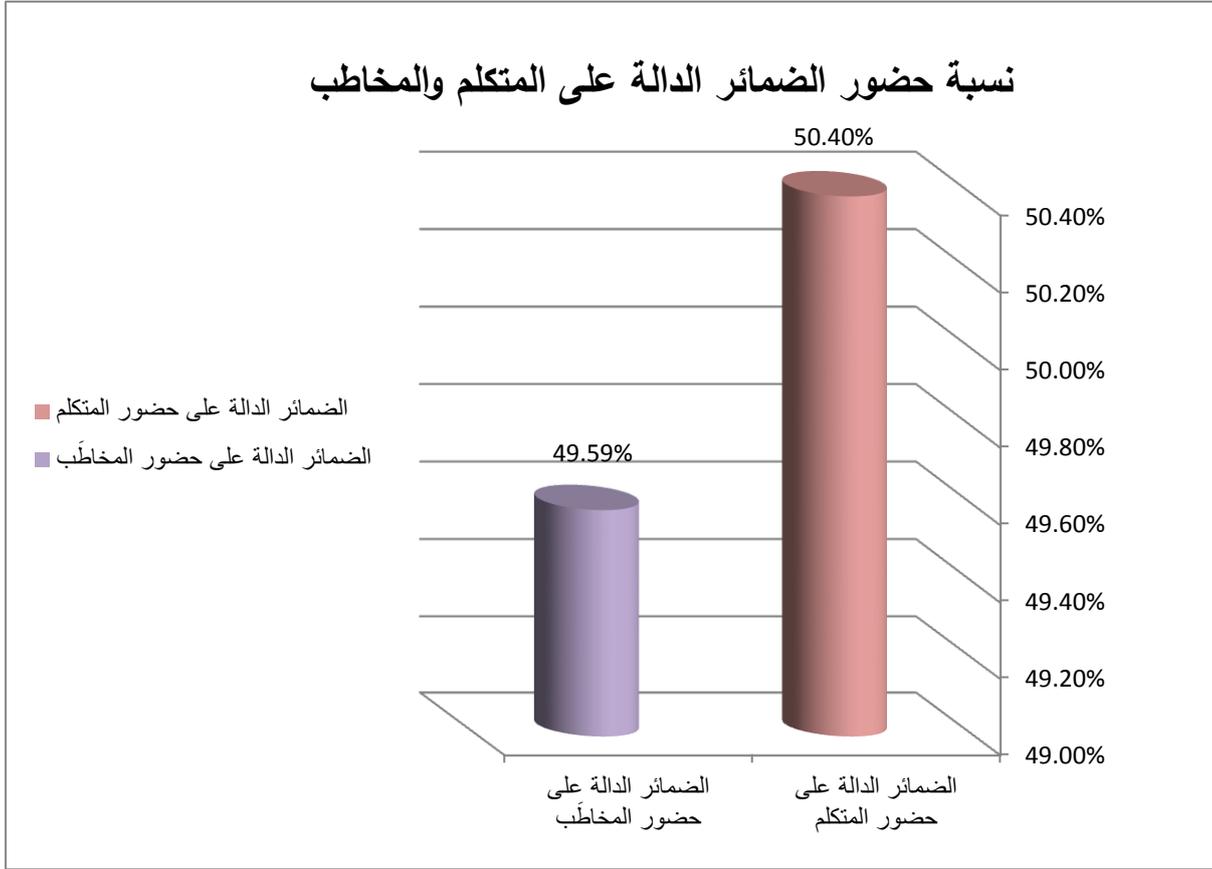
² - المرجع نفسه، ص330، 331.

³ - المرجع نفسه، ص331.

الخطاب	الضمائر الدالة على حضور المتكلم	عددتها	الضمائر الدالة على حضور المخاطب	عددتها
الخطاب 1: ما أعلم إنسانا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به.... أنا يا رسول الله عونك أنا أحارب من حاربت.	الضمير المستتر أنا (أعلم، أدعو) تقديره أنا أعلم، أنا أدعو التاء (جئت) تكررت مرتين الياء: (أمرني، يؤازرنني) أنا تكررت مرتين	8	كم: (جئتم) (تكررت مرتين) (ربكم، أدعوكم، أيكم) الكاف: (عونك) التاء (حاربت)	7
الخطاب 2: يا معشر قريش: قالت قريش: محمد على الصفا يهتف.... تبا لك سائر هذا اليوم لهذا جمعنا	التاء: (أخبرت) الياء: (إني) تكررت مرتين (أمرني، عشيرتي) الضمير المستتر (أنا) (أندر. أملك) تقديره (أنا) أندر، أنا أملك) الضمير (نا) (عندنا، جربنا، جمعنا)	10	أنتم (أرأيتم، أكنتم) كم (أخبرتمكم، لكم) أنت الكاف (عليك، لك) واو الجماعة (تقولوا)	8
الخطاب 3: يا ابن أخي إنك منا ... قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت.	الياء: (أخي، مني)، تكررت كل لفظة من	16	الكاف: (إنك) تكررت مرتين (قومك، عليك، لعلك، لك،	26

	تكررت مرتين) سودناك، دونك، ملكناك، يأتيك، نفسك، نبرئك) التاء:(علمت، أتيت، فرقت، سفهت، عبت، جئت، فرغت) (كنت) تكررت ثلاث مرات، (سمعت) تكررت مرتين أنت		هاتين اللفظتين مرتين. (نا): (منا، جمعنا، أكثرنا طلبنا، بذلنا) (علينا، أموالنا، تكررت كل لفظة من هاتين اللفظتين مرتين). الضمير المستتر (أنا) في الأفعال (أعرض، أسمع، أفعل)	فأنت وذاك
11	الكاف:(وراءك، سحرك) واو الجماعة(خلوا، اعتزلوه، كفيتموه، اصنعوا) كم:(غيركم، ملككم، عزمكم) لكم) أنتم(كنتم)	9	الياء:(ورائي، أتي، أمرني، أطيعوني، بي، رأيي) التاء:(سمعت، ثلاث مرات)	الخطاب 4 : ما وراءك يا أبا الوليد?... قال: هذا رأيي فيه فأصنعوا ما بدا لكم
21	كم(عنكم، أنفسكم، آتكم، هداكم، أغناكم، قلوبكم، وكنتمكم، إسلامكم، رجالكم واو الجماعة(وجدتموها، ترضون، ترجعوا) الكاف(نجيبك، صدقتك، نصرناك، آويناك، آسيناك، أنتم(شئتم، قلتم، صدقتم، أوجدتم	10	الياء(بلغتني، علي، تجيبونني، التاء(صدقت نا(أتيتنا، صدقتنا، نصرنا، آوينا، آسينا، رضينا،	الخطاب 5: يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم....أجمعين
9	أسمعون، تؤمنوا	10	نا:(رأينا، صبرنا، أحلامنا،	الخطاب 6:

	تم (نكرتم، أنت، كم: (جئتكم) تكررت مرتين) منكم، بلغكم، لكم)		ألهتنا) الياء: (نفسى) التاء: (عرفت) تكرر مرتين كنت، (أنا) تكرر مرتين الضمير المستتر (أنا) في الفعل (أقول) تقديره (أنا أقول)	ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط!... أنا الذي أقول ذلك.
8	كم (إيكم، يأمركم، لكم) واو الجماعة (تعبده، لا تشاركوا، تخلعوا، تعبدهون، تؤمنوا)	6	الياء: (إني، بي، تصدقوني، تمنعوني، بعثي) الضمير المستتر (أنا) في الفعل (أبين) تقديره (أنا أبين)	الخطاب 7: يا بني فلان إني رسول الله إليكم.... وتمنعوني حتى أبين لكم من الله ما بعثني به.
2	كم (تواعدكم، يسبقتكم)	1	أنا	الخطاب 8: أنا نبي هذه الأمة... وأسلموا.
1	واو الجماعة (قولوا)	2	الياء: (تطروني) أنا	الخطاب 9: لا تطروني كما أطري عيسى بن مريم (عليه السلام)، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله



يوضح الرّسم البياني نسبة حضور الضمائر الدالة على المتكلم والضمائر الدالة على المخاطب، وقد بلغت نسبة حضور ضمائر المتكلم 43,63 % في حين بلغت نسبة حضور ضمائر المُخاطَب 56,36%، أي أن نسبة حضور ضمائر المُخاطَب قد تجاوزت نسبة حضور ضمائر المتكلم بنسبة 12,73 % لأنّ المتكلم ارتكز في تبليغ خطابه على الاستراتيجية التّضامنية التي يهدف المتكلم من خلالها إلى تقريب الآخر؛ بحيث يعامله معاملة النّد للنّد من أجل ضمان نجاح الرسالة، والحفاظ على استمرارية العلاقة بينه وبين مخاطبه وبنائها إن لم تكن موجودة.

ويسعى المتكلم من خلالها إلى إزالة معالم الفروق بينه وبين مخاطبه ويحرص على حفظ عرى التّواصل، ولن يتحقق ذلك إلا بالحفاظ على مبدأ التّأدب الذي يهدف المتكلم من خلاله إلى التأثير في الآخر من خلال تقديمه وإبرازه، ونقصد بالطرف الآخر المُخاطب الذي

حرص المتكلم على استحضاره في كل خطابه أكثر من حرصه على فرض ذاته والتعبير عنها؛ و بذلك تتحقق الاستراتيجية التّضامنيّة.

3. الاستراتيجية التّلميحية وتجليات البعد الأخلاقي:

يستطيع المرسل أن يعبر عن قصده بشكل مباشر، كما يستطيع أن يعبر عن قصده بطريقة غير مباشرة، وتسمى هذه الطريقة بالاستراتيجية التّلميحية، ويختارها المرسل استجابة لدواعٍ سياقية، تجعله يعدل عن استعمال الخطاب المباشر بدافع من عوامل معيّنة. ويؤكد "سيرل" (Searle) حسب ما أورده "الشهري" على أنّ التّأدب "يعدّ من أبرز الدوافع لاستعمال الاستراتيجية غير المباشرة في الطلب، وهناك صيغ معيّنة تكاد تكون بطبيعتها طرقاً عرفية للتّأدب في إنجاز الطلب غير المباشر"¹؛ فمصوغات الاستراتيجية كثيرة وأهمّها التّأدب.

ولذلك نجد خطابات كثيرة تولى الأهميّة لهذا الجانب منها خطاب الرسول (ﷺ) الذي استخدم الاستراتيجية التّلميحية "فمن أمانة عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله (ﷺ) كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: أين أنا غدا؟ يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه، أن يكون حيث يشاء؛ فكان في بيت عائشة"² وتعرف الاستراتيجية التّلميحية بأنّها "الاستراتيجية التي يعبر بها المرسل عن القصد بما يغيّر معنى الخطاب الحرفي، لينجز بها أكثر مما يقوله، إذ يتجاوز قصده مجرد المعنى الحرفي لخطابه، فيعبر عنه بغير ما يقف عند اللفظ مستثمرا في ذلك عناصر السياق"³؛ نفهم من هنا أن الخطاب في كثير من الأحيان يتضمن معاني ضمنية.

وتبحث التّداولية في المعاني الضمنيّة، والإضمارات التي تعدّ "جوانب مقاصدية من المعنى ولها خاصيات واضحة الملامح وهي مستقاة جزئياً من المعنى المتواضع عليه أو المعنى المباشر للقول

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 372.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 350.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 370.

حسب استعماله في سياق مشترك بين المتكلم والمخاطب، وتعتمد على التزام المتكلم والمخاطب بالمبدأ التّعاوني وضوابطه¹؛ نفهم أن تسهيل عمليّة التّواصل مرهون بالالتزام بمبدأ التّعاون. وهو مبدأ تتبثق عنه قواعد أربع هي²:

- قاعدة الكمية: اجعل خطابك أكثر غنى بالأخبار، على أن لا يتعد ذلك حده؛
- قاعدة النوعية أو الكيفية: لا تقل ما تعتقده خاطئاً، وتفنقر للبراهين الكافية عنه؛
- قاعدة الإفادة: كن دقيقاً؛
- قاعدة الصيغة كن واضحاً، دون لبس، وموجزاً ومنظماً.

وتتضح هذه المبادئ في خطاب الرسول (ﷺ) لأزواجه (رضي الله عنهن) والذي تضمّن قوّة إنجازية حرفية هي السّؤال، وقوّة إنجازية مستلزمة مقامياً هي الطلب والاستئذان؛ فالضمير (أنا) لم يأت في سياق فرض الذات، وإنّما استخدمه المتكلم في سياق الاستئذان، إذ إن من دواعي استعمالها "العدول عن محاولة إكراه المرسل إليه أو إكراهه لإنجاز فعل قد يكون غير راغب في إنجازه، فلا يريد المرسل إكراهه، إن كان لا يرغب في تنفيذ ما يريده منه"³؛ حيث يترك الحرية للمخاطب في اختيار القرارات وهذا من الأخلاق السامية التي تحلى بها الرسول (ﷺ) وينبغي للمسلمين أن يفقدوا به ومن الأخلاق التي تحلى بها الرسول (ﷺ) نجد الصبر على أذى الأعداء؛ ومن أمثلة ذلك قوله (ﷺ) لآل ياسر وهم في ساحة العذاب والابتلاء: "صبرا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة، ويأتيه بعض المؤمنين من الشرفاء والأقوياء بين مضروب ومشجوع، فيأمرهم بالصبر، ويقول لهم: كفوا أيديكم لا تقاتلوا القوم فإنّي أمرت بالعمفو"⁴.

¹ - عيد بلبع، التّداوليّة، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس من اللسانيات إلى النّقد الأدبي والبلاغة، ط1، مصر: 2009، جمهورية مصر العربيّة، ص314.

² - الصبحي هادي، الإنشاء بالقول مقارنة نحوية تداولية للأوامر والنّواهي أعمالاً لغوية، ط1، عمان: 2016، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ص126.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص373.

⁴ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص326.

جاء استعمال ضمائر المخاطب المتصلة في قوله: (معدكم، أيديكم) والضمائر الدالة على المتكلم في قوله: (فإني) والتاء في قوله: (أمرت) في سياق الحديث عن الحلم، والعفو والتسامح وهي صفات أمر الله سبحانه وتعالى بها عباده لما لها في تأثير في نفوس الغير وحملهم على التّغيير.

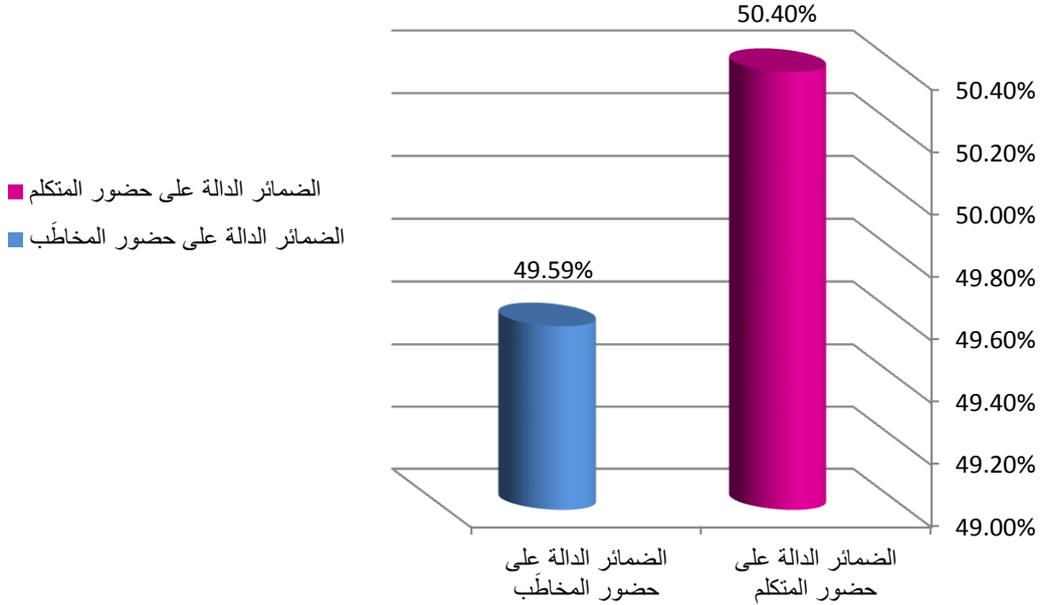
ويعدّ الرسول (ﷺ) المثل الأعلى في الصبر على أذى أعداء الدّين؛ "فقد نالت قريش من الرسول (ﷺ) بعد وفاته عمّه؛ حيث تعرض إليه أحد السفهاء، وبدأ يحثو على رأسه التراب ودخل سيدنا محمد (ﷺ) بيته، فقامت إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله (ﷺ) يقول لها: لا تبكي يا بنية، فإنّ الله مانع أباك، وكان يقول: " ما نالت مني قريش شيئاً حتى مات أبو طالب"¹.

يبرز هنا الجانب العاطفي في مساندة البنت لأبيها، وفي استعمال الرسول (ﷺ) للصيغة التّقريبية في قوله: (يا بنية) ثم أكد لها بأنّ الله سبحانه وتعالى سيحميه من كيد الأعداء. يوضح الجدول الموالي عدد حضور ضمائر المتكلم والمخاطب في هذه الخطابات.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 329.

الخطاب	الضمائر الدالة على حضور المتكلم	عددتها	الضمائر الدالة على حضور المخاطب	عددتها
الخطاب 1: فعن أمنا عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله (ﷺ) كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: أين أنا غدا؟... فكان في بيت عائشة	أنا	1	/	/
الخطاب 2: صبرا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة ويأتيه بعض المؤمنين من الشرفاء والأقوياء... ويقول لهم: كفوا أيديكم لا تقاتلوا القوم فإنني أمرت بالعفو	الياء: (أني) التاء: (أمرت)	2	كم: (موعدكم، أيديكم) واو الجماعة: (كفوا، لا تقاتلوا)	4
الخطاب 3: لا تبكي يا بنية، فإنّ الله مانع أباك، وكان يقول: " ما نالت مني قريش شيئا حتى مات أبو طالب	الياء: (مني)	1	الياء: (تبكي) الكاف: (أباك)	2

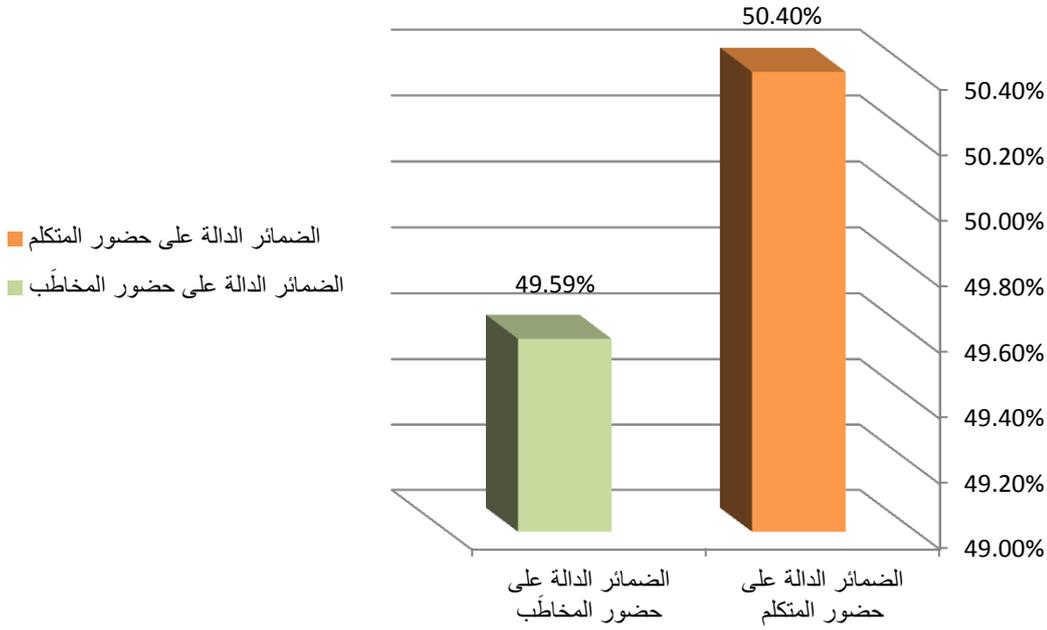
نسبة الضمائر الدالة على حضور المتكلم والمخاطب



يوضح الرّسم البياني نسبة حضور الضمائر الدالة على المتكلم والضمائر الدالة على المخاطب، وقد بلغت نسبة حضور ضمائر المتكلم 40,00% في حين بلغت نسبة حضور ضمائر المخاطب 60,00%؛ أي أن نسبة الضمائر الدالة على حضور المخاطب قد تجاوزت نسبة حضور الضمائر الدالة على المتكلم بنسبة 20% لأسباب مختلفة منها:

- تحقق مبدأ التّأدب في هذا الخطاب، وتجلّى ذلك في استئذان الرسول (ﷺ)؛ فهو لم يفرض رغبته على زوجاته، وإنما ترك لهنّ حرية اتخاذ القرار؛
- بروز الجانب العاطفي؛ أي مساندة الذات للآخر وتضامنه معه، الأمر الذي يتطلب تقريبها؛ وتجلّى ذلك في موقف أزواجه (رضي الله عنهن).
- تقديم الجانب البشري على الجانب النبوي، وهذا يتطلب تجنب كثرة استخدام الضمائر الدالة على صفة النبوة وإثبات صفات البشرية.

نسبة الضمائر الدالة على حضور المتكلم والمخاطب في الخطابات السابقة



تعليق:

يوضح الرّسم البياني نسبة حضور الضمائر الدالة على المتكلم والضمائر الدالة على المخاطب في الخطابات السابقة، حيث بلغت نسبة حضور ضمائر المخاطب 49,59% في حين بلغت نسبة حضور ضمائر المتكلم 50,40%.

يبدو أن الضمائر الأكثر حضوراً في المدونة هي ضمائر المتكلم ويتفق النّحاة "على أن ضمير المتكلم هو ضمير حضور"¹ والحضور هو الهدف الذي يسعى المتكلم إليه من خلال إنتاجه لهذه الخطابات؛ ولأجل تحقيق ذلك نجده يتوخى مجموعة من الاستراتيجيات التي تعينه على بلوغ قصده المنشود المتمثل في الحضور؛ لأن الحضور في حد ذاته غاية حاجية؛ فالمتكلم من خلال استعماله لضمائر الحضور يعبر عن ذاتيته؛ وتتمثل الذاتية في "قدرة المتكلم على أن يفرض نفسه كفاعل"²، فهي تمثل قدرة المتكلم في أن يبرهن على وجوده ويفرض سلطته؛ "فليست الضمائر مجرد نيابة نحوية

¹ - ينظر: عباس حسن، النحو الوافي، ط3، مصر: 1966، دار المعارف.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص84.

بل هي أصوات حجاجية تؤمن التّفاعّل والاختلاف والانسجام¹ أي هي وسيلة من وسائل تحقيق التبادل بين الأطراف المشاركة في الخطاب، ما يجعلنا نعتزّ بدورها الحجاجي؛ أي أن الضمائر أصوات حجاجية وفي هذا الشأن تقول الباحثة "سامية الدريدي": " نتحدث في الخطاب الحجاجي عن تعدد الأصوات، إذ نجد صوت المدافع عن فرضية المنتصر لقضية وصوت المعارض الراض وصوت المتردد الشاك وأصوات أخرى كثيرة يستحضرها المتكلم يجادلها ويحاججها أو يستشهد بأرائها ومواقفها"²؛ الأمر الذي يستدعي منه الحضور الدائم حتّى يعلن عن مسؤولياته تجاه مخاطبيه، فلا يقتصر دور الضمائر على التّعريف بالذات والكشف عن مرتبتها الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة، وإنّما يتجاوزه إلى الالتزام بواجبه ومسؤولياته.

إنّ إعلان المسؤولية هو الذي يجعل الأطراف المشاركة في الخطاب تتخذ الاستراتيجية المناسبة لإقناع الطرف الآخر؛ وتدفع كل طرف من الأطراف إلى اتّخاذ موقف والدفاع عليه وبذلك يتحقّق التّفاعّل بكلّ أشكاله.

إنّ ضمير المتكلم يحمل شحنة ذاتيّة قويّة تمكنه من التّعبير عن ذاتيته، وعن معتقداته وعواطفه، وفي هذا الصدد تقول الباحثة فاطمة الطبال بركة إنّ " الوظيفة التّعبيرية أو الانفعالية تحدد العلاقة بين المرسل والمرسلة وموقفه منها، فالمرسلة في صورتها تدل على طابع مرسلها، وتكشف عن حالته فضلا عما تحمله من أفكار تتعلّق بشيء ما يعبر المرسل عن مشاعره حياله (...). إنّها الوظيفة التّعبيرية التي ترجع إلى المتحدث وتشير إلى حالته الفكرية والعاطفيّة قياسا إلى موضوع الحديث"³؛ ولذلك سعى الرسول (ﷺ) باستعماله لضمير المتكلم إلى الكشف عن مدى إيمانه بالرسالة التي كلفه الله سبحانه وتعالى بتبليغها، ومدى حرصه على تبليغها.

¹ - عبد اللطيف عادل، الحجاج في الخطاب مقاربات تطبيقية، ط1، المغرب: 2017، مؤسسة آفاق، ص34.

² - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني، بنياته وأساليبه، ط1، عالم الكتب الحديث: 2007، ص158.

³ - فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكسون، دراسة ونصوص، لبنان: 1993، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص66.

4. الخطاب بين التّفويم الأخلاقي وغير الأخلاقي:

ينقسم الخطاب من حيث هو مجموعة من الكلمات إلى قسمين: "قسم يتكوّن من الكلمات الموضوعيّة التي لا تحمل أي شحنة ذاتية، وإنّما تكتفي من النّاحية الدلالية بتعيين مرجعها والإحالة عليه، والمثال على هذه الصفات الألوان والكلمات التي من قبيل متزوج أعزب الخ وقسم آخر هو قسم الكلمات التي هي إلى جانب تعيينها الشيء المتحدث عنه تحمل شحنة ذاتية"¹؛ وتنقسم هذه الشحنة الذاتية إلى نوعين:²

النوع الأول: يتمثّل في الكلمات العاطفية من قبيل: محزن، شجا، غريب مؤلم... الخ.

النوع الثاني: الكلمات التّفويمية: من قوّمت المتاع حددت قيمته، والتّفويم يعني تحديد قيمة الشيء بإطلاق حكم قيمي عليه يرفعه أو يحطه بالنّسبة إلى معايير أو مبادئ كونية قوامها العقل أو التّواضع الاجتماعي أو ذاتية عاطفية خاصة.

وقد جاء في معجم تحليل الخطاب: أنّه يمكن استعمال "تقدير" استعمالاً عاماً جدّاً لكلّ العلامات غير الإشارية التي يعبرّ بها المتكلّم عن ذاتيته؛ فيقصي منها غالباً كلّ الجهات المنطقية، وفي هذه الحال يشمل التّقدير كلّ ما هو من قبيل ردّ الفعل الانفعالي أو الحكم القيمي"³، فالتّقدير حسب ما جاء في معجم تحليل الخطاب "هو مجموع العلامات التي يعبرّ المتلفظ بواسطتها عن حكم قيميّ أو ردّ فعل انفعالي"⁴؛ أي مجموعة العناصر التي يستخدمها المتكلّم (الذات المحورية) ليعبرّ بها عن ذاتيته ويكشف من خلالها عن موقفه الإيجابي أو السلبي تجاه الحدث المعبرّ عنه، وهذا ما يقصد بالنّوع التّفويمية القيمة.

¹ - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، تونس: 2001، جامعة منوبة منشورات كلية الآداب، ص 129.

² - المرجع نفسه، ص 129، 130.

³ - باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 54.

⁴ - المرجع نفسه، ص 53.

أما غير القيميّة "فهي صفات تقتضي بدون أن نعبر عن حكم قيمي أو عن التزام المتكلم عاطفيًا، تقييما كفيًا أو كميًا للشّيء المعبر عنه"¹، أي أنّ التّقويم ينقسم إلى ضربين: تقويم غير أخلاقي وتّقويم أخلاقي.

- التّقويم غير الأخلاقي: هو التّقويم الذي لا يتضمّن شحنة أخلاقيّة، ويشمل المقادير مثل كثير/ قليل، والأحجام مثل: كبير/ صغير، والمسافات مثل: بعيد / قريب ودرجات الحرارة مثل حار/ بارد... الخ وهذا التّقويم لئن خلا من "الشحنة الأخلاقيّة فإنّه لا يخلو من ذاتية؛ ذلك أنّ الأشياء نفسها المتحدث عنها يمكن أن نقول عنها: إنّها بعيدة جدا أو قريبة جدا، كبيرة جدا أو صغيرة جدا، وأنّ أقربها يمكن أن يحكم عليه بأنّه بعيد كما يمكن أن يحكم على أبعدها بأنّه قريب، وأنّ أكبرها يمكن أن يحكم عليه بأنّه صغير كما يحكم على أصغرها بأنه كبير"²؛ أي هو التّقويم الذي لا يستند إلى مقاييس معيّنّة؛ ومعايير متفق عليها لأنّ النظرة إلى الأشياء تختلف من إنسان لآخر.

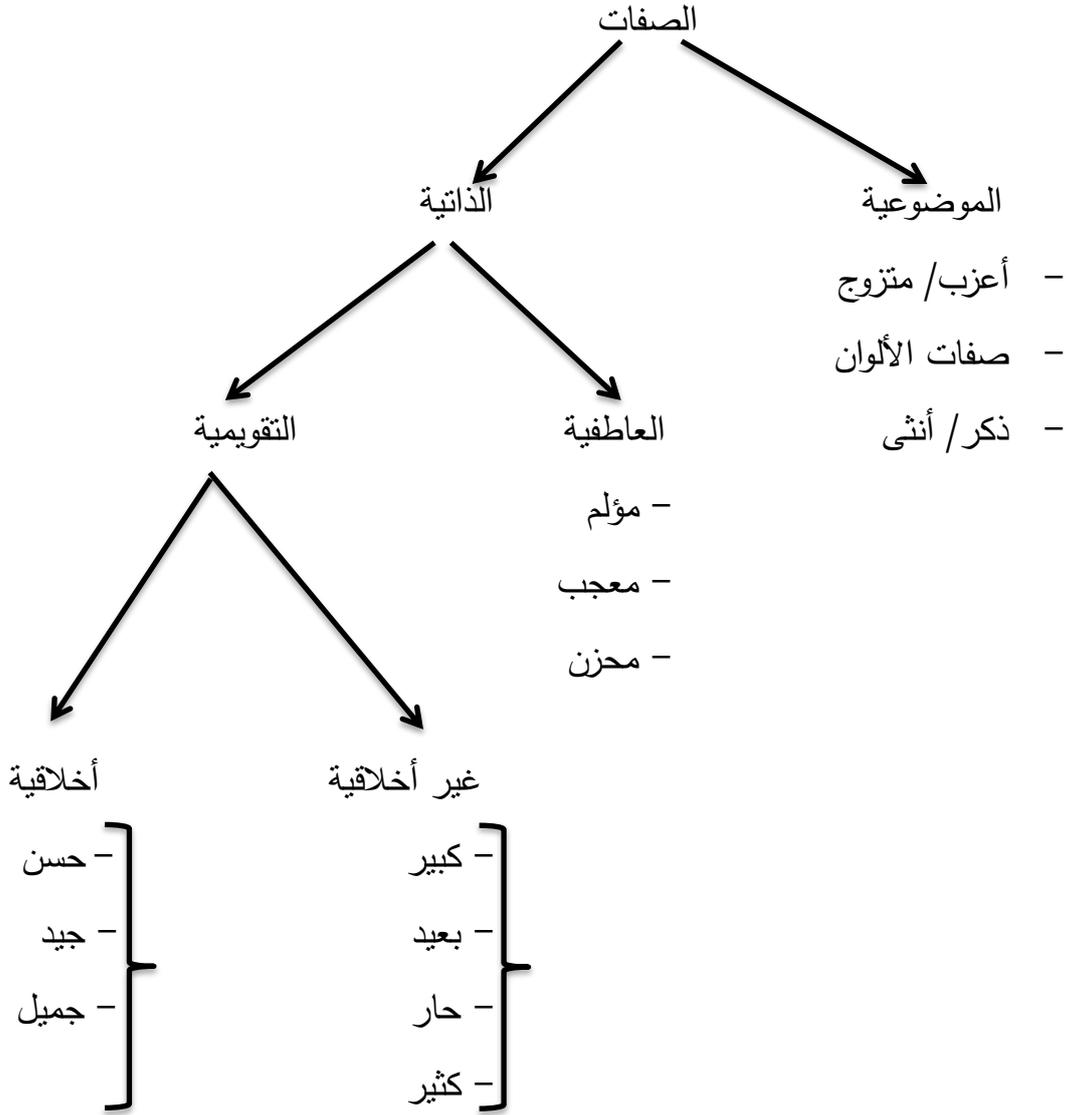
- وتّقويم أخلاقي: هو التّقويم "الذي يلقي بحكم قيمي وأخلاقي على الأشياء مثل: "حسن/ قبيح"³؛ فحكمنا على شيء ما بأنّه حسن أو قبيح يستند إلى معايير متواضع عليها في الحكم على الأشياء بأنّها حسنة أو قبيحة.

وقد نقل لنا "صولة" في كتابه "الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم أساليبه الحجاجية" الخطأ التي اختزلت فيها "أوركينيوني" ضروب الكلمة من حيث موضوعيتها وذاتيتها.

¹ - باتريك شارودو ، دومينيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، ص 54.

² - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص130.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.



صنفت "أوركيوني" في هذه الخطاطة صفات الكلمات إلى صنفين: موضوعية وذاتية شملت الصفات الموضوعية كلّ ما يتعلّق بصفات الألوان والجنس: ذكر وأنثى وانقسمت الصفات الذاتية إلى عاطفية تقويمية، وهذه الأخيرة انقسمت بدورها إلى غير أخلاقية من قبيل كبير بعيد...الخ. وأخلاقية تقع على محور حسن قبيح "إنّ وظيفة الاستحسان والاستقباح للكلمات ذات التّقييم الأخلاقي المعبرة من جهة المتكلّم عن معنى أحب/ لا أحب تضع المسألة في نطاق النّظرية التي أقامها فلاسفة الأخلاق في دراستهم لصفتي "حسن" و"قبيح" اللّتين يطلقهما المتكلّم على أشياء في العالم مبرزاً بواسطتهما موقفاً منها"¹؛ فبمجرد

¹ - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص150.

تلفظ المتكلم بإحدى هاتين الكلمتين يكون قد أطلق حكماً تقويمياً أخلاقياً صادراً عن قناعة؛ لأنّ حكمنا عن شيء ما بأنّه حسن يعبر عن مدى إعجابنا بذلك الشيء، وقلنا عن شيء أنّه قبيح يعبر عن نفورنا من ذلك الشيء وهذا ما ذهب إليه آير (Ayer) حسب ما نقله لنا عنه "عبد الله صوله" في كتابه "الحجاج في القرآن من خلال أهم أساليبه الحجاجية"؛ حيث قال: "أنّ قولنا عن شيء هو حسن يعبر عن استحسان عملي من لدنا وأو قولنا عن شيء آخر هو قبيح يعني أنّنا ضده فنحن نعبر عن استقباحتنا إياه أما من جهة المتلقي فإنّ صفتي "حسن" و"قبيح" تأتيان من زاوية النظرية الانفعالية هذه لتحسين الأشياء الموصوفة أو تقييحها في نظره وفكرة عواطفه وانفعالاته بترغيبه في أمور وتغييره من أخرى وإقناعه بوجهة نظر معينة وحثه على عمل شيء ما ودعوته إليه"¹؛ فغرض المتكلم من حكمه على الأشياء بأنّها حسنة أو قبيحة هو التأثير في المتلقي وهو ما كان "آير" (Ayer) في إطار النظرية الانفعالية المذكورة يعتبره من وظائف الكلام.

إنّ حكم المتكلم على الأشياء بقوله "حسن" / "قبيح" يتجاوز مجرد الرغبة في إبداء انطباعه إزاء الأشياء المعبر عنها، وإتّما يسعى من خلال ذلك إلى إنجاز فعل تأثيري؛ حيث يريد بإطلاقه لهذا الحكم توجيه المخاطب إلى القيام بفعل ما وحمله على الإذعان من خلال "تدبر البعد العملي المباشر للملفوظ الأخلاقي على اعتباره توجيهاً للعمل، (...)"؛ فهو بذلك كلام إلزامي يلزم بالعمل ولا يكتفي بالدعوة إليه بواسطة الترغيب والتنفير"²؛ بل يهدف إلى التأثير في المخاطب وحمله على القيام بعمل في المستقبل.

و لقد اعتمد الخطيب "عبد الحميد مهدي" على التّقييم أثناء عرضه لسيرة سيّدنا محمد (ﷺ) في سياقات مختلفة ليرز جوانب متعدّدة من حياة وشخصية الرسول (ﷺ) ويمكن التّمثيل لذلك من قوله الخطيب "وتؤكد الروايات الصحيحة أن عبد المطلب بن مناف بن هشام سيد قريش بلا منازع، لما تجاوز السبعين من عمره زوج ابنه الأصغر عبد الله،

¹ - المرجع نفسه، عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 150.

² - المرجع نفسه، ص 151.

الذي دخل في السنة الرابعة والعشرين من عمره بفتاة طيبة مباركة تسمى آمنة بنت وهب، من أشرف البيوت بمكة المكرمة.¹

ينقسم التّقويم في هذا القول إلى قسمين: تقويم أخلاقي وتّقويم غير أخلاقي حسب

الجدول التّالي:

التّقويم	
تقويم غير أخلاقي	تقويم أخلاقي
الأصغر	سيّد
	طيبة
	مباركة
	أشرف

اعتمد الخطيب على التّقويم ليبرز نسب الرسول (ﷺ)؛ وقد انقسم التّقويم إلى تقويم أخلاقي، وتّقويم غير أخلاقي، تمثلت الألفاظ التّقويمية الأخلاقيّة في قوله: (سيد، طيبة مباركة، أشرف)، واستعمل لفظا تقويما غير أخلاقي وهو: (الأصغر) وقد كان هذا التّقويم كفيل بوصف انطباعه حول الموضوع الذي أراد تبليغه، والمتمثل في الافتخار بنسب الرسول (ﷺ).

ويتحدث الخطيب "عبد الحميد مهدي" عن الظروف التي ولد فيها سيّدنا محمد (ﷺ) فيقول: "لما أتمت آمنة بنت وهب مدة حملها، ولدت غلاما في ظروف عادية فبشرت به جده عبد المطلب، الذي سماه محمدا، وفي اليوم السابع من مولده أمر جده عبد المطلب بجزور فنحرت، ودعا رجالا من قريش، فحضرُوا وطعموا، وسألوا عن سبب اختياره لهذا

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 307.

الاسم النادر عند العرب وقتئذ: فقال: أردت أن يكون محمودا في السماء لله، وفي الأرض لخلقه"¹.

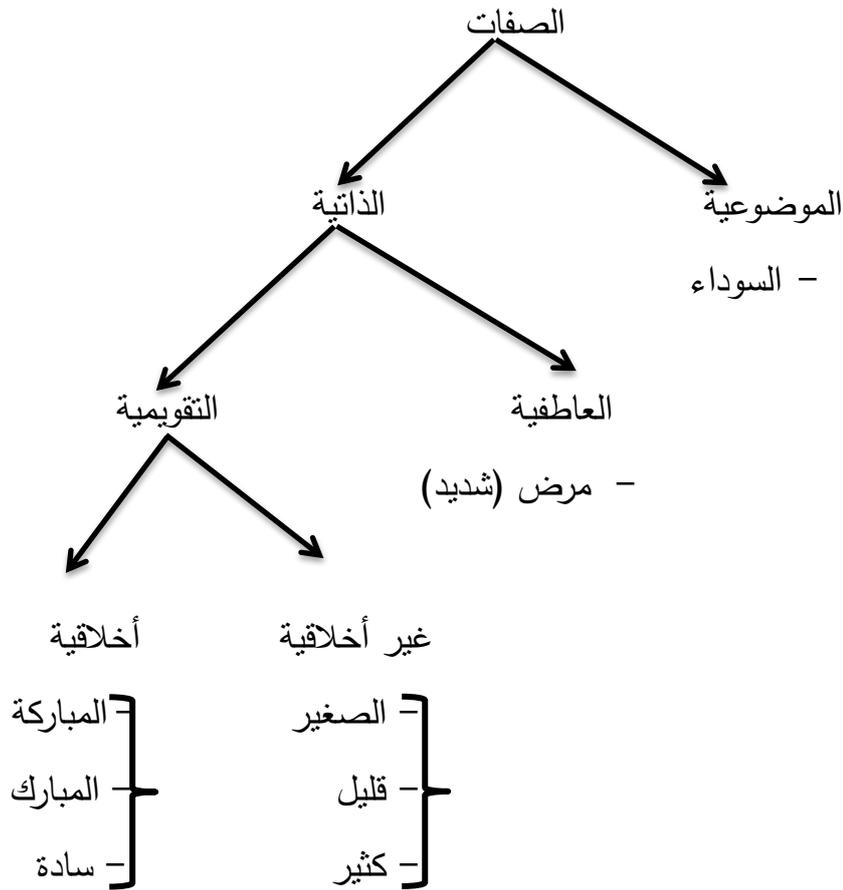
تضمن هذا القول تقويما أخلاقيا وآخر غير أخلاقي. تمثل التقويم الأخلاقي في لفظة: (عادية)، وتمثل التقويم غير أخلاقي في لفظة: (النادر) وقد استعمل هذه التقويمات في سياق حديثه عن الظروف التي زامت الحدث العظيم المتمثل في ميلاد سيد البشرية الذي: "ترى بين أحضان أمه آمنة بنت وهب، ولما أكمل ست سنوات، أخذته أمه معها إلى المدينة المنورة لزيارة أحوال أبيه بني النجار، والوقوف على قبر أبيه، ومعها بركة الحبشية، ويقوا في الضيافة مدة شهر، ثم رجعت أمه آمنة في اتجاه مكة، إلى أن وصلت إلى قرية الأبواء، فأصابها مرض شديد، فماتت في هذه القرية ودفنت فيها، وقد اقترب عمرها من الثلاثين سنة؛ فأصبح الولد الصغير بدون أب ولا أم، وهو ابن السبيل؛ فحضنته الأمة السوداء "بركة" المباركة مدة خمسة أيام إلى أن وصلت إلى مكة فسلمته لجدّه عبد المطلب؛ فقام بكفّالته وتربيته مدة عامين كاملين، ثم مات جدّه عن عمر جاوز الثمانين، ولما يكمل سيدنا محمد (ﷺ) العام الثامن من عمره المبارك فانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب، وقد وصّاه أبوه عبد المطلب بكفّالته والاهتمام بتربيته وكان أبو طالب من سادة قريش ولكنه كان كثير العيال وقليل المال؛ هكذا كانت طفولة سيدنا محمد (ﷺ) فاعتبروا بأولي الأبصار"².

يتضمن هذا الخطاب مجموعة من الكلمات توزعت بين الكلمات الموضوعية التي لا تحمل أي شحنة ذاتية مثل الألوان وتمثلت في كلمة: (السوداء) وبعض الكلمات التي تحمل في طياتها شحنة ذاتية، وتنقسم بدورها إلى كلمات عاطفية، ويظهر ذلك في قول الخطيب: (فأصابها مرض شديد) وكلمات تقويمية تنقسم إلى أخلاقية منها: (المبارك، المباركة، سادة) وغير أخلاقية منها: (كثير، قليل) وقد عبّر الخطيب من خلالها عن مدى تأثره بالظروف الصعبة التي تعرض إليها الرسول (ﷺ)؛ فقد توفيت أمّه، وهو طفل صغير، وحضنته الأمة

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 307.

² - المرجع نفسه، ص 309.

السوداء "بركة المباركة"، ثمّ كفله جده، وبعد وفاة جده انتقل إلى كفالة عمه، ويمكن أن نستفيد من خطاطة "أوركينيوني" السابقة في رسم خطاطة لهذا القول.



كما استعمل الخطيب عبد "الحميد مهدي" مجموعة من الأنماط التّقديرية في سياق الحديث عن أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن) اللّواتي تزوجهن سيّدنا محمد (ﷺ) وأكبرهنّ: " خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) وأرضاها وهي المرأة الطاهرة الذّكية جدا... وأصغرهن عائشة بنت أبي بكر الصديق (رضي الله عنها)، وهي المرأة الوحيدة التي تزوجها سيّدنا رسول الله (ﷺ) وهي صغيرة وبكر".¹

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 343.

تقويم أخلاقي	تقويم غير أخلاقي
الطاهرة	صغيرة
الذكية جدا	بكر

ولقد تحدث الخطيب "عبد الحميد مهدي" عن زوجات الرسول (ﷺ) في سياق الحديث عن الحكمة من الزواج بهن؛ فتبين لنا بوضوح أنّ الرسول (ﷺ) قد تزوج كل هؤلاء النساء الطيبات الكريمات الشريفات من أجل هدف واحد هو خدمة الدين الإسلامي وتقوية العلاقة بينه وبين أصحابه وتحقيق البعد الاجتماعي.

واستخدم الخطيب "عبد الحميد مهدي" مجموعة الأحكام التقويمية في سياق الحديث عن الأخلاق السامية التي تخلّق بها الرسول (ﷺ)؛ ويظهر ذلك في قوله: "وما يتصف به من خلق عظيم، ولسان فصيح، وموعظة بليغة، وحجة دامغة وحوار هادئ، وتواضع جم، ورحمة واسعة، وأدب رفيع؛ فكان الرسول سيدنا محمد (ﷺ) ومن آمن به، في هذه المرحلة التي استغرقت ثلاث سنوات يستخفون بدينه".¹ وقوله: "هكذا كان سيدنا محمد (ﷺ) يحاور ويجادل قومه الكفار والجهال والمعاندين بل والمتهورين بما يعلمه الله من فن الحوار باللين واللطف، وقوة الحجة والموعظة الحسنة بأدب رفيع وخلق حميد، وسلوكات تربوية وحضارية راقية...."²

وقوله: "كان (ﷺ)؛ قد حوى كل الكمالات الباطنة والظاهرة؛ فقد كان (ﷺ) ليّنا ومتواضعا ورؤوفا ورحيما وودودا؛ عليه وقار ومهابة، من رآه بداهة هابه، ومن خالطه أحبه.... وكان الرسول (ﷺ) أجود الناس بالخير، وكان شديد الحياء، ولم يكن فاحشا ولا بخيلا ولا جبانا وكان دائم البشر والابتسام، حسن العشرة، خاصة مع زوجاته وأولاده".³

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص 318

² - المرجع نفسه، ص 321.

³ - المرجع نفسه، ص 338، 339.

وقوله: "إنّ سيدنا رسول الله (ﷺ) كان أفصح النّاس، وأحسنهم بيانا، وأعذبهم كلاما،

يتكلم بالكلام الفصل الحكيم"¹. ويمكن توضيح هذه الأحكام في الجدول التالي:

الأحكام التّقويمية غير الأخلاقية	الأحكام التّقويمية الأخلاقية
/	واضحة وصادقة وصحيحة
/	أفصح النّاس، وأحسنهم بيانا، وأعذبهم كلاما
واسعة	خلق عظيم، ولسان فصيح، وموعظة بليغة، وحجة دامغة، وحوار هادئ، وتواضع جم، ورحمة واسعة، وأدب رفيع
/	وخلق حميد، وسلوكات تربوية وحضارية راقية
/	لينا ومتواضعا ورؤؤفا ورحيما وودودا؛
/	أجود النّاس بالخير، وكان شديد الحياء، ولم يكن فاحشا ولا بخيلا ولا جبانا وكان دائم البشر والابتسامة.

تضمن هذا الجدول مجموعة من الأحكام التّقويمية منها الأخلاقية وغير أخلاقية عبّر الخطيب من خلالها على انطباعه إزاء أخلاق الرسول (ﷺ) الذي امتاز بالصفات الحسنة والأخلاق الحميدة، والسلوكات السّوية والراقية والحضارية.

يهدف الخطيب "عبد الحميد مهدي" من خلال عرضه لأخلاق الرسول (ﷺ) إلى التّأثير في المتلقي ودعوته للاقتداء بالرسول (ﷺ)، والتّخلق بهذه الأخلاق السّامية؛ فهو هدف توجيهي.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ص358.

خلاصة:

تناولت في هذا الفصل الموسوم بـ "الاستراتيجية التّواصلية والبعد الأخلاقي في الخطاب الدّيني" مختلف الآليات والاستراتيجيات التي اعتمدها الذات المحورية في هذه الخطابات والمتمثلة في ذات الرسول (ﷺ)؛ الذي أمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ الرّسالة لكافة عباده وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

أشرت في مقدّمة هذا الفصل إلى أنني ركزت على المقاطع الحوارية التي تضمنتها قصة سيّدنا محمد (ﷺ) لتوفرها على مختلف الآليات التي تمدنا بها اللّغة من أجل منح المتكلّم إمكانية التّعبير عن ذاته، وتحقيق التّفاعل والانسجام مع غيره.

تضمّن هذا الفصل مجموعة من العناصر الإشارية، توزعت بين الإشارات الشّخصية والزمانية، وقد تناولتها من وجهة نظر لسانيات التّلفظ، وقد تبين لنا بأنّ التداوليين قد ركزوا في فهمهم للتلفظ على دراسة العناصر التي تتجلى من خلالها الذاتية.

تجلت الذاتية في مختلف المقاطع الحوارية التي تناولتها بالتّحليل؛ فقد بدأت الذات المحورية بوصف ذاتها، ثم تحدثت عن بعض إرهابات النبوة، بعد ذلك انتقلت للحديث عن مرحلة بداية الوحي التي تعد مؤشرا للأمر ببداية الدعوة.

بدأت الذات المحورية في هذه الخطابات بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة؛ حيث حرص الرسول (ﷺ) على انتقاء استراتيجيات دون أخرى لدواع سياقية منها العلاقة بين أطراف الخطاب؛ والتي حرص الرسول (ﷺ) على المحافظة عليها وبنائها إن لم تكن موجودة، من خلال مراعاته لمبدأ التّأدب الذي تجسدت من خلاله الاستراتيجية التّضامنية التي سعى المتكلّم بواسطتها إلى إزالة معالم الفروق بينه وبين مخاطبه وتقريبه إليه من أجل الحفاظ على عرى التّواصل بينهما وضمان نجاح الرّسالة.

عدل المتكلّم عن اختيار الاستراتيجية التّضامنية إلى اختيار الاستراتيجية التوجيهية لدواع سياقية سعى من خلالها إلى توجيه المخاطب إلى القيام بفعل ما في المستقبل أو تغيير معتقداته أو سلوكه عبر الإفصاح عن وجه المنفعة في الخطاب.

اعتمد المتكلم في هذه الاستراتيجية على شكل اللّغة المباشر، وفي بعض الأحيان يعبر عن قصده بطريقة غير مباشرة ويصطلح على هذه الطريقة بالاستراتيجية التّلميحية التي يعدّ مبدأ التّأدب من أهم مصوغاتها، وقد استعملته الذات المتلفظة بالخطاب (الرسول ﷺ) في سياق الاستئذان.

ويعد الاستئذان من الأخلاق السامية التي حث عليها ديننا الحنيف، ومن بين الأخلاق التي أكد عليها ديننا نجد التّضامن مع الآخر، ومساندته، وقد تجلت هذه الصفات في خطابات الرسول (ﷺ) مع أهله وأصحابه، الأمر الذي دفع بالخطيب " عبد الحميد مهدي" إلى إبداء انطباعه إزاء أخلاق الرسول (ﷺ)، فتضمنت الخطبة بعض الصفات التي انقسمت بدورها إلى صفات موضوعية وأخرى ذاتية، وقد ركز على الصفات الذاتية التي انقسمت بدورها إلى صفات غير أخلاقية وأخلاقية.

وقعت كل الصفات على محور حسن؛ وهذا أمر بديهي فالرسول (ﷺ) أسوتنا الحسنة وقدوتنا.

إنّ الرسول (ﷺ) هو رمز الأخلاق والمرشد إليها، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أخلاقه في ثاني سورة نزلت عليه - سورة القلم- قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وهي السورة الثانية التي نزلت بعد سورة العلق التي بدأت بقوله تعالى "اقرأ"؛ فكان الحكمة من القراءة هو طلب العلم لأجل التّخلق بالأخلاق الحسنة؛ لأنّ العلم يميز بين الحق والباطل وبين الصالح والفاسد؛ ولذلك يعد أساس بناء الخطاب الدّيني.

الفصل الثاني:

الحجاج ودور العلم في بناء

الخطاب الديني

مدخل:

يعدّ العلم أساس بناء الخطاب الديني الذي يهدف إلى ترسيخ القيم الأخلاقية والتي لا يمكن للإنسان السوي أن يتخلى عنها؛ فالأخلاق العالية والمبادئ السامية هي أساس الدين؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن يتشبّث بها، وأن يجتهد في طلب العلم النافع الذي يعينه على التمييز بين الحق والباطل، والنافع والضار، فلا أحد يشك في أنّ العلم هو منبع الأخلاق وهو مرشدها وهو موجه الناس إليها، وهو الوسيلة الوحيدة لبناء خير فرد وخير مجتمع وخير حضارة.

بناء على ذلك اخترت مجموعة من الخطب التي تدور حول موضوع "العلم وأهميته" للنظر في بنيتها وعلاقتها الحجاجية، ومختلف الروابط المعتمدة فيها باحثة عن الخيط الدقيق الذي يربط أجزاءها، ويصل بين مختلف موضوعاتها، مستثمرة جهود ثلثة من الدارسين الذين اهتموا بدراسة الحجاج، بوصفه آلية للإقناع.

والإقناع هو "عملية إيصال الأفكار والاتجاهات والقيم، والمعلومات إما إحياء أو تصريحا عبر مراحل معينة في ظل حضور شروط موضوعية وذاتية مساعدة، وعن طريق عملية الاتصال ويرتبط بمفهوم الإقناع مفهوم آخر وهو التأثير، ويكاد هذان المفهومان يكونان متلازمين؛ فظاهر لفظ التأثير يشير إلى عملية تبدأ من المصدر لتصل إلى المستقبل مع توفر إرادة لذلك؛ في حين أن مصطلح التأثير يشير إلى الحالة التي يكون عليها الفرد بعد التعرض لعملية الإقناع واستقبال الرسائل وتفاعلها معه؛ فهو نتيجة للتأثير"¹، وهي الغاية التي يسعى إليها المخاطب من خلال استعماله للأساليب الحجاجية.

¹ - عامر مصباح، الإقناع الاجتماعي، خلفيته النظرية وآلياته العملية، ط2، الجزائر: 2006، ديوان المطبوعات الجامعية، ص17، 18.

المبحث الأول: الأساليب الحجاجية وعوامل قيام العالم الإسلامي:

يقصد بالأساليب الحجاجية: " جملة العناصر اللغوية والبلاغية والفلسفية التي تتمتع بتعبئتها حجاجيا؛ لخدمة مقاصد إقناعية، وقد اعتمد الخطيب "عبد الحميد مهدي" على بعض منها للتأكيد على فضل العلم وشرف طالبه، وضرورته في بناء الحضارات، وتحقيق المجد؛ وقيام العالم الإسلامي، ولهذا سعى إلى توجيه المخاطبين، واستثمر كل ما تمدنا به اللغة من آليات تعين المخاطب على الوصول إلى النتائج التي يروم تحقيقها.

1. من الفعل اللغوي التوجيهي إلى تحقيق النتيجة:

تعد اللغة وسيلة للتأثير على الآخرين والسيطرة عليهم، وهي بذلك تعتبر عماد الحجاج الذي يعرفه "عبد الله صولة" بأنه "العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تفسير نظام المعتقدات والتصورات لدى المخاطب بواسطة الوسائل اللغوية"¹؛ وهي أهم آلية لتجسيد الحجاج وهذا ما أكده "محمد الوالي" بقوله: "إن محاولة التحكم في الإنسان بواسطة اللغة هو ما أسميه حجاجا، وحين ينصب هذا التأثير اللغوي على الطبيعة والأشياء فإننا نخصه بتسمية أخرى، قد تكون التقنية أو العلم كما أن التأثير في الإنسان بأداة أخرى غير اللغة ليس حجاجا"²؛ وما الفعل الحجاجي إلا نوع من الأفعال الإنجازية التي يحققها الفعل التلفظي في بعده الغرضي، "وغني عن القول أن تحليلا سليما لأفعال الكلام هو الغرض الرئيس للتداولية؛ لأنه لا يمكن أن يتم بغير فهم مسبق لمعنى الفعل أو التصرف"³؛ لذلك تعتبر الأفعال الكلامية من أهم الوسائل التداولية التي تستعملها اللغة للتأثير في المتلقي؛ فينجز عملا ويقوم به، وهنا تبرز علاقة الحجاج بالأفعال الكلامية.

¹ - عبد الله صولة، "الحجاج أطره ومنطقاته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكا"، مقال منشور ضمن كتاب، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تأليف: مجموعة من الباحثين إشراف حمادي صمود، د. ط، تونس: د. ت، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، ص 350.

² - الولي محمد، "مدخل إلى الحجاج: أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان"، مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد 2، 2011، ص 12.

³ - فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، دط. المغرب: 2000، ص 227.

ولأهمية الأفعال الكلامية استهل الخطيب "عبد الحميد مهدي" خطابه بالفعل الكلامي "الحمد" في قوله: "إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ تَعَالَى وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ"¹، ويُعرّف الجرجاني الفعل الكلامي "الحمد" بقوله "هو" الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها"²؛ فنعم الله علينا كثيرة، وإن نعدّها لا نحصيها، ومن بينها تمييزه للإنسان عن "جميع المخلوقات بقابليته للتّعلم، وإنشاء مجالات ثقافية ونظريات معرفية"³، هذه الحقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها؛ لأنّها تشكّل موضوع اتّفاق بين النّاس، ولهذا تعتمد الخطابات الحجاجية عليها؛ فلا يمكن أن يكون هناك حجاج دون اتّفاق سابق بين أطراف الخطاب.

والواقع أنّ ما يقتضي الخطاب الحجاجي الاتّفاق عليه "إنّما يتمثّل في جملة من الوقائع والحقائق والافتراضات والقيم، والمواضع تشكّل مجتمعة جملة من المقدمات الحجاجية الضرورية في كلّ خطاب"⁴، على هذا النّحو تأتي هذه الحقيقة وأمثالها كثيرة؛ لتكشف عن قدرة الإنسان على اكتساب المعرفة واكتشافها، وتبرهن على أنّه أفضل الكائنات؛ وسرّ التّفضيل هو قابليته للتّعلم، وهذا ما أراد الخطيب تأكيده للمخاطبين، ويندرج أسلوب التّوكيد عموماً ضمن "سياق استدلالي يمكن اعتباره حجة تقود إلى نتيجة يريد المتكلّم من المخاطب التّسليم بها"⁵؛ لأنّ التّأكيد يبرهن على صحة النتيجة المدّعة بحجة أو أكثر.

وفي إطار الحديث عن الحجة التي تؤدي إلى "نتيجة ما" رأيت أنّه من الضروري العودة إلى جهود أوزوالد ديكرو (O.Ducrot) وأنسكومبر (Anscombe) اللذين أسسا النظرية اللسانية التي اهتمت بالآليات اللغوية التي يجب أن يمتلكها المتكلّم، من أجل إنتاج خطابه وتوجيهه وجهة ما، بقصد تحقيق بعض مراميه الحجاجية، ثمّ إنّها تنطلق من الاعتقاد

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية، والوطنية والدولية، ط1، تيزي- وزو: 2008، دار الأمل، ص 291.

² - علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، د.ط، بيروت: 1995، دار الكتب العلمية، ص 93.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية، والوطنية والدولية، ص 291.

⁴ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص 182.

⁵ - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 237.

السائد الذي مفاده أننا نتكلم عامة بقصد التأثير؛ وهذه النظرية تريد أن تبرهن على الوظيفة الحجاجية للغة؛ لأن اللغة في معناها العام قيد يضبط نسق ترتيب الأقوال في النصوص وترابطها، هذا الترابط لا يستند إلى قواعد الاستدلال المنطقي، وإنما هو ترابط حجاجي؛ لأنه مسجل في أبنية اللغة بصفة علاقات توجه القول وجهة دون أخرى، وتفرض ربطه بقول دون آخر، فموضوع الحجاج في اللغة هو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تمثل مكوناً أساسياً لا ينفصل عن معناه، يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجه قوله وجهة حجاجية ما¹؛ أي إلى وجهة حجاجية دون أخرى وتحمل الأذهان على التسليم وهذا هو الهدف من الحجاج.

وقد عرف "ديكرو" (O.Ducrot) و"أنسكومبر" (Anscombe) الحجاج على النحو التالي: "يقوم متكلم ما بفعل الحجاج عندما يقول قولاً (ق1) أو (مجموعة أقوال) يؤدي إلى التسليم بقول آخر (ق2) أو (مجموعة أقوال أخرى)؛ فالقول (ق1) هو الحجة التي يصرح بها المتكلم، أما (ق2) فهي التي يستنتجها المخاطب سواء كانت النتيجة مصرحاً بها أم مستنتجة من خلال القول"²؛ أي أن العملية الحجاجية تنطلق من حجة ما تصل إلى نتيجة ما هذه الأخيرة يمكن أن تكون صريحة أو مضمرة.

ولو تبينت مصطلحات "تولمين" (Toulmin) و"بيرلمان" (Perelman) لقت مثلما قال الباحث "عز الدين الناجح" "إن ق1" يوافق قضايا الانطلاق Les propositions de départ؛ أو المعطى Le donné؛ في حين أن "ق2" يوافق النتيجة عامة وهي عادة ما تكون ضمنية implicite بل إن ضمنيته تعدّ معياراً للحكم على مدى نجاعة الحجاج وطرافته؛ في حين أن "ق1" لا تكون إلا صريحة explicite"³، والمهم من كل ذلك أن الحجاج هو "ذلك الانتقال

¹ - شكري المبخوت، "نظرية الحجاج في اللغة" ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص352.

² - Jean Claude Anscombe et Oswal Ducrot, l'argumentation dans la langue, Bruxelles :1983 Pierre Mardaga, éditeur,p8.

³ - عز الدين الناجح، تداولية الضمني والحجاج بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب بحوث ومحولات، ط1، تونس: 2015، مركز النشر الجامعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ص26.

من "ق1" إلى "ق2" أي من المعطى إلى النتيجة على حدّ عبارة تولمين (Toulmin) أو من المقدمات إلى الحقيقة باصطلاح بيرلمان (Perelman)، وهذا الانتقال من "ق1" إلى "ق2" هو بؤرة التعريف التقني، وهو ما عبّر عنه الباحثان "ديكرو" (Ducrot) و"أنسكومبر" (Anscombe)، بفعل التّوجيه "L'orientation"، فما تحدّثا عن الحجاج إلّا وكان حدث التّوجيه من "ق1" إلى "ق2" هو آلية التّعرّف¹، ويجدر بي في هذا المقام الإشارة إلى أنّ التّوجيه عند الباحثين في معناه "هو ذاك الانزياح L'écart أو الانتقال Le passage أو الحركة من وضع أول معلوم إلى وضع ثان قد يكون معلوماً أي صريحاً وغير معلوم (أي ضمناً) وهو النتيجة التي يروم الباحث إذعان المتقبّل لها"²، وبذلك يعتبر قول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "وإنّ الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم جعله يتفوق حتّى على الملائكة الكرام البررة بالعلم وبالعلم وحده"³؛ حجة لنتيجة؛ صريحة "فاستحق الخلافة في الأرض عن جدارة واستحقاق"⁴؛ والتي بنيت على حجة الاستحقاق "ومدارها على تقويم حدث معيّن أو موقف محدّد تقويماً عاماً؛ فيعتبره حصيلة ظروف معيّنّة ونتاج أمور متضافرة أدّت إليه بصورة منتظرة وأفرزته بشكل يوافق طبيعتها (...). وعلى هذا النحو تبدو هذه الحجة طريقة في استدعاء القيم ملزمة جدّاً"⁵؛ فأدم استحق الخلافة لأنّ الله سبحانه وتعالى علّمه ما لم يعلم الملائكة.

ولأن غاية الخطاب الحجاجي تتمثّل "في فرض نمط من النتائج على المخاطب باعتبارها الوجهة الوحيدة التي يمكن له أن يسير فيها"⁶؛ حرص الخطيب "عبد الحميد مهدي" على توجيه المخاطبين وجهة واحدة دون سواها؛ فلم يبق لهم إمكانيّة الاعتقاد في أنّ هناك

¹ - عز الدين الناجح، تداولية الضمني والحجاج بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب بحوث ومحولات ، ص27.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدنيّة والوطنية والدولية، ص291.

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه ص282.

⁶ - Oswald Ducrot, Les échelles argumentatives, Paris:1989, éditions de minuit, P60.

شيئاً يمكن أن يجعل الإنسان يتفوق على باقي الكائنات، سوى العلم، وبالعلم وحده استحق سيدنا آدم (عليه السلام) الخلافة.

وليدعم الخطيب هذه النتيجة ويقوي طاقته الحجاجية استخدم أداة التوكيد (إنّ) بالإضافة إلى تكرار لفظة (العلم) في قوله "إنّ الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم جعله يتفوق حتى على الملائكة الكرام البررة بالعلم وبالعلم ووحده"¹؛ لأنه يريد تأكيد الحجج التي قدمها وتثبيتها في ذهن السامع، فأتى بالتوكيد "للحاجة إلى التّحرز عن ذكر ما لا فائدة له؛ فإن كان المخاطب خالي الذهن ألقى إليه الكلام خالياً من التأكيد، وإن كان متردداً فيه حسن تقويته بمؤكد، وإذا كان منكراً وجب تأكيده"²، ويكون الخطيب "عبد الحميد مهدي" باستعماله لأداة التوكيد (إنّ) بالإضافة إلى تكرار لفظة "العلم" قد مكّن قوله في نفس المستمعين وقرره على نحو يدفع الشك؛ وإذا تكررت الكلمات؛ فإن معانيها تتكرّر وفي ذلك استهداف مسترسل لأفق انتظار المتلقين، وبذلك يكون التكرار في الخطبة دليلاً على أن المتكلم يؤكد على أهمية الشيء المكرر؛ ويلج عليه ولا يخفي "أنّ الإلحاح في بث الرسالة يجعلها لا تمحى من الذهن بسهولة في حين أن المعلومة التي تناقضها، وليس لها سند من المتابعة والإلحاح قابلة للنسيان بسهولة، ونسيانها هذا هو الذي يجعل المعلومة الأخرى ذات حظ أعظم في الديمومة والاستمرار"³؛ إذا التكرار آلية حجاجية تعكس التّشديد على أغراض الخطاب، ونظراً لأهميته؛ فقد أكثر الخطيب "عبد الحميد مهدي" من توظيفه في خطبته.

2. أنواع التكرار وأبعاده الحجاجية:

يعدّ التكرار من الآليات المعتمدة في تحقيق البعد الحجاجي للكلام؛ حيث يلجأ المتكلم إليه لتأكيد وتثبيت وتوضيح أطروحته؛ والتكرار المقصود هنا "ليس ذلك المولد للرتابة والملل

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 291.

² - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، بيروت: 1972. المكتبة العصرية، ص 310.

³ - عبد اللطيف عادل، الحجاج في الخطاب مقاربات تطبيقية، ط 1، مراكش: 2017، مؤسسة آفاق للنشر والتوزيع ص 43.

وإنما الذي له وظائف خطابية عدّة، عبّر عنها بالإفهام والإفصاح والكشف وتوكيد الكلام والتشديد من أمره وإثباته¹؛ أي أنّه يعمل على جلب الانتباه، وإثارة اهتمام السّامع؛ لضمان نجاح الرّسالة.

ويميّز علماء اللّسانيات النّصية بين أنواع التّكرار منها: التّكرار التّام، والتّكرار الجزئي والمتضمن:²

1.2. التّكرار التّام:

يقصد به "تكرار الكلمة كما هي دون تغيير"³؛ فهو التّكرار الذي يتكرّر فيه اللفظ وبنفس المعنى في جملة أو أكثر، وتتباين وظيفته بحسب المقام؛ وبحسب قصد المتكلّم؛ فإذا قصده المتكلّم فإنّه يؤدي وظيفة حجاجية؛ أما إن لم يكن مقصودا؛ فإنّ هذا التّكرار لا يؤدي وظيفته. وأهتم في بحثي بالتّكرار الذي تكون الغاية منه حجاجيّة؛ لأنّ ذلك التّكرار يكون سبيلا ومنفذا لاستمالة المتلقي والتأثير فيه، وقد ظهر هذا النّوع في مدونتي بكثرة ومن أمثلته لفظة (العلم)؛ التي تكررت ثماني مرات على مستوى فقرة واحدة، في قوله: "وإنّ الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم جعله يتفوّق حتّى على الملائكة الكرام البررة بالعلم، وبالعلم وحده؛ فاستحقّ الخلافة في الأرض عن جدارة واستحقاق (...) وإنّ عقل الإنسان وقلبه يتغذيان بالعلم (..) وإنّ الرسول (ﷺ) يشبه العلم بالغيث، فإذا كان الماء يحيي الأرض الميّتة؛ فإنّ العلم يحيي القلوب الميّتة (...).؛ فمن النّاس من ينفع نفسه بالعلم، وينفع به غيره، ومنهم من ينفع غيره بالعلم، ولا ينفع به نفسه، ومنهم من لا ينفع نفسه بالعلم، ولا ينفع به غيره"⁴

¹ - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج9، ط2، مصر: 1973، دار النهضة ص17.

² - صلاح حسين، مدخل إلى علم الدلالة، دط. القاهرة: 2008، دار الكتب الحديثة، ص236.

³ - جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربيّة واللّسانيات النّصية، د.ط. مصر: 1998، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص80.

⁴ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص291.

وتكرّرت ثلاث مرات على مستوى الفقرة التالية في قوله: " فكونوا من النوع الأول الذي ينتفع بالعلم، وينفع بع غيره (...)، ويبين الرسول (ﷺ) أنّ العلم النافع يلحق صاحبه بأهل الخير والأجر والصلاح، وأنّ الجهل أو العلم غير النافع يلحق صاحبه باهل الرداءة والسوء والإثم"¹.

وفي الفقرة التالية لهذه الفقرة تكررت لفظة (العلم) سبع مرات في قوله: " فالعلم النافع يصلح نية الإنسان (...). فالعلم نور (...). وإنّ الرسول (ﷺ) يرشدنا (...). وبذل الطاقة في طلب العلم (...).؛ فيقول لأبي ذر الغفاري (رضي الله عنه): يا أبا ذر لأن تغدو (...). ولأن تغدو فتتعلم بابا من العلم (...). خير لك من أن تصلي ألف ركعة (...). والمعلمون الصالحون كالأنمة تماما؛ لأنهم يعلمون الخير والصلاح للناشئة، ويزودوهم بالعلم والمعرفة، والعلم النافع هو الذي يعطي للإنسان القدرة على التمييز (...). كما أنّ العلم هو الذي يعطي الإنسان القدرة على تصنيف المشاكل"².

أمّا في الخطبة الموسومة ب: (الصبر في طلب العلم جهاد ومراقبة الأبناء مسؤولية الأولياء) فقد تكرّرت في الفقرة الأولى لفظة (العلم) خمس مرات في قوله: " الحمد لله الذي أنعم علينا نعما كثيرة (...). ومن بين هذه النعم العظيمة القدرة على العلم... وأشهد أنّ سيدنا محمد رسول الله يبين أهمية العلم ودوره فيقول: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما الاثنتين فعليه بالعلم"³.

وفي الفقرة الرابعة من نفس الخطبة تكرّرت لفظة العلم ثلاث مرات في قوله: " القسم الثاني فرض كفاية بمعنى أنّ هذا العلم إذا قام به بعضهم كفوا غيرهم؛ فهو العلم الذي يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه (...). أمّا إذا أهمل الجميع هذا العلم حتّى يصيبهم الضعف والتخلف في هذه الميادين الأساسية في الحياة"⁴.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 291، 292.

² - المرجع نفسه، ص 293.

³ - المرجع نفسه، ص 295.

⁴ - المرجع نفسه، ص 295، 296.

وفي الخطبة الموسومة ب: (ذكرى يوم العلم 16 أبريل من كل سنة) تكررت لفظة (العلم) عشر مرات في الفقرة الأولى في قوله: "أيها المسلمون الأفاضل يقول الله تبارك وتعالى: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)، ويقول الرسول (ﷺ) أطلبوا العلم ولو في الصين؛ فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب. وقال أيضا: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية" ومن أجل هذه المكانة التي تميز بها العلم في الإسلام يجب على طالبه أن يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى والدار الآخرة (...). ويقول في حديث آخر: من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله جهنم)، وهذا أمر في غاية الخطورة (...). ثم العمل بهذا العلم؛... ويقول الرسول (ﷺ): إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به نعمه فعرّفها. قال فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال كذبت.... فسحب على وجهه حتى ألقى في النار"¹.

وفي الفقرة التالية تكررت لفظة (العلم) ثلاث مرات في قوله: "ونوع آخر له حافظة قوية وذاكرة متينة يجمع العلم ويبلغه لغيره (...).، واعلموا أن طلب العلم فريضة (...). وإن لنساننا وبناتنا القدوة الحسنة في نساء الأنصار (رضي الله عنهن) في طلب العلم"². وتكررت لفظة العلم في الخطبة المعنونة ب: (العلم في الإسلام فريضة وفضيلة) ثلاث مرات في الفقرة الثالثة في قول الخطيب: "إن العلم في الإسلام له من القداسة (...). وكما كرم الإسلام العلم فقد كرم أدواته (...). تقديمًا لنور العلم على غيره من الأنوار"³، وفي الفقرة الرابعة من نفس الخطبة تكررت لفظة العلم أربع مرات في قوله: "أليس الإسلام أول من دعا إلى التفتح في طلب العلم؟ (...). ولنا في سيدنا موسى الأسوة (...). واجتياز المسافات

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 316.

² - المرجع نفسه، ص 316، 317.

³ - المرجع نفسه، ص 319.

البعيدة طلبا للعلم... وقد جاء في الأثر: أطلبوا العلم ولو في الصين، والإسلام أول منهج أمر أتباعه أن يجعلوا العلم ضالتهم المنشودة"¹.

كما تكررت لفظة (العلم) ثلاث مرات في قوله: "تمر بنا هذه الأيام ذكرى يوم العلم التي تصادف ذكرى وفاة العالم التقي النقي الخطيب عبد الحميد بن باديس (...)", ولقد كان يعلم يقينا أن العلم نور (...). وإحياء الشعب الجزائري بنور العلم والإيمان"².

كما تكررت لفظة (العلم) مرتين في بداية الفقرة الأولى من الخطبة الثانية في قوله: "الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل العلم نورا وفضيلة وجعل الجهل ظلاما ورذيلة، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله يشبه العلم بالغيث"³.

يلحظ المتأمل في الأمثلة السابقة بأن الخطيب "عبد الحميد مهدي" قد كرر لفظة "العلم" واستحضر الشواهد التي تكررت فيها هذه اللفظة ليقنع المخاطب بأهمية العلم، ويرسخ في ذهنه فكرة مفادها أن الإنسان بالعلم وحده استطاع أن يتفوق على جميع الكائنات؛ لأن العلم ينمي معارف الفرد، ويمدّه بالآليات المختلفة التي تعينه في التوصل إلى حقائق الأشياء، ويكسب الفرد القدرة على الفهم والإدراك والاستيعاب والتحليل والنظر إلى الموضوع وتناوله من أكثر من زاوية ويرفع مكانة الفرد في المجتمع ويميزه عن الجاهل؛ فلا أحد ينكر أن الإنسان المتعلم يحظى بالاحترام والتقدير والمهابة من قبل الآخرين، والعلم يعين الإنسان في جميع الميادين ويسهل على الفرد الحياة، ويطوع كل شيء لخدمته من الطبيعة والتكنولوجيا؛ فيصبح كل شيء في متناول يديه.

كما أن العلم يصنع المجتمعات المتطورة والمتحضرة والمكتفية بذاتها المعتمدة على نفسها في إعداد أبنائها للحصول على جيل متعلم واع مثقف معاصر يستطيع التقدم بالمجتمع في جميع المجالات؛ فالعلم نبراس الحضارة، ومفتاح التقدم وهو الأداة الوحيدة لمواجهة العراقيل والصعوبات التي تقف في وجه الأفراد، وتواجه المجتمع على الصعيد

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 320.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 321.

³ - المرجع نفسه، ص 322.

الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وتتسبب في تفاقم أزمته؛ ولذلك حث الخطيب "عبد الحميد مهدي" المسلمين على طلب العلم النافع؛ لأنه العامل الوحيد الذي يقلل من تفاشي ظاهرة الانحلال الأخلاقي ولأنه العامل الوحيد الذي يمنع انتشار الآفات الاجتماعية التي تقف دون تقدّم المجتمع. كما أنّ العلم يمكن الأفراد من التمييز بين الأفكار المضللة والأفكار الصائبة والهادفة لذلك كرّر الخطيب "عبد الحميد مهدي" لفظة "العلم"؛ واستحضر الشواهد التي تضمنت لفظة "العلم" لأنها من الألفاظ المؤثرة التي لا بدّ من تكرارها بالصيغة نفسها حتى تؤدي غرضها التأثيري؛ فالتكرار هنا لم يأت عبثاً، وإنما أوحى إلى رغبة المتكلم في تبليغ مقاصده والمتمثلة في التأكيد على مكانة العلم، وأهميته بالنسبة للإنسان في الدنيا والآخرة.

ويكون التكرار بذلك من الوسائل الكفيلة بإيقاظ وعي المتلقي، حتى يدرك أهمية "العلم" فلا يضيع وقته في أشياء لا تنفعه؛ فيخصص معظم وقته لطلب العلم؛ وبذلك يكون التكرار حجة معتمدة قدّمها المتكلم لفائدة أطروحته؛ لأنّ فيه نوعاً من جلب الانتباه، وإثارة اهتمام السامع لضمان نجاح الرسالة.

2.2. التكرار الجزئي:

هو التكرار الذي يقوم على الاستعمال المختلف للجذر اللساني للمادة المعجمية نفسها، وبعدّ هذا النوع بالذات من أهمّ الآليات اللسانية التي تضمن نجاح العملية الحجاجية¹، أي هو التكرار الذي يتطلب استخدام العناصر الأساسية للكلمة مع تغيير في صيغتها وقد ورد هذا النوع من التكرير في مدونتي في الألفاظ التالية:

(أعلم، تعلمون، علم، علم، علمتنا، العليم، أعلم، أعلم) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ مُسَبِّحُونَ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

¹ - محمد بوعمامة، وسائل الإقناع في خطبة طارق بن زياد دراسة تحليلية في ضوء نظرية الحجاج، مذكرة ماجستير، باتنة: 2011، ص65.

الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّبِعُكُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ
غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ سورة البقرة 30-33

"(العلم - علم - وعلم) في نفس الفقرة في قوله (ﷺ): "مثل ما بعثني الله به من الهدى
والعلم.... فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم...."
(العلم، العلماء) في نفس الجملة في قوله: "فكونوا من النوع الأول الذي ينتفع
بالعلم وينفع به غيره فذلك من صفة العلماء"¹.

(تتعلم، العلم، المعلمون) في قول الرسول (ﷺ) لأبي ذر الغفاري (رضي الله عنه): "يا أبا ذر لأن
تغدو (...) ولأن تغدو فتتعلم بابا من العلم (...) خير لك من أن تصلي ألف ركعة (...)
والمعلمون الصالحون كالأئمة تماما؛ لأنهم يعلمون الخير والصلاح للناشئة"².
(العلم، العلمية، المعلم، تعليم) في نفس الفقرة في قوله: "فطالب العلم والباحث عن
الحقيقة العلمية... وكذلك الأستاذ والمشرف والمعلم الذين يبذلون جهودهم في تنوير العقل
وتعليم الخير

(يتعلمه، يعلمه) في قوله (ﷺ): "من جاء مسجدي هذا لم يأت به إلا لخير يتعلمه
أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهدين في سبيل الله
(علماء، العلم، العالم، العلماء، العلم) في قوله (ﷺ): "من سلك طريقا يلتمس به علما
سهل الله له به طريقا من طرق الجنة؛ فإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم
وإن طالب العلم....، وإن فضل العالم على العابد... وإن العلماء هو ورثة الأنبياء، وإن
الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر"³.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 292.

² - المرجع نفسه، ص 292.

³ - المرجع نفسه، ص 296.

(العلم، العلمية، علمي) في قوله: " بل ربوهم على حب العلم واحترام أهله، وأن تكون شهاداتهم العلمية شهادات حقيقية لا شهادات مغشوشة؛ أي نتيجة بناء علمي صحيح"¹.

(تعلم، علما، يتعلمه) في قوله (ﷺ): " من تعلم علما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة.

(تعلم، العلم، العلماء) في قوله (ﷺ): من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليها أدخله الله جهنم.

(تعلم، العلم، علمه، عالم) في قوله (ﷺ): (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل تعلم العلم وعلمه.....ولكن تعلمت ليقال عالم"².

(العلماء، علماء، العلوم) في قوله: " بعض الشباب يعتقدون أن كلمة العلماء تطلق على علماء الشريعة فقط.....جعل كثيرا من شباب أمتنا يعزفون عن الاجتهاد والبحث في العلوم الكونية المختلفة.

(العلوم، العلماء، يعلمنا، علمنا، علما، العلماء) في قوله: " أفلا يدل ذلك على أهمية هذه العلوم ومكانة هؤلاء العلماء عند الله سبحانه وتعالى...نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علما، وأن يجعلنا وذريتنا العلماء"³.

(العلم، علمه، العلوم، التعلم، التعليم، معلما) في قوله: " الحمد لله الذي خلق الإنسان وكرمه بالعقل....ليقيم حياته على العلم والمعرفة....خلق الإنسان علمه البيان....ليهدي بها إلى ما ينفعه من العلوم وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، دعانا إلى التعلم والتعليم، وجعل التعليم من غايات رسالته فقال: إنما بعثت معلما"⁴.

(تعلمني، علمت) في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلِيمٌ أَن تُعَلِّمَنِي

مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦١﴾

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية ، ص 299.

² - المرجع نفسه ، ص 317.

³ - المرجع نفسه، ص 318.

⁴ - المرجع نفسه، ص 319.

(علماء، العلوم، علوم، أعلام) في قوله: "ظهر منهم علماء أجلاء شملت معارفهم كل العلوم النقلية والعقلية.... وغيرهم من أعلام الفكر الإسلامي الذين كانت لهم الأيدي البيضاء.

(علمنا، علمتنا، علما) في قوله: "اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما.

(يتعلمون، العلوم) في قوله: "وإن الذين يتعلمون العلوم المختلفة، ويبحثون بجد وذكاء"¹.

(العلم، العلماء) في قوله: "إن أبناءنا فلذات أكبدا.... وحب العلم والعلماء"².

يتضح من خلال هذه الأمثلة بأنّ المنكلم قد استعمل جذرا لسانيا واحدا؛ أي استخدم العناصر الأساسية للكلمة (ع، ل، م)، وأحدث تغييرا في الصيغة، من خلال تكرار المفردات على مستوى العناصر الأساسية، وبقي المعنى العام نفسه، وإن اختلف هذا المعنى بين العنصرين في بعض الجزئيات والميزات، والدلالة عند الاستعمال داخل الجملة أو النص كدلالة الفعل أو الاسم أو المصدر أو المفعول المطلق، وقد ضمن هذا النوع من التكرار اتساق النص إلى جانب الوظيفة الإيقاعية المؤثرة في السامع.

3.2. تكرار المضمون:

يقوم تكرار المضمون "على إعادة عناصر لغوية مترادفة أو مشتركة في جزء من المعنى، أي يبني على إعادة الحجّة أو الدليل لا بلفظه بل بمعناه؛ فالمنكلم حينئذ يوهم بتقديم الخطاب الحجاجي، وتنويع الحجج والبراهين المقدّمة لصالح أطروحة معيّنة، وقد تمّ تصنيف تكرار المضمون إلى الأنواع الثلاثة التالية:

- "تكرار مفردتين متواليتين أو أكثر في جملة أو داخل فقرة.

- تكرار المضمون المبني على مفردتين؛

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 297.

² - المرجع نفسه، ص 298.

- تكرار المضمون على مستوى الجمل والعبارات"¹.

وظف الخطيب "عبد الحميد مهدي" هذا النوع من التكرار توظيفا مكثفا ومتنوعا، ونبين ذلك من خلال الأمثلة التالية:

(المهارات = الفنيات = الكفاءات) في قوله: "فيعود أبناؤنا وبناتنا إلى الجهاد والاجتهاد في طلب العلم واكتساب المهارات والفنيات، والكفاءات المختلفة"².

(الهدى، العلم) في قوله (ﷺ): (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم).

(الخير = الأجر = الصلاح) و(الرداءة = السوء = الإثم)، و(الجهل = العلم غير

النافع) في قول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "ويبين الرسول الأمين (ﷺ) أن العلم النافع يلحق صاحبه بأهل الخير والأجر والصلاح، وأن الجهل أو العلم غير النافع يلحق صاحبه بأهل الرداءة والسوء والإثم"³.

(الخير = العمل الصالح) في قوله: "فالعلم النافع يصلح نية الإنسان، ويبصره

بمجالات الخير، والعمل الصالح.

(صرف الجهد = بذل الطاقة) في قوله: "وإنّ الرسول (ﷺ) يرشدنا إلى إنفاق الوقت

وصرف الجهد، وبذل الطاقة في طلب العلم.

(الفقر = الحرمان = الاحتياج) في قوله: توجد عائلات كثيرة في مجتمعنا تعاني من

الفقر والحرمان والاحتياج.

(البهجة = السرور): في قوله: ومن حقهم علينا أيضا أن نوفر لهم أجواء البهجة

والسرور"⁴.

¹ - هشام فروم، تجليات الحجاج في الخطاب النبوي دراسة في وسائل الإقناع الأربعون النووية أنموذجا، مذكرة ماجستير، بانتة: 2009. ص 169.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 291.

³ - المرجع نفسه، ص 292.

⁴ - المرجع نفسه، ص 293.

(يتلون = يتدارسون): في قوله (ﷺ): " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة.

(التعاون = التضامن = التكافل) في قوله: " انظروا كيف ربط الرسول (ﷺ) بين التعاون والتضامن والتكافل"¹.

(تعدّ = تحصى) في قوله: " الحمد لله الذي أنعم نعماً كثيرة لا تعد ولا تحصى

(أدى الأمانة = بلغ الرسالة) في قوله: " فاللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم الذي أدى الأمانة وبلغ الرسالة.

(يأمرنا = يفرض علينا) في قوله: " فاقراً فعل أمر؛ فالله سبحانه وتعالى يأمرنا ويفرض علينا أن نتعلم الكتابة والقراءة (أثيب = جوزي = أجر)، (فرط فيه = تركه = لم ينشغل به) في قوله: " قسم العلماء فريضة العلم إلى قسمين؛..... فإذا قام به الفرد المسلم، ذكراً كان أو أنثى، أثيب على فعله، وجوزي على جهده، وأجر على عمله أما إذا فرط فيه وتركه ولم ينشغل به عاقبه الله على تقصيره في الواجب الذي يحي قلبه.

(يبنى = يشكل) في قوله: " ولذلك نطالب وندعو أن تبقى مادة التربية الإسلامية.... حتى يتعلم أبناؤنا وبناتنا الضروري من الدين الذي يبني تصورهم ويشكل ثقافتهم.

(الضعف = التخلف) في قوله: " أما إذا أهمل الجميع هذا العلم حتى يصيبهم الضعف.

(النافعة = الفاعلة) في قوله: " ويبحثون بجد وذكاء وتقوى إلى آخر لحظة من حياتهم لإيجاد الحلول النافعة والفاعلة التي تبين قيمة الإسلام.

(الأجر = الثواب) في قوله: " ويؤكد الرسول (ﷺ) هذا الأجر وهذا الثواب لطالب العلم"².

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 294.

² - المرجع نفسه، ص 297.

- (الخير = الصلاح) في قوله: "إنّ أبناءنا فلذات أكبادنا... نحب لهم الخير والصلاح.
- (الكتب = الأدوات المدرسية) في قوله: "وأن تعينوهم على الدراسة بشراء كل الكتب والأدوات المدرسية.
- (الإهمال = اللامبالاة) في قوله: "وإياكم أن تشغلوا في طلب حطام الدنيا وتنسوا أبناءكم وبناتكم؛ فيشعرون بهذا الإهمال، وهذه اللامبالاة"¹.
- (المذاكرة = المراجعة) في قوله: "وأن تعينوهم على المذاكرة والمراجعة في المنزل.
- (الرسوب = إعادة السنة) في قوله: "ولا تتركوهم أبدا بدون متابعة فتفاجأوا في آخر السنة بالرسوب أو إعادة السنة.
- (السلوكات الحضارية الراقية = الأخلاق الفاضلة = الآداب الحسنة) في قوله: "ربوا أولادكم على السلوكات الحضارية الراقية، وعلى الأخلاق الفاضلة، والآداب الحسنة"².
- (حافضة قوية = ذاكرة متينة) في قوله: "ونوع آخر له حافضة قوية وذاكرة متينة يجمع العلم ويبلغه لغيره.
- (المتعلّمة = المثقفة) في قوله: "المرأة المتعلّمة والمثقفة تؤثر بسلوكاتها الحميدة"³
- (خطأ = تصور غير سليم) في قوله: وهناك مسألة أخرى لا بد من الوقوف عندها وهي أن بعض الشباب يعتقدون أن كلمة العلماء تطلق على علماء الشريعة، وهذا خطأ كبير وتصور غير سليم (البحث = التفكير = التدبر)، (العلم = المعرفة) في قوله: "الحمد لله الذي خلق الإنسان وكرمه بالعقل، وحثه على البحث والتفكير والتدبر والنظر ليقيم حياته على العلم والمعرفة
- (المتعلم = المثقف) في قوله: "حرص الإسلام على تكوين المجتمع المتعلم المثقف"⁴

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 298

² - المرجع نفسه، ص 299

³ - المرجع نفسه، ص 317.

⁴ - المرجع نفسه، ص 318.

(محو الأمية = رفع مستوى الثقافة = تنوير العقل = تعليم الإنسان) في قوله:
"فالقراءة والكتابة أثرهما عظيم في محو الأمية ورفع مستوى الثقافة وتعليم الإنسان ما لم
يعلم"¹.

(يدرك = يفهم)، (الخير = الصلاح)، (الأخلاق الفاضلة = السلوكات الحميدة) في قوله:"
فالمسلم يتعلم ليدرك ويفهم، ويتعلم ليعمل الخير والصلاح، ويتعلم أيضا ليمتثل بالأخلاق
الفاضلة، والسلوكات الحميدة"² (عطاء = تضحيات) في قوله: "فعلى مثل عطاء وتضحيات
هؤلاء العلماء نربي انفسنا.

(تنشط = تحفز) في قوله: "إن القرآن الكريم يهتم ببناء العقلية الإسلامية... فيأمر
أتباعه أن يأخذوا بكل الأسباب التي تنشط العقل، وتحفز الفكر.

(المشاهدة = الملاحظة) في قوله: فيرشد المسلمين إلى المشاهدة والملاحظة العميقة
التي تتمثل في النظر والتفكير في ملكوت الله ومخلوقاته.

(وسائل الحس = وسائل الإدراك) في قوله: ويحثهم على استعمال كل وسائل الحس
وكلّ وسائل الإدراك عن كلّ الأشياء وحقيقة الأمور وأسرارها.

(تحسر = ندامة) في قوله: ويقول منوها بتحسر أهل النهار وندامتهم نتيجة تعطيل
أسماعهم وعقولهم.

(الغي = الضلال)، (الحق = الصواب)، (تعليم = تربية) في قوله: اللهم بصرنا بعيوبنا
وأخطائنا فلا نتمادى في الغي والضلال، وألهمنا رشدنا فنعود إلى الحق والصواب، اللهم
وفق علماء المسلمين إلى النصيحة وبذل الجهد في تعليم النشء وتربية الأجيال"³.

يلحظ المتأمل في هذا النوع من التكرار بأنّ المحاجج يعمد في كلّ مرة إلى إعادة بناء
حججه عن طريق استخدامه المعاني المكررة بما يعادلها من ترادفات وعبارات لها معان
مشتركة وجزئية؛ حيث يظهر للمتدبر في هذا النوع من التكرار بأنّ معظم المفردات تميل

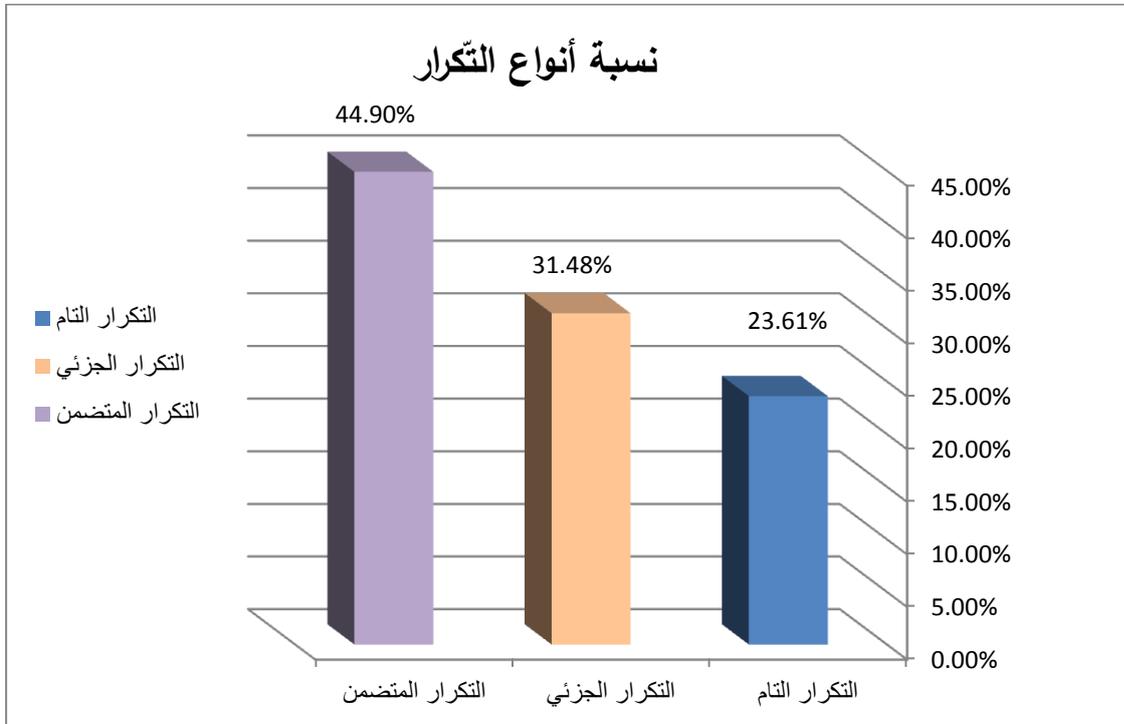
¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 319.

² - المرجع نفسه، ص 320.

³ - المرجع نفسه، ص 324.

إلى الارتباط من خلال علاقة التضمن، وذلك بالتبادل، فقد تتضمن الأولى الثانية وبالعكس حيث تكون إحدى المفردتين جزءا من الأخرى.

وقد ترتبط المفردة الثانية بالأولى ارتباط السبب بالمسبب، ويقصد المتكلم من وراء استعماله لهذا النوع من التكرار واستحضاره لمختلف الشواهد المتضمنة له إلى التنوع في الحجج والبراهين المقدمة لصالح أطروحاته المتمثلة في أن: (طلب العلم فريضة)؛ كما يحمل هذا النوع من التكرار إضافة دقيقة لما كُرِّر؛ بحيث يضيف المتكلم لما قاله؛ فتصبح المقدمة حجة، والحجة مقدمة، ولهذا يعدّ هذا النوع من التكرار وسيلة أساسية من وسائل إقناع المخاطب، وتشديد المعنى على أن تكرر المضمون أو الترادف يميل غالبا إلى جعل الجملة الثانية أقوى حججيا من الجملة الأولى؛ فالتكرار هنا لم يأت عبثا وإنما قصدا، لما له من أهمية خاصة في دفع المعنى إلى درجة أقوى، وهذا ما يزيد من فاعلية هذه الآلية اللغوية في إحداث وظيفة إقناعية تأثيرية لدى السامع، والرسم البياني التالي يوضح نسبة أنواع التكرار في المدونة.



يوضح الرسم البياني نسبة ورود أنواع التكرار في الخطب التي تناولتها بالدراسة؛ حيث بلغت نسبة التكرار التام 23,61%، ونسبة التكرار الجزئي 31,48%، في حين بلغت نسبة ورود التكرار المتضمن 44,90%، وما يمكن تسجيله من ملاحظات حول التكرار بأنواع والوارد في المدونة من خلال الرسم البياني، يتمثل في ما يلي:

- استعمال الخطيب لأنواع التكرار بهدف الإلمام بموضوع العلم، والإحاطة بجوانبه بهدف التأثير في المخاطب وحمله على القيام بالفعل المطلوب منه؛
- التقارب في النسبة بين نوعين من التكرار وهما: التكرار التام والتكرار الجزئي؛ وقد يكون السبب في ذلك هو أن اللفظة المكررة في التكرار التام هي لفظة العلم، وفي التكرار الجزئي تم التكرار على مستوى الجذر اللساني للفظ "العلم"؛
- استخدام الخطيب للتكرار المتضمن أكثر من استخدامه للنوعين الآخرين؛ لأن التكرار المتضمن شمل الألفاظ التي تتحدث عن أهمية العلم ومكانته في الإسلام؛ فاختر الخطيب "عبد الحميد مهدي" أن يتدرج في الانتقال بالمعنى في ذهن المخاطب، كالانتقال من المهم إلى الأهم، وهذا التدرج يؤدي وظيفة حجاجية.

ويمكن أن نوضح الأدوار الأساسية التي اضطلع بها التكرار داخل تلك الخطب في

ما يلي:

- الحضور الذهني؛ يعمل التكرار على استحضار ذهن المخاطب ويمنع تشتته؛
- التحضير والإعداد: يعمل التكرار على جعل المتلقي يستعد لما يوجه إليه من أفكار؛
- الإصرار والإلحاح: يشير التكرار إلى إصرار الخطيب على موقفه؛
- التأثير : يؤدي التكرار وظيفة تأثيرية من خلاله؛ فهو ليس مجرد تماثل صوتي بل آلية حجاجية.

3. الإحالة وتحقيق التماسك النصي:

وإذا كان الخطيب يعتمد على التكرار ليدعم الطاقة الحجاجية لأقواله؛ فإن نقادي التكرار يمكن أن يضطلع بوظيفة حجاجية، ويتجسد بواسطة الإحالة، وتكمن حجاجيتها في

أنّ العناصر المحيلة عليها كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لا بد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها¹؛ فلا يمكن الوقوف على دلالة الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة دون ربطها بمرجعها في النص أو خارج النص.

ويمكن الترابط الذي تشكّله الإحالة "المتلقي من تفسير المحال إليه بالرجوع إلى ما يحيل إليه، وهذه أبرز الخصائص التي تجعلها حجاجية؛ فالمحاج يحيل والمتلقي يكشف عن المحال إليه؛ فيكون هو والمحاج في سياق واحد؛ ومنه يكشف عن مقصده وهو الهدف وتحقق حجاجية الإحالة في الأدوات التي تفيد الإحالة كالضمير واسم الإشارة واسم الموصول... وفي أنواعها: الإحالة النصية والإحالة المقامية²؛ يبدو أن الإحالة تقوم بوظيفة حجاجية مثلها مثل التكرار؛ وتحقق حجاجيتها بالوقوف على مرجعيتها في النص أو خارج النص.

وتنقسم الإحالة النصية إلى إحالة قبلية وإحالة بعدية، وأعرض لأنواع الإحالة الواردة في مدونتي حسب تنوع وسائلها: الضمائر، أسماء الإشارة، الأسماء الموصولة...

1.3. الإحالة القبلية:

هي الإحالة التي يأتي الضمير فيها بعد مرجعه في النص؛ من الأمثلة الواردة من الإحالات القبلية في خطبة العلم لـ: "عبد الحميد مهدي" قوله: "إنّ العلم في الإسلام له من القداسة ما ينبغي أن يرتفع به الإنسان عن مستوى يستخدمه فيه في أي غرض يتعارض مع الحق"³.

¹ - محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، ط1، الدار البيضاء: 1991، دار المركز الثقافي العربي، ص17، 16.

² - عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأديبي، ط1، الأردن: 2014، عالم الكتب الحديث، ص222.

³ - عبد الحميد مهدي، خطبة الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص320.

إحالة قبلية

الإسلام → الضمير المنفصل (هو)

2.3. الإحالة البعدية:

وإذا كانت الإحالة القبلية هي "التي تعود على لفظ سبق التلّفظ به؛ فإنّ الإحالة البعدية تعود على لفظ لم يتلفظ به بعد، وإنّما يكون اللفظ مذكورا بعدها، وتتحقق الإحالة البعدية باسم الإشارة وتوظف أسماء الإشارة توظيفا حجاجيا، ويقوم مقام الاسم وينوب عنه وعن الفعل والجمل"¹؛ أي أن الإحالة تتجسّد بواسطة أسماء الإشارة التي تؤدي وظيفة حجاجيّة. ومن الأمثلة الواردة في خطبة الخطيب "عبد الحميد مهدي" قوله: "ولقد سمعنا أن بعضا من أبناء هذه الأمة حرموا من الدراسة نتيجة لهذه التكاليف الماديّة المرهقة"².

أحال اسم الإشارة (هذه) إلى لفظ بعده على النحو التالي:

إحالة بعدية

هذه ← الأُمَّة

إحالة بعدية

هذه ← التكاليف المادية المرهقة

وقد يحيل اسم الإشارة إحالة قبلية ومن أمثلة ذلك قوله "وإنّ الرّسول (ﷺ) يرشدنا إلى إنفاق الوقت، وصرف الجهد، وبذل الطاقة في طلب العلم والصبر على ذلك، فإنّ ذلك خير للمسلم من إكثار النّوافل والتّعبد لله في غير الفريضة"³.

أحال اسم الإشارة (ذلك) إلى ما قبله وهي جملة (طلب العلم) ويمكن التّمثيل لما سبق

بالشّكل التالي:

إحالة قبلية

طلب العلم → اسم الإشارة (ذلك)

¹ - عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية، دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، ص 224.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص 293.

³ - المرجع نفسه، ص 293.

وقد يحيل اسم الإشارة إلى جملة بكاملها، ومثال ذلك: قول الخطيب: "فكونوا من النوع الأول الذي ينتفع بالعلم، وينفع به غيره؛ فإنّ ذلك من صفة العلماء العاملين المخلصين"¹؛ أحال اسم الإشارة (ذلك) إلى جملة قبله وهي: (فكونوا من النوع الأول الذي ينتفع بالعلم، وينفع به غيره)، ويمكن أن نمثل لهذه الإحالة بالشكل التالي:



كما يؤدي اسم الموصول "دورا حجاجيا بالإحالة إلى ما سبق أو على ما يأتي بعده بمعنى أنّه يحيل إحالة قبلية أو إحالة بعدية"² ومن أمثله الواردة في المدونة قول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "والإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يجعل التعليم مقتصرًا على مرحلة من مراحل حياة الإنسان"³.

أحال اسم الموصول (الذي) إلى (الإسلام) وهي إحالة قبلية ويمكن توضيح هذه الإحالة في الشكل التالي:



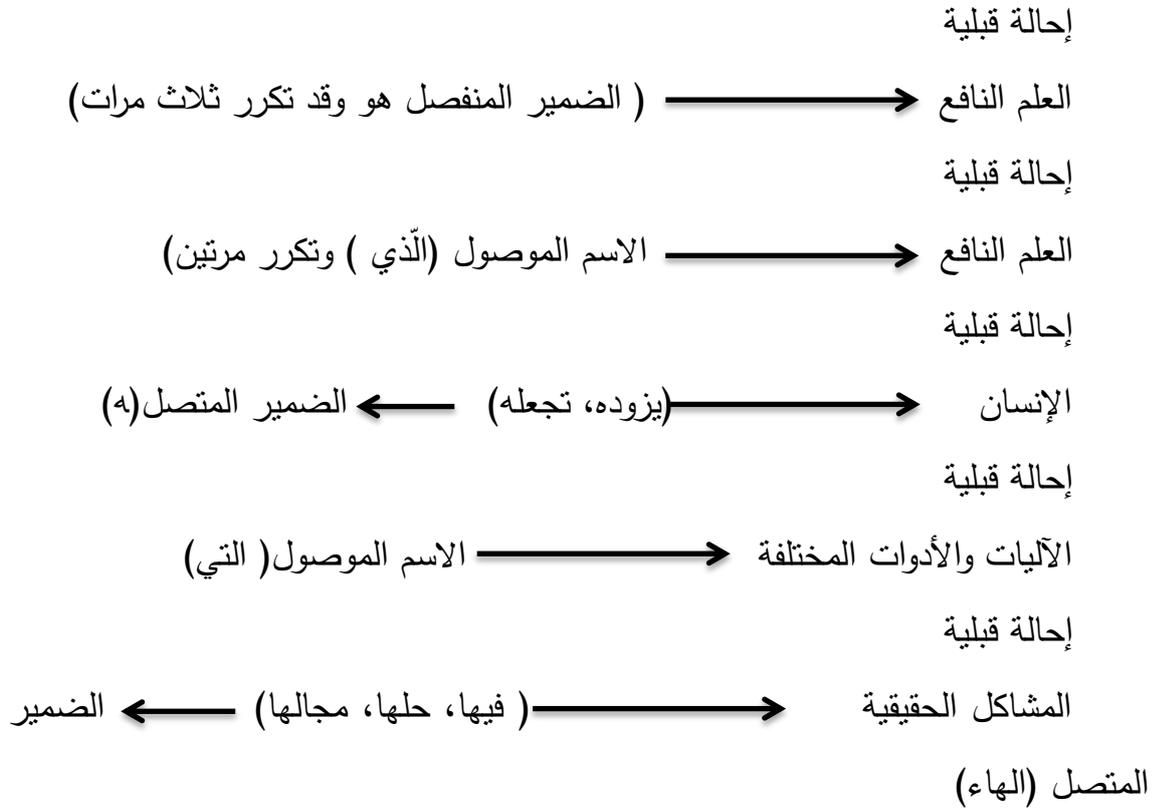
أمّا في قوله: "والعلم النافع هو الذي يعطي للإنسان القدرة على التمييز بين الحق والباطل، والنافع والضار، والصالح والطالح، وهو الذي يزوده بالآليات والأدوات المختلفة التي تجعله يقيم العلاقات الصحيحة بين الأشياء والقضايا المختلفة، ويفهمها فهما سليما كما أنّ العلم هو الذي يعطي للإنسان القدرة على تصنيف المشاكل الحقيقية التي تواجهه

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص292.

² - عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية، دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، ص225.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص320.

وترتيب الأولويات فيها، والعمل على حلها في مجالها الزمني والواقعي بكفاءة كبيرة¹، فقد تنوّعت الإحالة في هذا المثال ومن ذلك:



لحظت من خلال تحليلي للأمتثلة السابقة أنّ الإحالة عملت على تفادي التكرار وربطت بين أجزاء العبارات، الأمر الذي يبرز حقيقة مهمّة تتمثل في أن أسماء الإشارة تؤدي دورا بارزا في تحقيق الترابط في الخطاب" بصفتها نائبة عن الأسماء والأفعال والعبارات والجمل المتتالية²؛ أي أنّها تعمل على التماسك والترابط بمختلف أنواعه داخل الفقرة الواحدة أو بين الفقرات المتتالية في الخطاب.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 293.

² - صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، ط 1، مصر: 2000، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1، ص 137.

4. الروابط اللغوية واستعمالاتها الحجاجية:

تعدّ الروابط الحجاجية وسيلة من وسائل البرهنة على الوظيفة الحجاجية للغة "وتحتوي اللغة العربيّة على عدة روابط حجاجية شأنها في ذلك شأن اللّغات الأخرى؛ بحيث يمكن أن نذكر منها ما يلي: بل، لكن، إذن، لا سيما، وحتى، لأنّ، بما أنّ، إذا، الواو. الفاء، اللام كي...¹؛ فالروابط الحجاجية كثيرة، وتختلف مهمتها باختلاف سياقات ورودها.

وتحتوي الخطب التي تناولتها بالدراسة على مجموعة من الروابط أحاول أن أدرس بعضها وأدرس وظيفتها الحجاجية، ومن بين هذه الروابط هناك: "الروابط المدرجة للحجج والروابط المدرجة للنتائج وروابط التّعارض الحجاجي، وروابط التّساوق الحجاجي"².

1.4. روابط التّساوق الحجاجي:

- الرابط الحجاجي "حتى"

يعد الرابط الحجاجي (حتى) من الروابط التي تعمل على الربط بين الحجج، وهذا ما بيّنه لنا كلّ من ديكر (O.Ducrot) وأنسكومبر (Anscombe)، الذين أوضحا بأنّ الحجج المربوطة بواسطة هذا الرابط ينبغي أن تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة؛ أي أنّها تخدم نتيجة واحدة، والحجّة التي ترد بعد هذا الرابط تكون هي الأقوى لذلك فإنّ القول المشتمل على الأداة "حتى" لا يقبل الإبطال والتّعارض الحجاجي"³. ويمكن التمثيل لذلك من قول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "وانّكم تعلمون جميعا أنّ الإنسان يتميّز عن جميع المخلوقات بقابليته للتّعلم وإنشاء مجالات ثقافية ونظريات معرفية، وإنّ الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم جعله يتفوّق حتّى على الملائكة الكرام البررة بالعلم وبالعلم وحده؛ فاستحق الخلافة في الأرض عن جدارة واستحقاق"⁴.

¹ - أبو بكر العزاوي: اللّغة والحجاج، ط1، بيروت: 2009، الرّحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، ص55.

² - إسماعيل زردومي، الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، أطروحة ماجستير، باتنة: 2009، ص105.

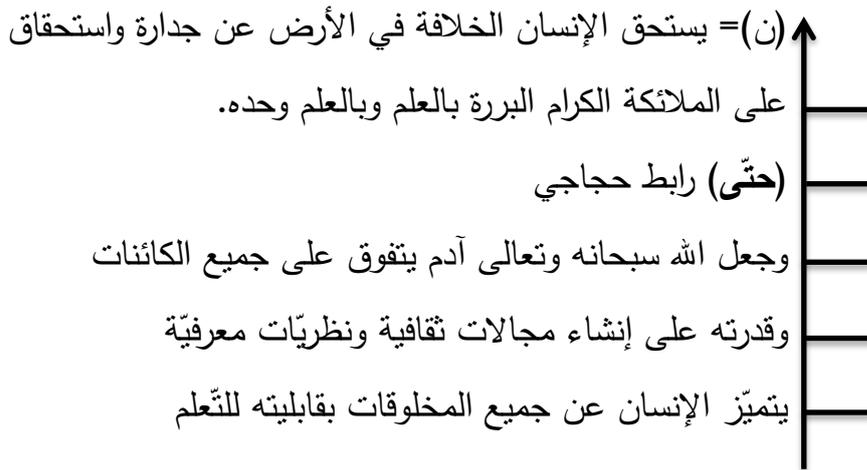
³ - أبو بكر العزاوي: اللّغة والحجاج، ص73.

⁴ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص291.

لقد ربط الرابط الحجاجي "حتّى" في هذا المثال بين مجموعة من الحجج كما يلي:

- ح1: يتميز الإنسان عن جميع المخلوقات بقابليته للتّعلم.
- ح2: قدرته على إنشاء مجالات ثقافية ونظريّات معرفيّة.
- ح3: جعل الله سبحانه وتعالى آدم يتفوق حتّى على الملائكة الكرام البررة بالعلم وبالعلم وحده.

إنّ كل هذه الحجج سواء الواردة قبل "حتّى" أم الواردة بعدها تخدم نتيجة واحدة من قبيل "يستحق الإنسان الخلافة في الأرض عن جدارة واستحقاق"؛ وقد جاءت الحجج متساوقة؛ لأنّها خدمت نتيجة واحدة، وقد جاءت الحجة الواردة بعد الرابط أكثر قوة من الحجج التي سبقته وهذا ما نمثله بالسلم الحجاجي الآتي:



- الرابط الحجاجي "الواو"

لا يقتصر دور الرابط الحجاجي "الواو" على ترتيب الحجج والرّبط بينها، بل يعمل على جعل كلّ حجة تقوي الحجة الأخرى، وتعمل على الرّبط النّسقي على عكس السّلم الحجاجي¹؛ لقد جاءت الحجج مترابطة بفضل الرابط الحجاجي "الواو" الذي جعل كلّ حجة

¹ - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص472.

- ح2: يزودون النَّاشئة بالعلم والمعرفة.

جاءت الحجتان في هذا المثال لتدعيم النتيجة، ولتعليل سبب تشبيه المعلمين الصالحين بالأئمة.

- الرابط الحجاجي الفاء

الفاء: رابط حجاجي له " دلالات عديدة، تختلف باختلاف تموضعها في الكلام، لكنّها في هذه الأمثلة التي سنعرضها لا تكاد دلالتها إلى جانب الربط بين النتيجة والحجّة، تتجاوز التعليل والتفسير"¹؛ ويمكن التمثيل لذلك من قول الخطيب "عبد الحميد مهدي" " في هذه الأيام تفتح المدارس أبوابها، وكذا المعاهد والجامعات؛ فيعود أبنائنا وبناتنا إلى الجهاد والاجتهاد في طلب العلم"².

ويمكن تحليل هذا المثال كما يلي:

ح1: في هذه الأيام تفتح المدارس أبوابها، وكذا المعاهد والجامعات؛

الرابط: الفاء

النتيجة: يعود أبنائنا وبناتنا إلى الجهاد والاجتهاد في طلب العلم.

وقوله: " وإنّ علماء المسلمين بذلوا جهودا كبيرة في القسم الأول من هذه العلوم وأهملوا القسم الثاني إهمالا شبه تام وكامل في القرون الأخيرة، بينما حدث العكس تماما في الغرب. فتقدموا وتأخرنا وازدهروا وتقهقرنا، وأصبنا بالتخلف والجهل بالحياة وبآليتها الموضوعية"³.

ويمكن تحليل هذا المثال كما يلي:

ح1: وإنّ علماء المسلمين بذلوا جهودا كبيرة في القسم الأول من هذه العلوم وأهملوا

القسم الثاني إهمالا شبه تام وكامل في القرون الأخيرة، بينما حدث العكس تماما في الغرب؛

¹ - هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، دراسة تطبيقية في (كتاب المساكين) ل: الرافي، مذكرة ماجستير، ورقة: 2003، ص125.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص291.

³ - المرجع نفسه، ص296.

الرابط: الفاء؛

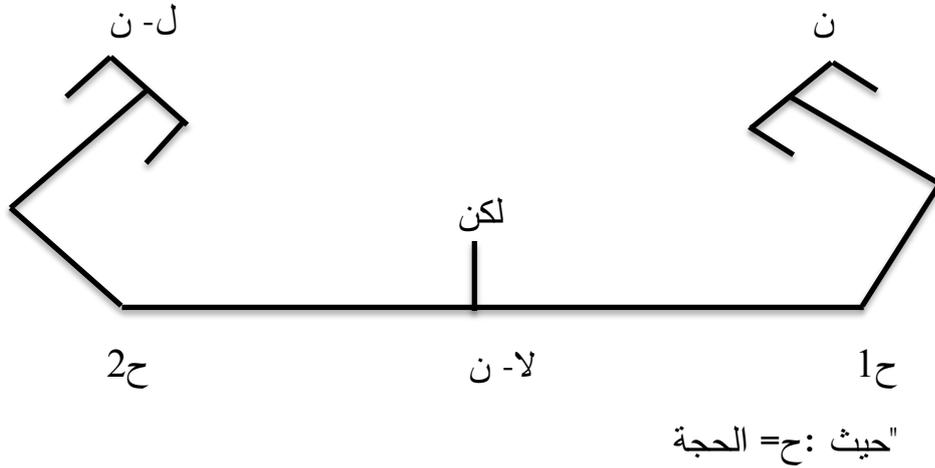
النتيجة: الغرب تقدموا والمسلمون تأخروا.

3.4. روابط التّعارض الحجاجي:

- الرابط "لكن"

تفيد (لكن) الاستدراك وفي هذه الإفادة تكمن حجاجيتها "إذ الاستدراك هو تعقيب الكلام برفع ما يتوهم ثبوته أو نفيه"¹؛ أفهم من هنا بأن الدور الحجاجي لـ "لكن" يكمن في أنها تمكن المحاجج من "استدراك الكلام الذي سبق لإثبات خلافه، وهذا إضراب عن الحكم الأوّل ليؤدي هذا إلى نتيجة مناقضة للنتيجة الأولى"²؛ حيث تقوم "لكن" بإحداث تعارض حجاجي بين ما يتقدّم الرابط وما يتلوّه.

وإن التّلفظ بأقوال من "نمط "أ" و "ب" يستلزم: أنّ "أ" و"ب" باعتبارهما حجتين، الحجة الأولى "أ" موجهة نحو نتيجة "ن" والحجة الثانية "ب" موجهة نحو نتيجة مضادة "لا - ن" وأنّ المتكلمّ يقدم الحجة الثّانية باعتبارها الحجة الأقوى، وهي التي توجه القول أو الخطاب برمته"³؛ ولتوضيح هذه المسألة نصوغ الرّسم الآتي⁴:



¹ - فاضل السامرائي، معاني النحو، ج1، نقلا عن عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، ص198.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

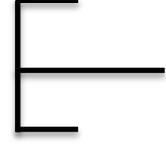
³ - أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، ص57.

⁴ - المرجع نفسه، ص59.

ن = النتيجة

لا-ن = لا نتيجة أو النتيجة المضادة.

= رمز يشير إلى العلاقة بين الحجج والنتيجة



لكن: رابط حجاجي¹.

ويمكن التمثيل لذلك من قول الخطيب "عبد الحميد مهدي" "ومن حق أبنائنا أن يفرحوا بالدخول المدرسي، ومن حقهم علينا أيضا أن نوفر لهم أجواء البهجة والسرور في مثل هذه المناسبات، ولكنّه توجد عائلات كثيرة في مجتمعنا تعاني من الفقر والحرمان والاحتياج، ولقد سمعنا أن بعضا من أبناء هذه الأمة حرموا من الدراسة نتيجة لهذه التكاليف الماديّة المرهقة"².

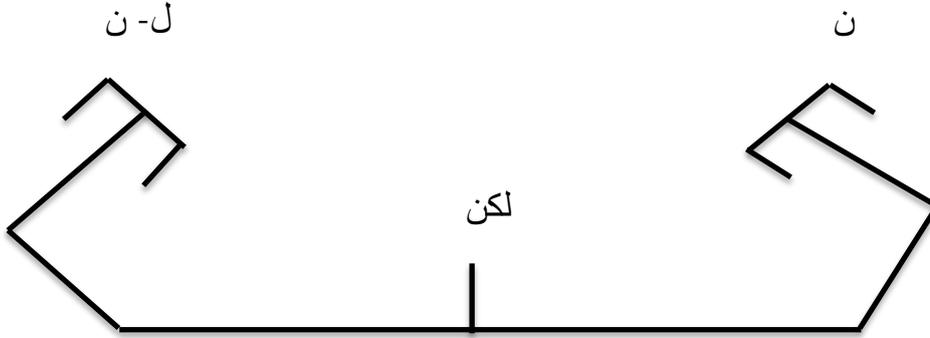
تضمن القسم الأوّل من هذا القول: (ومن حق أبنائنا أن يفرحوا بالدخول المدرسي ومن حقهم علينا أيضا أن نوفر لهم أجواء البهجة والسرور في مثل هذه المناسبات) حجة تخدم نتيجة من قبيل "كلّ الآباء يملكون القدرة على تغطية تكاليف الدخول المدرسي، والقسم الثاني من القول: (توجد عائلات كثيرة في مجتمعنا تعاني من الفقر والحرمان والاحتياج ولقد سمعنا أن بعضا من أبناء هذه الأمة حرموا من الدراسة نتيجة لهذه التكاليف الماديّة المرهقة) يتضمن حجة تخدم نتيجة مضادة للنتيجة السابقة (لا. ن)؛ أي تخدم نتيجة من نمط "لا يملك كلّ الآباء القدرة على تغطية تكاليف الدخول المدرسي؛ وبما أنّ الحجة الثانية أقوى من الحجة الأولى؛ فإنّها ستوجه القول بمجمله نحو النتيجة (لا. ن)؛ فتكون وظيفة الربط "لكن" في القول السابق كالتالي:

¹ - أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، ص59.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص293.

يملك كل الآباء القدرة على
تغطية التكاليف المدرسية

لا يملك كل الآباء القدرة
على تغطية التكاليف المدرسية



ح1= ومن حق أبنائنا
أن يفرحوا بالدخول المدرسي

ح2= بعض الأبناء
حرموا من الدراسة

لا- ن

- الرابط الحجاجي "بل"

يقول "الرماني" في يتعلق بالرابط الحجاجي "بل" " إته من الحروف الهوامل، ومعناه الإضراب عن الأول والإيجاب عن الثاني"¹؛ ولأنه حرف إضراب " له حالان: الأول: أن يقع بعده جملة والثاني: أن يقع بعده مفرد؛ فإن وقع بعده جملة كان إضراباً عمّ قبلها؛ إمّا على جهة الإبطال (...)، وإمّا على جهة التّرك للانتقال من غير إبطال (...). وإذا وقع بعد "بل" مفرد؛ فهي حرف عطف، ومعناها الإضراب، ولكن حالها فيه مختلف؛ فإن كانت بعد نفي (...).؛ فهي لتقرير حكم الأول، وجعل ضده لما بعدها (...)"²؛ ويعني هذا أنّ "بل" لها حالات مختلفة بحسب السياق.

وفي قول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "ولا تتركوهم أبدا بدون متابعة، فتفاجأوا آخر السنة بالرّسوب، وإعادة السنّة، أو الفصل النّهائي من الدراسة، فتندمون؛ حيث لا ينفذ

¹ - أبو الحسين علي بن عيسى الروماني، معاني الحروف، تح: عرفان بن سليم، ط1. بيروت: 2005، المكتبة العصرية، ص71.

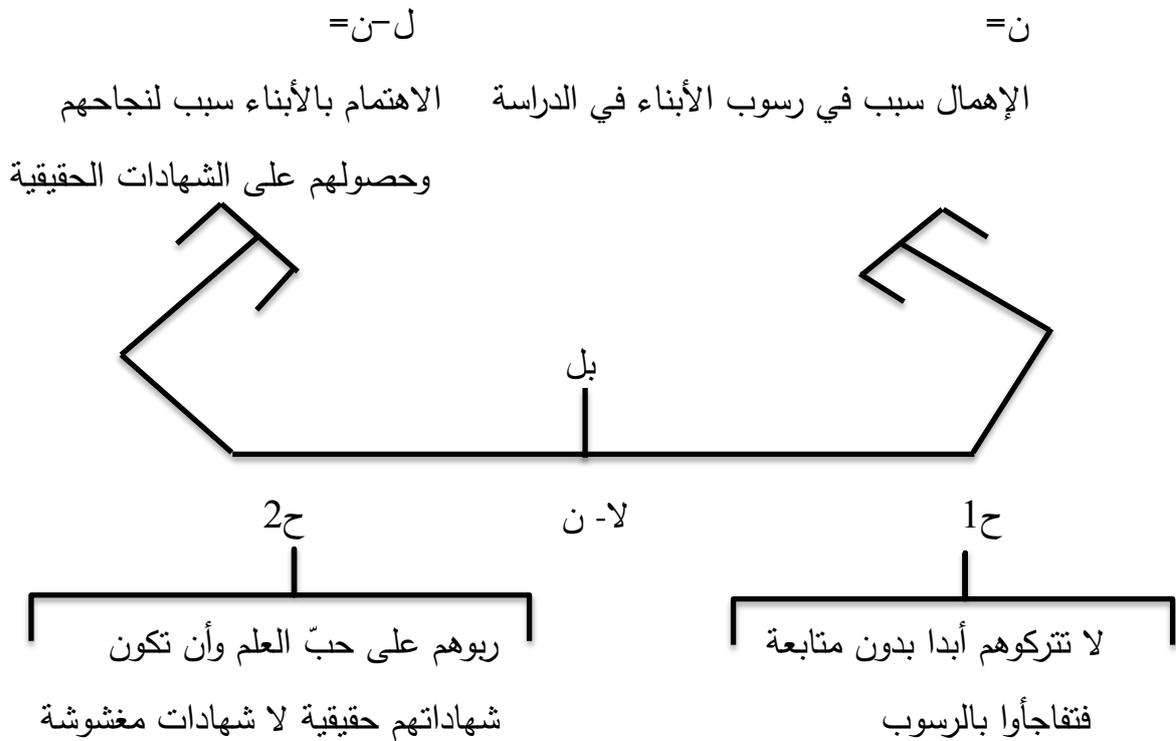
² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص515.

الندم، بل ربوهم على حب العلم واحترام أهله، وأن تكون شهاداتهم حقيقية لا شهادات مغشوشة¹.

أقام الرابط الحجاجي "بل" علاقة حجاجية مركبة من علاقيتين:

الحجة "أ" والتي ترد قبل الرابط (ولا تتركوهم أبدا بدون متابعة، فتفاجأوا آخر السنة بالرسوب وإعادة السنة، أو الفصل النهائي عن الدراسة، فتندمون حيث لا ينفع الندم) والتي تتخذ نتيجة من قبيل أن "الإهمال سبب في رسوب الأبناء في الدراسة".

الحجة "ب" وهي الحجة الواردة بعد الرابط الحجاجي "بل" ألا وهي: "ربوهم على حب العلم واحترام أهله وأن تكون شهاداتهم حقيقية لا شهادات مغشوشة" وتخدم نتيجة من قبيل "الاهتمام بالأبناء سبب لنجاحهم"؛ وعليه نقول إنَّ الحجة "ب" أقوى من الحجة "أ" بالنسبة إلى النتيجة "لا - ن"، والمتمثلة في أن "الاهتمام بالأبناء سبب؛ لنجاحهم وحصولهم على الشهادات الحقيقية" ومن خلال هذا التحليل فإننا نخلص إلى أن "بل" تربط بين حجتين متعارضتين، ويمكن توضيح ذلك في الشكل التالي:



¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 299.

5. السلم الحجاجي ومبدأ التدرج في توجيه الحجج:

يعرف "طه عبد الرحمن" السلم الحجاجي بقوله هو: "مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية، وهذه العلاقة هي ما يسميه "ديكرو" (Ducrot) سلماً حجاجياً ومستوفية للشروطين التاليين:

- كل قول يقع في مرتبة ما بين السلم يلزم عنه ما يقع تحته؛ بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال الأخرى؛

- كل قول في السلم كان دليلاً على مدلول معيّن، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى¹، أي أنّ هناك تلازماً بين الحجة ونتيجتها، وفي تلازمها يعكسان تعدداً للحجة التي تختلف من حيث القوة والضعف؛ في مقابل النتيجة الواحدة، وإذا افترضت في قول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "في هذه الأيام تفتح المدارس أبوابها، وكذا المعاهد والجامعات؛ فيعود أبنائنا وبناتنا إلى الجهاد والاجتهاد في طلب العلم واكتساب المهارات والفنيات والكفاءات المختلفة"²؛ الأقوال التالية:

1. الجهاد والاجتهاد في طلب العلم.

2. اكتساب المهارات والفنيات.

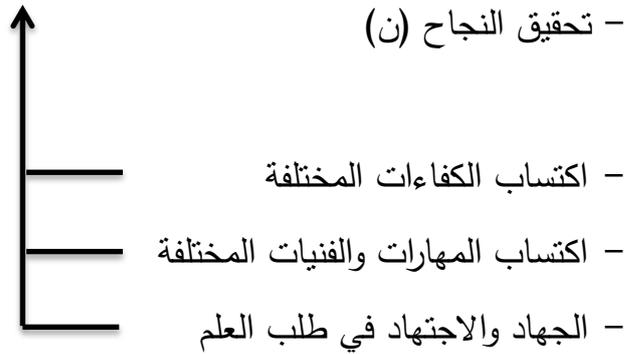
3. اكتساب الكفاءات المختلفة.

وإذا قدمت أحد هذه الأقوال حجة لنتيجة هي "تحقيق النجاح"؛ فإنني سأجد أن القول (3) أقوى في سلم الحجج من القول (2)، الذي هو بدوره أقوى من (1)، بمعنى أن الحجج لا تتساوى في ما بينها، بل تترتب في درجات القوة والضعف، وهذا الترتيب راجع إلى أنّ الظواهر الحجاجية تتطلب دوماً وجود طرف آخر تقيم معه علاقة استلزام؛ فمثلاً القول (اكتساب الكفاءات المختلفة) موجود ضمن الفئة الحجاجية، وبالتالي هو يستلزم منطقيًا القول: (اكتساب المهارات والفنيات) الذي يستلزم بدوره القول (الجهاد والاجتهاد في طلب

¹ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المغرب: 2005، المركز الثقافي العربي، ص105.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص291.

العلم)، فعندما تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما علاقة ترتيبية؛ فإنّ هذه الحجج تنتمي إلى السلم الحجاجي نفسه؛ " لأنّ السلم الحجاجي فئة حجاجية موجهة"¹. ويمكن أن نمثل لهذه الأقوال بالشكل التالي:



وإذا افترضت في قول الخطيب: "العلم النافع يصلح نية الإنسان، ويبصره بمجالات الخير والعمل الصالح ويقوم سلوكاته ويحسن معاملاته"². الأقوال التالية:

1. العلم النافع يصلح نية الإنسان.

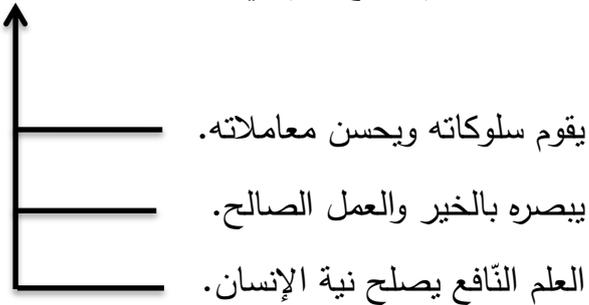
2. يبصره بمجالات الخير، والعمل الصالح.

3. يقوم سلوكاته ويحسن معاملاته.

وإذا قدمت أحد هذه الأقوال حجة لنتيجة هي " العلم النافع مهم في الحياة "؛ فإنني

سأجد أن القول (3) أقوى في سلم الحجج من القول (2)، الذي هو بدوره أقوى من (1).

النتيجة: العلم النافع مهم في الحياة الإنسانية



¹-Oswald Ducrot, Les échelles argumentatives, p10.

²- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 293.

6. الاستشهاد دليل على صحة النتيجة:

يعد الاستشهاد من الأدلة القويّة التي تجعل النتيجة مثبتة لا يقدر المتلقي إبطال صحتها، ولذلك استخدم الخطيب "عبد الحميد مهدي" كثير من الشواهد باعتبارها من الحجج القويّة التي تمكن المتكلم من الوصول إلى أهدافه وأغراضه الحجاجيّة إذ "يضعها المرسل في الموضوع المناسب، وهنا تتبدى أهليّته وبراعته في توظيفها حسب ما يتطلّبه السياق، ويمكن تصنيفها في السّم الحجاجيّ بالنظر إلى طبيعتها المصدرية؛ فهي ليست من إنتاج المرسل بقدر ما هي منقولة على لسانه، ونقلها على لسانه يبيّن عن كفاءته التّداوليّة؛ إذ يكمن دوره في توظيفها التّوظيف المناسب في خطابه إلى ما هو أرفع"¹؛ فالشواهد من الأدلة التي يعتمد عليها الخطيب في بناء خطابه؛ ليضمن نجاح العمليّة الحجاجية كونها تبرهن على صحة النتائج المتوصل إليها.

والشّاهد عند "أرسطو" هو "بمنابة القوانين والشّهود، والاعترافات وأقوال الحكماء أمّا في الخطابة العربيّة فتضمين الآيات القرآنيّة، والأحاديث وأبيات الشّعْر والأمثال والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة النّاس عليها وتواترها"²؛ غايتها تأكيد صحة الأقوال وتدعيم طاقتها الحجاجيّة، وتوضيح الأفكار، وتكثيف حضورها في الذهن وتحويل بعض الأفكار من طبيعة مجردة إلى أخرى محسوسة.

ونظرا لأهميّة الشواهد اعتمد الخطيب عليها بكثرة، حيث استعمل حججا وبراهين مختلفة من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر، وذلك من أجل الدّلالة على صحة أقواله وترسيخها في ذهن المستمع، كما قد احترّم سلم ترتيب هذه الحجج، وذلك انطلاقا من قوتها الحجاجيّة، حيث استشهد بالقرآن أولا، ثم يليه الحديث الشريف، ثمّ الشّعْر وهذا ما ذهب إليه "عبد الهادي بن ظافر الشهري" في كتابه "استراتيجيات الخطاب" لما قال: "والملاحظ أنّ جميع هذه الشّواهد والحجج الجاهزة تنتسب إلى ترتيب معيّن بوصفها حججا جاهزة، وذلك

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص 537.

² - محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربيّة، ط2، المغرب:

2002، إفريقيا الشرق، ص 65.

وهذه الآية قد دلت على فضل العلم، بأنه سبحانه تعالى "ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم إلا بأن أظهر علمه، فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم لكان الواجب إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم¹؛ أي البرهنة على مكانة آدم بأشياء أخرى غير العلم؛ ولمكانة هذا الأخير في الإسلام نزل الوحي على النبي (ﷺ) أول مرة يأمر "النبي الكريم ومن خلف- الأمة الإسلامية إلى يوم الدين- بالقراءة وما هو بقارئ؛ لأنّ القراءة مفتاح العلم وبابه ومدخله وأداة الغوص فيه، ويؤكد على أهميّة التعلّم والتّعليم والعلم، واقتربت القراءة باسم الربوبية والخلق بين - الكاف والنون- في أول ما نزل على محمد(ﷺ) واقتربت القراءة بالكرم والتّكريم الإلهيين للإنسان؛ حيث علّمه بالقلم، علّمه ما لم يعلم² وفي ذلك قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم ۝٥﴾ سورة العلق الآيات من 1 إلى 5.

استشهد الخطيب بهذه الآية القرآنية؛ لأنها حجة قوية تعمل على تقوية وتأكيد الأطروحة المتمثلة في التأكيد على مكانة "العلم في الإسلام"، وبذلك تكون هذه الشواهد دعائم لبنية الخطاب الحجاجي، فالقرآن الكريم أقوى من أية حجة، ولهذا يفترض أن يكون الأساس الذي يحتكم إليه في مختلف القضايا والمسائل التي تصادف الإنسان في حياته الأسرية والاجتماعية والعلمية... الخ.

ولقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالقراءة والكتابة؛ "فهل أطعنا أوامر ربّنا؟، طبعاً لا، لم يطعه المسلمون على وجه الخصوص؛ لأنّ نسبة الأمية في العالم الإسلامي كبيرة جداً إلى يومنا هذا، اقرأوا الإحصائيات تجدوا الحقيقة المرة التي تسمعونها.³

يتمتع أسلوب الاستفهام بأهميّة كبيرة، وبخاصّة في إطار الخطاب الحجاجي؛ حيث ترمي هذه الصيغة في الأصل إلى سؤال المخاطب عن أمر يجهله، ولكنها تخرج أحياناً عن

¹ - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج1، ط1، بيروت: 1990م، ص161.

² - جيلالي بوبكر، تأملات في أصول المجد ومبلغ الكمال الإنساني، ط1، تيزي- وزو: 2014، دار الأمل، ص76.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص295.

دالاتها الحقيقية؛ فالاستفهام المطروح لا يتضمن قوّة إنجازية استفهاميّة؛ إذ يمثل السؤال المطروح المعطى الذي يشترك في العلم به كلّ من السائل والمسؤول؛ وعليه أقول إنّ السؤال المطروح لم يكتف بقوته الإنجازية الحرفيّة، وإنّما حمل قوّة إنجازية مستلزمة مقاميا تمثلت في التّحسر والإنكار؛ فالمتكلّم يتحسر على واقع المسلمين، وينكر عليهم عدم طاعتهم لله سبحانه وتعالى وعدم انشغالهم واهتمامهم بالعلم ممّا يدخل هذا الاستفهام في خانة الاستفهام الحجاجي وهو "نمط من الاستفهام يستلزم تأويل القول المراد تحليله؛ انطلاقا من قيمته الحجاجيّة"¹، بمعنى أنّ الاستفهام يحمل افتراضات ضمنيّة تجعله يحمل استفهاما حجاجيا؛ فالاستفهام هنا يمكن أن نعتبره حجة مدعمة بمجموعة من الحجج تخدم نتيجة ضمنيّة تتمثل في "التّحسر على واقع المسلمين ودعوتهم للتّغيير" ويمكن أن نمثّل هذا الاستفهام الحجاجي بالشّكل التّالي:

- ح 1: هل أطعنا أوامر ربنا؟
 - ح 2: لم يطعه المسلمون على وجه الخصوص؛
 - ح 3: نسبة الأُمّة كبيرة جدا إلى يومنا هذا؛
 - ح 4: اقرّوا الإحصائيات العالمية تجدوا الحقيقة المرة التي تسمعونها؛
- النتيجة: دعوة المسلمين إلى التّغيير.

هذا التّغيير لا يمكن أن يكون إلا إذا أدرك المسلمون مقتضيات قوله تعالى: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)، "وكون اقرأ أول كلمة في آخر رسالة إشارة إلى عهد جديد في النّبوة وإلى أسلوب جديد في التّلقي عن الله، إنّها آيات الله في الآفاق، والأنفس التي ستظهر للنّاس الحقّ، وهذه الآيات إنّما تحفظ دالاتها بالعلم والقراءة؛ فبالقراءة يحصل الإنسان علم الأولين جميعا وبالقراءة يرقى الإنسان إلى الدرجات العلى، وكون خاتم النّبیین أميا إشارة إلى أن أحدا من النّاس بعد خاتم النّبیین لن يكون مصلحا وهاديا في النّاس بدون قراءة، وبخاتم النّبیین النّبي

¹ - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 57.

الأمي محمد (ﷺ) ختم عهد الأمية، وفتح عهد القراءة في الحياة البشرية¹؛ لأن الأمية تتسبب في عرقلة المشاريع، وتسهم في تفاقم الأزمة الاجتماعية، وتقضي على الشخصية الإسلامية، وهي أكبر عائق يواجه التّحضر، وتصور الأشياء على غير حقيقتها؛ وتجعل الإنسان يطغى، ويفقد القدرة على التمييز بين الأشياء؛ وبذلك تكون الأمية داء، ودواؤها هو "الأخذ بالعلم والمعرفة، والأمية أنواع وصنوف تهدد العالم بأسره؛ فهناك أمية القراءة، وأمية الكتابة، وهناك الأمية الدينية؛ حيث يسود العالم الآن الغلو والتطرف، وهناك الأمية الثقافية؛ حين تغلب الأنانية على المثقفين دون العمل لمجتمعاتهم وهناك الأمية المدنية؛ حيث يعمم الجهل بالحقوق والواجبات؛ وهناك الأمية الاقتصادية؛ حيث تنتشر أزمة الفقر والتخلف وهناك الأمية الحضارية؛ حيث العولمة وما لها من سلبيات"²؛ ولن يتمكن الإنسان من تجاوز هذه العراقيل إلا إذا استثمر طاقته ومواهبه التي أمده الله سبحانه وتعالى بها؛ وبذل جهده للتغيير من أجل بناء حياة أفضل في محيط أجمل؛ لإنشاء مجتمع متقدم مبني على العلم.

ويجوز للإنسان أن يتساءل عندما يقرأ سورة العلق عن سبب مجيء لفظة الأكرم في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝﴾ ولم تأت لفظة أخرى في مكانها كلفظة "الأعلى أو الأعظم مثلا، وتكمن الإجابة في تدبر هذه الآية؛ حيث سيكتشف الإنسان وجه الإعجاز في اقتران القراءة بأن الربّ هو الأكرم إذ في ذلك إشارة ظاهرة لتلازم الأمرين في الحياة بأن أولئك البشر الذين سينالون كرم الله، وغناه وسيعلو شأنهم في الأرض هم القراء وأكثر الناس قراءة وطلبا للعلم، وهذه سنة من سنن الله التي أجراها في خلقه؛ فيستوي فيها المسلم مع غير المسلم"³، وقد قال الله سبحانه وتعالى في

¹ - ساجد العبدلي، القراءة الذكية، كيف تقرأ بذكاء.. بسرعة.. وبإدراك كبير، ط2، الكويت: 2007، شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع، ص20.

² - "أهمية العلم بالنسبة للفرد والمجتمع"، مقال منشور على الموقع الإلكتروني: www.mawdoo3.com يوم: 2016/07/27.

³ - ساجد العبدلي، القراءة الذكية، كيف تقرأ بذكاء بسرعة وبإدراك كبير، ص21.

فضل العلماء وشهد فيهم بدليل قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَمَلَٰئِكَتُهُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَرِيضُ الْمَكِينُ ﴾ ﴿١٨﴾ سورة آل عمران الآية: 18.

وقال أيضا: "﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ﴿١١﴾ سورة المجادلة الآية: 11

وقال أيضا ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ ﴿٢٨﴾ سورة فاطر الآية 28. وإنّ ترك المسلمين للعلم، وإهمالهم للقراءة، وانشغالهم بالأشياء التي لا فائدة فيها؛ هو الذي جعل غيرهم يتفوقون عليهم، ويعلو شأنهم، وتحسن وضعيتهم، وتتغير أحوالهم إلى ما هو أفضل. ويرجع سبب إهمال المسلمين للعلم إلى قلة وعيهم، ونقص إدراكهم، وإلى عدم إحاطتهم وفهمهم للقرآن الكريم الذي أمر بالعلم، حرصا منه على أن يكتسب المسلم ما يؤهله للقيام بمتطلبات هذا الدين؛ ولذلك لم يدع أول خطاب إلهي إلى أداء الفرائض، ولم يأمر بأي عبادة من العبادات، بل أمر بالقراءة والتعلم والتعليم وطلب العلم، وهذا يدلّ على مكانة العلم في الإسلام، لأنّه وسيلة للتعرف على هذا الدين، وعلى الأحكام التي ينص عليها؛ فالعلم هو الأداة الأساسية التي تعيننا على التفقه في ديننا الحنيف، الذي حث أتباعه على طلب العلم ونوّه بشرف طالبيه وبيّن فضلهم.

2.6. الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف:

لقد تأكد فضل العلم وشرف أهله ورفعة طلابه، ومحبيه في السنّة النبوية الشريفة؛ لذلك عمد الخطيب "عبد الحميد مهدي" ضمن بناء حججه إلى استحضار أقوال النبي (ﷺ)؛ ليبيّن كلامه على أساس قوي، ويوجّه مقاصده إلى سبيل لا يضل عنه؛ فإنّ الدليل على المقصد إذا استند إلى الشاهد، قويت الحجة، وأذعن له المخاطب، ومن أمثلة الاستشهاد بالحديث الشريف على فضل العلم قوله (ﷺ): " من سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله له به طريقا من طرق الجنّة، فإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنّ طالب العلم ليستغفر له من في السماوات والأرض حتّى الحيتان في الماء، وإنّ فضل العالم على

العابد كفضل القمر على سائر النجوم، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظه، أو بحظ وافر¹.

تمثل المعنى الصريح في إخبار المخاطبين بأن جزاء طالب العلم في الآخرة هو الجنة؛ لأن طالب العلم يُميز بين الحلال والحرام، فيبتعد عن الحرام، ويحرص على الحلال ويطيع الله سبحانه وتعالى حبا وخوفا، ويحرص على الإخلاص كي لا تذهب عبادته هباء منثورا، ويبتعد عن ملذات الدنيا خوفا من الوقوع في الحرام، ويتورع عن الشبهات حرصا على بلوغ أعلى درجات الإيمان، وينفق معظم وقته في البحث عن الحقيقة التي تزيده قربا من الله سبحانه وتعالى، ويبدل جهده في طلب العلم النافع الذي ينفع به نفسه وغيره، أما الجاهل فلا يميز بين الحق والباطل، ولا بين الحلال والحرام؛ فيقع في البدعة ويظن أنها حسنة، وينفق وقته في ما لا ينفعه ولا ينفع غيره، ولا يدرك حجم المعصية فيرى الكبيرة صغيرة، ويستهيئ بذنوبه، ولا يدرك نعم الله عليه.

والمسلم المتعلم يعرف الله ويؤمنه عليه، ويحرص على كل عمل يقربه إلى الله سبحانه وتعالى، ويبتعد عن ما يبغده عنه، وإذا عرف المسلم الله؛ فإنه يقف يمتثل لأوامره ولا يتعد حدوده، ويكثر من عبادته، ويحرص على كل عمل يقربه منه، ويعظم شعائره، ويتورع عن الشبهات، وبذلك تناله رحمة الله سبحانه وتعالى، وهذه الرحمة هي التي تدخله إلى الجنة وهي السلعة الغالية التي يجازي بها الله سبحانه وتعالى عباده الصابرين، العابدين والقانتين والمستغفرين بالأسحار، والذاكرين لله كثيرا، والمتدبرين في خلقه وصنعه، وأولئك هم أولو الألباب المتشبعين بالعلم. ولذلك تضمن الإخبار بجزاء طالب العلم توجيهها ضمنا فحواء الحث على طلب العلم من خلال التنويه بمكانة طالب العلم؛ ليُرغب المسلمين في طلبه، وقد كان لبعض المؤشرات اللغوية الأثر البارز في تعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي؛ إذ جاءت لفظة (طريق) بصيغة التكررة لتشمل كل الطرق؛ أي كل الاختصاصات من علوم دينية ودنيوية.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 296.

واستعمل الخطيب صيغة المضارعة في (يستغفر) للدلالة على الاستمرارية؛ ولأن التشبيه استراتيجي يعتمد عليها المتكلم للوصول بها إلى قصده وغايته المتمثلة في تقوية وتقرير حال المشبه في ذهن السامع اعتمد عليه الرسول (ﷺ)؛ حيث شبه فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم؛ بالإضافة للدور التداولي الذي شكله الإطناب الذي في الحديث؛ إذ كان بإمكان المتكلم أن يكتفي بالقول: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة) فيستنتج المخاطب بأن فضل العالم كبير لكنه عمد إلى الإطناب؛ للتأثير بشأن المتحدث عنه (طالب العلم)، ونقش صورته في ذهن السامعين؛ لزيادة قوة التأثير فيهم؛ ويكون المتكلم بذلك قد حقق غرضاً تداولياً.

كما استشهد الخطيب بالأحاديث التي تضمنت حجة تمثيلية، والتمثيل هو "عقد صلة بين صورتين؛ ليتمكن المرسل من الاحتجاج وبيان حججه"¹، وقد انتبه الباحثون والبلاغيون إلى الدور الحجاجي للأمثال بخاصة الجاهزة منها؛ باعتبارها حججا قوية تستمد قوتها من مصدرها واتفاق الناس عليها، وتجدر الإشارة هنا إلى أن معظم البلاغيين لا يميزون بين التمثيل والتشبيه، أما "عبد القاهر الجرجاني"؛ فيرى أن هناك فرقا طفيفا بين التشبيه والتمثيل يوضحه بقوله: "فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلا"²، وعلى هذا؛ فالتمثيل الذي استخدمه الرسول (ﷺ) في سياق وصفه لأحوال الناس في طلب العلم والانتفاع به تشبيه بوجه عام، وتمثيل بمعنى أخص، لأن قوله (ﷺ) "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبت الكأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى منها، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كالأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 497.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تح: عبد الحميد الهنداوي، ط 1، بيروت: 2001، دار الكتب العلمية، ص 84.

من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به¹ يحتاج إلى التدبر وإعمال الفكر، وقد اعتمد عليه (ﷺ)؛ لتوضيح وتقريب الصورة إلى ذهن المتلقي؛ نظرا لارتباط التمثيل بالواقع من جهة، وقدرته على التأثير من جهة أخرى.

كما أنّ التمثيل يخاطب الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية أضف إلى ذلك أنّه يبعد عن النفس الملل والضجر، لما فيه من متعة جمالية تمتع نفوس المخاطبين؛ فيكون ذلك دافعا لقبول ما يليق به المتكلم والتأثر به، وفي ذلك يقول "عبد القاهر الجرجاني": "واعلم أنّ ممّا اتفق العقلاء عليه أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كسبها أبهة، وكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباغة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيه محبة وشغفا، فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم وأنبل في النفوس وأعظم وإن كان حجاجا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهـر، وبيانه أبهر...²؛ أي أنّ التمثيل وسيلة للتأثير في النفوس، يرمي من خلاله المتكلم إلى تحقيق مقاصده الحجاجية، والرسول (ﷺ) باستعماله التمثيل يهدف إلى جعل المستمع يقتدي بالنوع الأوّل في طلب العلم النافع والانتفاع به؛ لأنّ العلم النافع يهدي إلى الإيمان ويرسخه وهو السبيل إلى اتباع النهج القويم، والالتزام بالعقيدة الإسلامية الصحيحة وأركانها؛ فإذا عطل الإنسان عقله، ولم يتعلّم العلم النافع هبط من مستوى الإنسانية إلى مستوى آخر أقل منه؛ كما أنّ العلم النافع يلحق صاحبه بأهل الخير والأجر والصلاح، والجهل يلحق صاحبه بأهل الرذاعة والسوء. وهذا ما أراد الرسول (ﷺ) توضيحه حين ضرب مثل الدنيا: فقال: "مثل الدنيا مثل أربعة رهط: رجل آتاه الله علما وآتاه مالا، فهو يعمل بعلمه في ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤت مالا، فيقول: لو أنّ الله تعالى آتاني مالا مثل ما أوتي فلان لفعلت فيه مثل ما يفعل، فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤت علما، فهو

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 291.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص 92، 96.

يمنعه من الحق وينفقه في الباطل ورجل لم يؤته الله علما ولم يؤته مالا، فيقول: لو أن الله تعالى آتاني مثل ما أوتي فلان لفعلت فيه مثل ما يفعل فلان، فهما في الوزر سواء".¹

يعد هذا القول مثالا حيا من أمثلة تأثير العلم النافع، والجهل غير النافع على صاحبهما سواء كان غنيا أم فقيرا، ولما كان باستطاعة الأمثال أن تصوّر المعاني بصورة الأشخاص؛ لأنها أثبتت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ضرب الرسول (ﷺ) مثل الدنيا بأربعة رهط؛ فترك هذا التصوير في نفس المتلقي أثرا حيا يدرك به أهمية العلم النافع وأضرار الجهل، وزاد التمثيل المعنى وضوحا؛ لأنه من أشد الآليات تأثيرا في الخطابات وفي ذلك يقول "طه عبد الرحمن" لا أحد يناع أن آليات التمثيل من أوسع الطرق الاستدلالية استعمالا، ومن أشدها تأثيرا في الخطابات الإنسانية²؛ لأنه يدفع السامع إلى التدبر والتأمل والتفكير.

3.6. الاستشهاد بالشعر:

ينهض الشعر بوظيفة حجاجية واضحة؛ بما يملك من قدرة عجيبة على توجيه العقول والقلوب برسم استراتيجيات الإقناع؛ قصد حمل المتلقي على الإذعان، يقول "أبو بكر العزاوي" مبرزا البعد الحجاجي في الشعر: "إنّ النصّ الشعري إذن ليس لعبا بالألفاظ فقط وليس نقلا لتجربة فردية ذاتية فحسب؛ إنّه يهدف كذلك إلى الحث والتّحريض والإقناع والحجاج، وهو يسعى إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته، وإلى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومواقفه"³؛ يؤكّد "أبو بكر العزاوي" من خلال قوله على القوة الحجاجية للشعر وعلى دوره في التأثير.

ونظرا لأهمية الشعر استشهاد الخطيب "عبد الحميد مهدي" بقول أمير الشعراء أحمد

شوقي⁴:

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص292.

² - طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2، بيروت: المركز الثقافي العربي، ص174.

³ - أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ط1، المغرب: 2007، الأحمديّة للنشر، ص35.

⁴ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص293.

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي
يبني وينشئ أنفسا وعقولا

يكتسي الشَّعر أهميَّة بالغة في الحجاج؛ لقدرتَه على إقناع العقول والأذهان واستمالة النفوس، فهو أحد فروع البلاغة الهادفة إلى الاستمالة والإقناع، وتكمن علاقة البلاغة بالحجاج في انتقاء الكلمات المعبِّرة والبليغة، وتنظيمها في أسلوب جميل، وهذا ما يدعم الطاقة الحجاجيَّة للشَّعر. ومنه نستنتج بأنَّ الوسائل البلاغية وسائل تأثيريَّة بما "توفره للقول من جماليَّة قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه، فإذا انضافت تلك الجمالية إلى حجج متنوِّعة، وعلاقات حجاجيَّة تربط بدقة أجزاء الكلام وتصل بين أقسامه، أمكن للمتكلِّم تحقيق غايته من الخطاب؛ أي قيادة المتلقي إلى فكرة ما أو رأي معيَّن، ومن ثمة توجيه سلوكه الوجهة التي يريد لها؛ أي أنّ الحجاج لا غنى له عن الجمال؛ فالجمال يرفد العمليَّة الإقناعيَّة وييسر على المتكلِّم ما يرومه من نفاذ إلى عوالم المتلقي الفكريَّة والشعريَّة"¹؛ يكشف هذا القول عن علاقة الحجاج بالبلاغة التي ركّزت على البيان باعتباره وسيلة أساسيَّة من وسائل الإقناع؛ حيث يعمد المتكلِّم إلى توظيف هذه الآلية بخصائصها وإمكانياتها الإقناعيَّة؛ لتكون بمثابة ركائز أساسيَّة لتقوية الحجاج ومن هذه الوسائل: الاستعارة والكناية والتشبيه.

7. البعد الحجاجي للأساليب البلاغيَّة:

1.7. الاستعارة عمليَّة ذهنيَّة:

تعدّ الاستعارة من وسائل الحجاج التي يستخدمها المتكلِّم للإقناع والتأثير، وفي ذلك يقول "الجرجاني": "فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلّما كان قدمه أثبت في مكانه، كان موضعه من الكلام أضمن به، وأشدّ محاماة عليه، وأمنع لك من أن تتركه وترجع إلى الظاهر بالتشبيه فأمر التخيّل فيه أقوى، ودعوى المتكلِّم له أظهر وأتم"²؛ أفهم

¹ - عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداوليَّة، دراسة في نتاج ابن باديس الأديبي، ص 282.

² - الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 279.

من هذا القول بأن الاستعارة عملية ذهنية تقوم على التقريب بين موضوعين، وذلك بالنظر إلى أحدهما من خلال الآخر، وهنا تكمن قوة الاستعارة، فهي بتقريبها بين عنصرين من نظامين مختلفين تسعى جاهدة لطمس ما بينهما من فروق.

كما تمثل الاستعارة " ضرباً من القياس؛ إذ إن التسليم بالمقدمتين الصغرى والكبرى يدفعان المتلقي إلى التسليم بالنتيجة إلا أن الاستعارة أكثر إقناعاً من القياس، وذلك تحديداً بفضل المزج الذي تحدثه بين المستعار والمستعار له جاعلة بذلك توحد العناصر المنتمية إلى أنظمة مختلفة أمراً مدركا¹. على هذا النحو نفهم بأن الاستعارة الحجاجية ليست مجرد زخرف في القول وتنميق له، بل هي أداة أساسية في الحجاج على أن ما ينبغي تأكيده فعلاً هو أن القول الاستعاري أكثر حجاجية من القول العادي، ولنفهم هذا الأمر لابد أن نعود إلى مفهوم ارتبطت به القوة الحجاجية للاستعارة أشد الارتباط وهو مفهوم السلم الحجاجي، "الذي يعدّ من المفاهيم الأساسية في النظرية الحجاجية التي أسهمت إلى حدّ كبير في وصف الميكانيزمات التي تحكم الاشتغال الحجاجي للغة والواقع أنّ ما اقترحه "ديكرو" (Ducrot) من تحليل للسلم الحجاجي، ما هو إلا وصف للأقوال وتحديد مراتبها باعتبار وجهتها وقوتها الحجاجيتين"²، ولأوضح العلاقة التي تربط الاستعارة بالسلم الحجاجي أحل البيت الشعري الذي نقله الخطيب "عبد الحميد مهدي" عن الشيخ "عبد الحميد بن باديس"

يا نشء أنت رجاؤنا ويك الصباح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب³

وإذا حاولت المقارنة بين القول المجازي فيه بالقول الحقيقي سأحصل على الآتي:

أ. العلم وسيلة نواجه بها صعوبات الحياة.

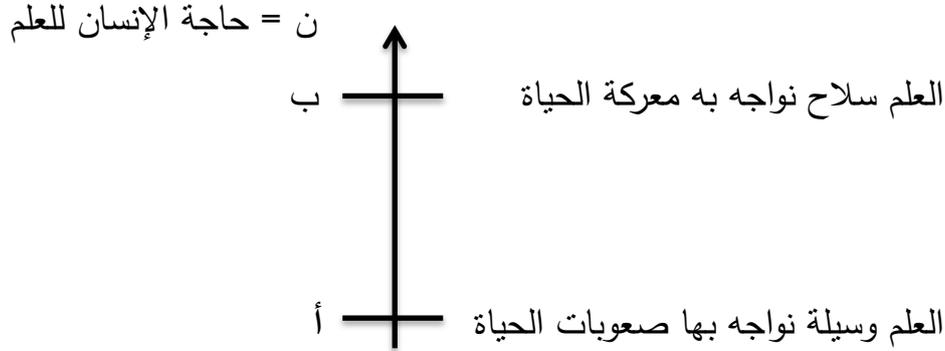
ب. العلم سلاح نواجه به معركة الحياة.

¹ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه ص254.

² - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص255.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص322.

إنّ القول "ب" يرد في أعلى السلم الحجاجي مقارنة بالقول "أ"؛ ذلك أنّ القول الاستعاري له قوّة حجاجية عالية تملو قوّة القول العادي، وبذلك يكون السلم الحجاجي على النحو التّالي:



أستنتج أنّ العلاقة وطيدة بين مفهوم السلم الحجاجي، ومفهوم القوّة الحجاجيّة؛ فالقول الذي يقع في أعلى درجات السلم هو الدليل الأقوى وتأسيساً على ما سبق؛ فإذا كان المخاطب يتوجّه إلى مخاطبه؛ قصد إقناعه بأمر معيّن أو التّأثير فيه؛ فإنّه لا محالة يوظف فئة حجاجيّة؛ تكون بمنزلة دعامة استدلالية؛ لغرضه الذي من أجله كانت العمليّة التّخاطبية وهذه الحجج التي يوردها لن تكون على درجة من القوّة، بل تختلف وتتفاوت في ما بينها وفق القوّة والضعف.

7.2. الكناية أداة لتثبيت المعنى:

تعدّ الكناية من وسائل إثبات المعنى والاحتجاج له؛ وفيها يقول "الجرجاني" "أمّا الكناية فإنّ السّبب في أن كان للإثبات بها مزية، لا تكون للتّصريح أن كلّ عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه، أنّ إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها أبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها هكذا ساذجا غفلا"¹، والمراد بالكناية هاهنا "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللّغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود؛ فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه"²، وقد عبّر الخطيب "عبد الحميد مهدي" عن

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص54.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

التخلف والضعف والتقهقر الذي أصاب الأمة الإسلامية باستعمال الكناية في قوله: "إن الذين يتعلمون العلوم المختلفة، ويبحثون بجد وذكاء وتقوى إلى آخر لحظة من حياتهم لإيجاد الحلول النافعة والفاعلة التي تبين قيمة الإسلام، وترفع من شأن الأمة الإسلامية المنهكة والممزقة وتساهم في حل مشاكلها وأزمته، يرفع الرسول (ﷺ) مقامهم في الجنة"¹.

وصف الخطيب "عبد الحميد مهدي" التخلف الذي أصاب الأمة الإسلامية، نتيجة إهمالهم لبعض العلوم بقوله: (الأمة الإسلامية المنهكة والممزقة) ولهذا على جميع المسلمين أن يبذلوا جهودهم في طلب العلوم المختلفة؛ ليعيدوا لهذه الأمة مكانتها بين شعوب العالم.

3.7. البعد التداولي للتشبيه:

يعدّ التشبيه آلية من آليات الحجاج البلاغي، يعتمد عليها المتكلم للوصول به إلى قصده ويمكن أن يأتي كحجة ليدعم النتيجة التي تكون صريحة، أو على شكل نتيجة مدعمة بواسطة مجموعة من الحجج، والشكل الثاني هو الذي جاء في قول الخطيب: "الجهل يشوش على الإنسان نيته، ولا يعطيه القدرة على التمييز بين الحق والباطل؛ فالجهل ظلام؛ فترى الجاهل كالذي يمشي في الظلمات، يخطب خطب عشواء، فيفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعله العدو بعده"²؛ حيث شبه الخطيب "عبد الحميد مهدي" الجاهل بالأعمى الذي يمشي في الظلمات فيخطب خطب عشواء؛ ليبين حال المشبه في ذهن المتلقي ويمكنها؛ لأنّ قوّة التشبيه تتأتى من قدرته على التقريب بين عنصرين من نظامين مختلفين مع محاولة جاهدة لطمس ما بينهما من فروق"³؛ أي جعل عنصر ما مساويا لعنصر آخر من خلال الكشف عن علاقة الشبه التي تجمع بين المشبه والمشبه به.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص295.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 291.

³ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص174.

ويعتبر التشبيه عند "السكاكي" أصلاً من أصول علم البيان وقد قال عنه: "وهو الذي إذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني"¹؛ ذلك أن التشبيه قدرة على تقريب المعاني إلى ذهن المتلقي من خلال التفكير في علاقة المشبه بالمشبه به؛ فهو احتجاج لقضية ما من خلال التدبر والتأمل، ويدخل في ذلك ما عالجه الفلاسفة تحت مفهوم القياس.

8. القياس وأنواعه:

استعمل "طه عبد الرحمن" في كتابه "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" مصطلح القياس وأطلق عليه تسمية "الاستدلال الخطابي"؛ فالقياس "فعالية استدلالية خطابية"² ووسيلة حجاجية يعتمد عليها المحاجج؛ لتدعيم الطاقة الحجاجية لخطابه؛ ليكون أكثر نجاعة وإقناعاً. وعليه "فإن الاستدلال القياسي يحتوي على الآليات التي يتوالد بها كل خطاب طبيعي وتتكاثر بها أجزؤه، وتتماسك في ما بينها"³، وهنا تكمن فعالية الاستدلال القياسي ويؤدي القياس دوراً كبيراً "في هذه الصناعة عند من يحذلق استعماله؛ لأن لمقدماته صوراً عديدة؛ فمنها مثلاً ما هو معلوم علم اليقين ومنها المظنون، ومنها المحسوس، وكلّ منها درجته الحجاجية؛ بحيث يعتمد المحاجج إلى التركيز على الجزء الذي يخدم بناءه الحجاجي"⁴؛ لأن القياس يتوفر على إمكانيات كثيرة توفي الخطاب حقه من الإقناع. فمن الخطاب "يستمد مسلماته، وفيه يبني عملياته، وبه يربط قواعده (...)" لذلك اختص بصفات تداولية منطقية متفردة تجعل الآليات القياسية لا ينحصر عملها في قطاع فكري معين، وإنما يشمل كل خطاب طبيعي أياً كانت لغته، وأياً كان مجاله وأياً كان مستواه"⁵؛ ولذلك تتنوع أنواع الأقيسة بحسب تنوع النصوص الحجاجية.

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، ط1. بيروت: 1983، دار الكتب العلمية، ص 439.

² - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المغرب: 2000، المركز الثقافي العربي، ص 98.

³ - المرجع نفسه، ص 115.

⁴ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 197.

⁵ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 140.

وقد تذكر جميع " أركان القياس (المقدّمة الكبرى والصغرى والنتيجة)؛ فيسمى القياس في هذه الحالة قياساً منطقياً كاملاً. وقد يضمّر أحد أركانه ويسمى قياساً مضمرًا، ومعيّاره أنّه قياس تضمّر فيه المقدّمة، وهي عادة المقدّمة الكبرى¹؛ ومن المهم الإشارة هنا إلى أنّ دراسة القياس بأنواعه، وتتبع أمثله الوارد في الخطاب ليس بالأمر اليسير "لأنّ مستعملي اللّغة لا يستدلون بالمعنى الشكلي بل يستدلون بمقدّمات يختارون إظهارها حسب ما تقتضيه مقامات القول أو عدم إظهارها، اعتماداً على ذكاء القارئ أو لاعتبارات تداوليّة أخرى"²؛ لأنّ الترتيب المنطقي لمكوّنات الحجاج يفترض أولاً مقدّمة كبرى ثمّ صغرى ثمّ نتيجة، وهذا الترتيب داخل النّص أو الخطاب لا يرد على نحو الترتيب السّابق؛ فهو عائد لأهداف المحاجج ومقاصده. وتقتضي كثير من الجمل التي تسعى إلى المحافظة على الترتيب المنطقي لمكوّنات الحجاج وجود جمل تتكرّر بين صيغتي المقدّمة الكبرى والصغرى، وإنّ تعذر ذلك؛ يلجأ الدّارس إلى تغيير شكل الجمل الواردة في الأمثلة مع المحافظة على معانيها في كثير من الأحيان.

وغاية دراسة القياس هو تتبع طريقة ربط مكوّنات الحجاج من المقدّمة إلى النتيجة، وهدفي من دراسة القياس في خطابات الخطيب "عبد الحميد مهدي" حول موضوع "العلم" هو اكتشاف صور من صور الحجاج المبتوثة في الخطاب، ومن أنواع القياس الواردة في مدونتي ما يلي:

- التّعارض والتضاد:

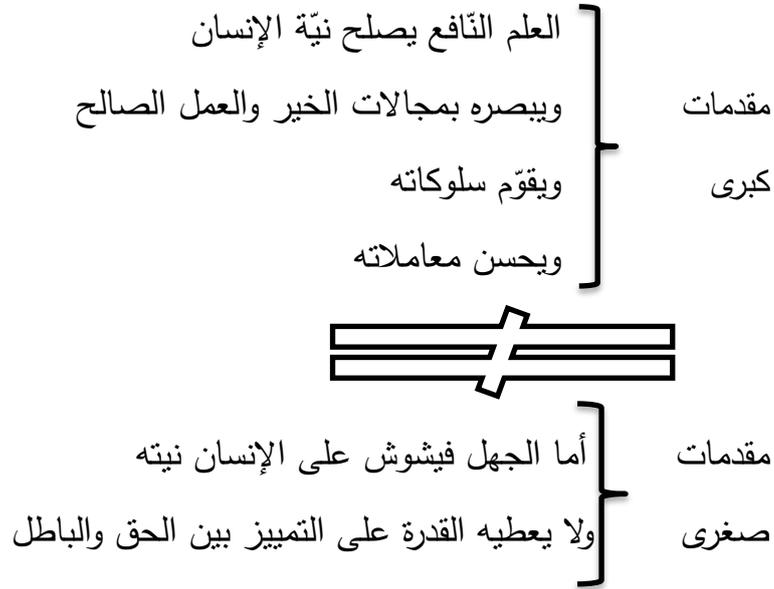
ومن أمثلة قياس التّعارض والتضاد³ قول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "العلم النّافع يصلح نيّة الإنسان ويبصره بمجالات الخير والعمل الصّالح، ويقوم سلوكاته، ويحسن معاملاته؛ فالعلم نور والنّور يضيء الطريق أمام الإنسان، فيبصر كلّ شيء، وأما الجهل

¹ هشام فروم، تجلّيات الحجاج في الخطاب النبوي، دراسة في وسائل الإقناع الأربعة النوبية نموذجاً، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، باتنة: 2009، ص206.

² عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ط1، المغرب: 2006، إفريقيا الشرق، ص39.

³ عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، ص188.

فيشوش على الإنسان نيته، ولا يعطيه القدرة على التمييز بين الحق والباطل، فالجهل ظلام"¹، وقد بني القياس في القول على النحو التالي:



النتيجة

العلم نور والجهل ظلام

- القياس المنطقي مكتمل الأركان:

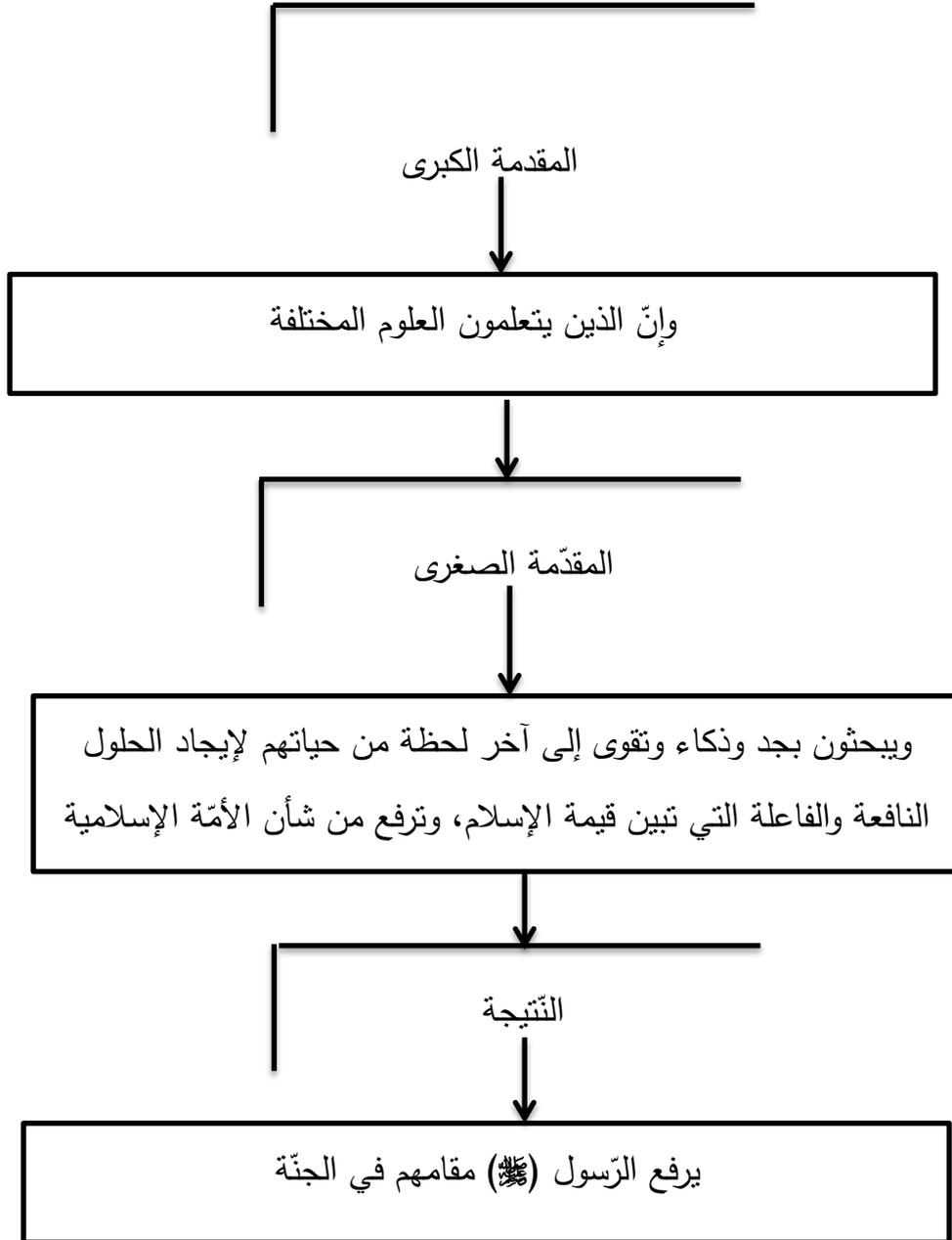
يعدّ القياس المنطقي دعامة أساسية يرتكز عليها الخطاب الحجاجي؛ ولأهميته لا يكاد يخلو منه أي خطاب إقناعي، لما له من قدرة على التأثير، وحمل السامع على الإذعان نظراً للترباط الوثيق والمنطقي الموجود بين مقدماته للوصول إلى نتائج خاضعة لتلك المقدمات ومن أمثلة القياس المنطقي في مدونتي والذي شكله:



¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 293.

- قول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "وإنّ الذين يتعلمون العلوم المختلفة، ويبحثون بجد وذكاء وتقوى إلى آخر لحظة من حياتهم لإيجاد الحلول النافعة والفاعلة التي تبين قيمة الإسلام، وترفع من شأن الأمة الإسلامية المنهكة والممزقة، وتساهم في حل مشاكلها وأزماتها، يرفع الرسول (ﷺ) مقامهم في الجنة"¹. يظهر شكل القياس في هذا القول كالآتي:

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 297.



يبدو من خلال هذه الأقوال أنّ هناك ترابطاً دلاليّاً منطقيّاً بين الأقوال الثلاثة؛ لأنّ المقدّمة الصغرى جاءت منضويّة تحت المفهوم الذي قدمته المقدّمة الكبرى؛ لذلك تكمن وظيفة القياس المنطقي في الخطاب الإقناعي في الانتقال ممّا هو مسلم به عند المخاطب؛

أي من المقدّمة الكبرى إلى النتيجة: و"إذا لم يقبل المخاطب المقدّمة الكبرى كان الحجاج سدى"¹؛ أي لا فائدة منه.

- القياس المضمّر:

الأصل في هذا النوع قياس منطقي، "غير أنّ مقدّمته الكبرى محذوفة، بحيث تستنبط من النتيجة والمقدمة الصغرى وبالاستعانة من الكلام الذي يسبق أو تكشف من طبيعة الموضوع"²؛ أي أن السياق هو الذي يساعدنا على التّوصل إلى المقدمة الكبرى وغالبا ما يكون شكل القياس المضمّر على النحو التّالي³:

- مقدمة كبرى (محذوفة)؛

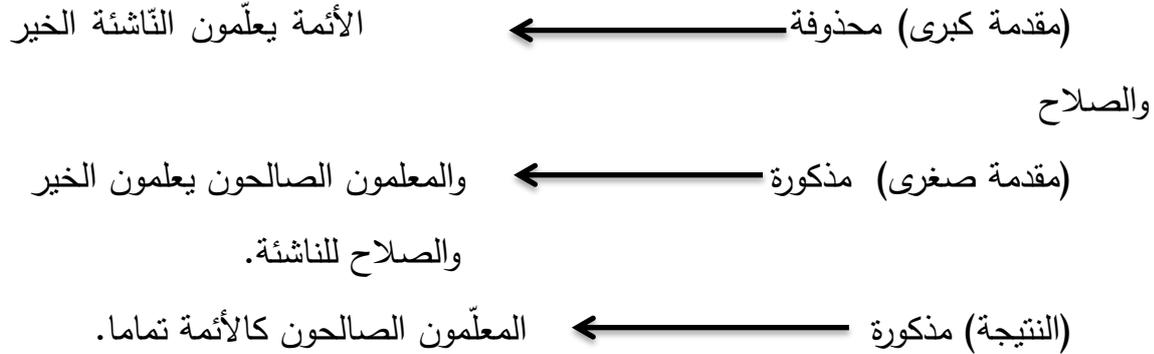
- مقدمة صغرى (مذكورة)؛

- نتيجة (مذكورة).

ومن أمثلة القياس المضمّر الواردة في خطبة الخطيب "عبد الحميد مهدي" قوله:

المعلّمون الصّالحون كالأئمة تماما؛ لأنّهم يعلمون الخير والصلاح للناشئة⁴.

تشكّل القياس المضمّر في هذا المثال على الشّكل التّالي:



¹ - محمد العبد، النص والخطاب والاتّصال، دط، القاهرة: 2005، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ص218.

² - عباس الحشاني، خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، ص194.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص293.

وحين قال: " فالمرأة المتعلمة مدرسة نافعة، والمرأة المتعلمة والمثقفة تؤثر بسلوكاتها الحكيمة بقوة وتكوّن أجيالا من العلماء ومن الرجال الصالحين"¹؛ فقد بني هذا القياس المضمّر على هذا النحو:

(مقدمة كبرى) محذوفة ← المدرسة تكوّن أجيالا من العلماء ومن الرجال الصالحين.

(مقدمة صغرى) مذكورة ← والمرأة المتعلمة تكوّن أجيالا من العلماء والرجال الصالحين.

النتيجة ← المرأة المتعلمة مدرسة.

ولذلك يجب أن نعطيها كل الحقوق ومنها: الحق في التعليم والحق في التعبير، وينبغي إنزالها المنزلة التي تليق بها، "وإنّ موقف الدّين بوصفه وحيا منزلا وبوصفه دين الفطرة يعطي المرأة حقها الطبيعي، ولكن الثقافة بوصفها صناعة بشرية ذكورية تبخس المرأة حقها ذاك وتحيلها إلى كائن ثقافي مستلب وهذا ما يجعل تاريخ المرأة استشهادا طويلا"²، ولأنّ الإسلام دين العدالة؛ فإنّه يأمر أتباعه بتطبيق العدالة في كلّ شيء، ومن العدالة الاعتراف بحقوق المرأة؛ لأنّها أساس بناء المجتمع باعتبارها معدّة الأجيال؛ والمرأة المتعلمة مدرسة؛ لأنّها تعلم أبناءها وتربّهم على الأخلاق السّامية والمبادئ العالية.

هذه هي نظرة الإسلام للمرأة، لكن هناك من ينظر إليها نظرة سلبية، ويبخس حقها ويرى بأنّ مهمتها تقتصر على أداء الواجبات المنزلية، ناسيا تاريخ المرأة التي جاهدت وكافحت بكل ما أوتيت من قوة من أجل إعداد الأجيال التي تخدم الوطن، ووقفت بجانب الرجل في مواقف كثيرة، وأثبتت قدرتها على مواجهات التّحديات.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص 317.

² - ساجد العبدلي، القراءة الذكية، كيف تقرأ بذكاء.. بسرعة.. وبإدراك كبير، ص 20.

المبحث الثاني: أشكال الحجاج وحتمية المواجهة:

يعني الحجاج بمعناه العادي "طريقة عرض الحجج وتقديمها، فيكون بذلك الخطاب ناجحاً فعالاً"¹؛ إذ لا تكمن أهمية الحجج في انتقائها، وإنما تكمن كذلك في طريقة عرضها؛ "حيث لا يعتبر ترصيف الحجج الواحدة بجانب الأخرى كافياً للإقناع... لأنّ المستمع واقع أثناء الكلام تحت تأثير الخطاب وبانعدام نظام الحجج قد لا تؤدي حجة بعينها وظيفتها المتمثلة في التأثير في المتلقي وإقناعه"²؛ ويكون موضوع نظرية الحجاج وفق هذا "درس التقنيات الخطابية التي بدورها تدفع أو تحمل الأذهان إلى التسليم لما يعرض عليها من أطروحات أو الزيادة في حجم ذلك التسليم"³؛ فالهدف من عرض الحجج هو حمل المتلقي إلى التسليم والإذعان وتوجيهه إلى الوجهة التي يريدها المتكلم؛ ولهذا نجده ينتقي أقوى الحجج لتدعيم الطاقة الحجاجية لأقواله؛ وهذا ما لاحظته من خلال تتبعي لمختلف الحجج التي اختارها الخطيب "عبد الحميد مهدي" ليؤكد على أهمية "العلم" في بلوغ المجد؛ وبناء الحضارة، وخاصة والعالم الإسلام يواجه مخاطر جمة.

وتعدّ العولمة من أخطر هذه المخاطر وهي "طريق غربي جديد للمواجهة مع الإسلام ومحاربة مبادئه وأسسها، بعد أن فشل صراع الحضارات في تحقيق هذه الغاية، والدعامة التي تقوم عليها العولمة هي تفوق الغرب في مجال الاتصالات والمعلومات وصور التكنولوجيا المختلفة، وتروج الدعاية للعولمة بأنها تعمل للوحدة بين الشعوب؛ ليتمكن عالم واحد لا يقف فيه فريق ضد فريق... ولكنّها دعاية كاذبة، إذ إنّها شكل جديد من أشكال الاستعمار"⁴؛ أي أنّها في حقيقتها تعمل على طمس الهويات؛ وغزو الثقافات والقضاء على الدين والقيم والفضائل؛ الأمر الذي يستدعي المواجهة والمجابهة والتّحدي، وحينما أعرض لحتمية المواجهة يثور تساؤل:

¹ - صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مدخل ونصوص، ط1، سوريا: 2008، ص21.

² - ينظر محمد الوالي، الاستعارة الحجاجية بين أرسطو وشايم بيرلمان، فكر ونقد، المغرب، ع61، ص2004.

³ - Perelman et Tyteca. Traité de l'argumentation; édition de l'université de Bruxelles. 5^{ème} édition, P5

⁴ - عماد علي عبد السميع حسين، تجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع روح العصر، ضرورة دعوية في ضوء

المستجدات والمتغيرات المعاصرة، ص64.

هل المسلمون اليوم أقل موهبة من غيرهم؟ وهل هم أقل من غيرهم في ما يمتلكون من طاقات وإمكانات بشرية ومادية؟

إنّ المشكلة ليست في أن المسلمين ليس لديهم مواهب أو قدرات، وإنّما في عدم إحسانهم والاستفادة منها، وقد أحسن الشيخ "محمد الغزالي" حين أشار في كتابه "الإسلام والطاقات المعطلة" أنّنا في البلاد الإسلامية أساتذة في تعطيل الطاقات ووآد المواهب والقدرات¹؛ فالأولى بنا أن نحسن استغلال الطاقات الإسلامية، وهذا ما سعى الخطيب "عبد الحميد مهدي" إلى التأكيد عليه من حديثه عن بعض الطاقات الإسلامية التي شكلت رمزا من رموز التاريخ، وعبرت عن انتمائها الحقيقي.

1. الرموز المعبرة عن الانتماء الثقافي والاجتماعي:

وتؤسس حجة الرّمز على "الانتماء، ولكنّه انتماء اجتماعي أو ثقافيّ خالص لذلك تتغيّر الأوساط الاجتماعيّة والبيئات الثقافيّة وهي عديدة ومتنوّعة؛ فهي الوطن، واللّغة والمعتقد وهي أيضا أبطال الأساطير وعظماء التاريخ، وقد تكون إلى ذلك كلّه معلّما أو راية وعلى هذا النحو تعبّر الرموز عن انتماء الفرد إلى المجموعة، انتماء وجدانيا، بل مقدسا في أغلب الأحيان"²؛ وعلى هذا تكون حجة الرّمز ذات قيمة؛ لأنّ للرمز دورا كبيرا في التأثير على المتلقي.

ولذلك ينبغي للمحتج أثناء بناء خطابه الحجاجي أن يراعي طبيعة متلقيه، وأن ينتقي الرموز المعبرة عن انتمائه الثقافي والاجتماعي، وهو ما يفترض في المحتج ثقافة واسعة فيوظفها بطريقة ذكيّة تمكّن من الإقناع والحمل على الإذعان، وتجعله قادرا على النفاذ إلى عالم المتلقي والفعل فيه بتغيير آرائه ومواقفه، بل وما يرتئيه لنفسه من سلوك وهو شرط

¹ - محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، نقلا عن: عماد علي عبد السميع حسين، تجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع روح العصر ضرورة دعوية في ضوء المستجدات والمتغيرات المعاصرة، ص67.

² - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيتة وأساليبه بنيتة وأساليبه، ص235.

أساسي لنجاح الخطاب؛ به يقنع المحتج لمبدأ أو فكرة متلقيه، ويحمّله على الإذعان لما ورد في خطابه.

وفي خضم حديث الخطيب "عبد الحميد مهدي" عن ذكرى يوم العلم استحضر رمزاً من رموز الجزائر وهو الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في قوله: "أيها المسلمون الأفاضل تمر بنا هذه الأيام ذكرى يوم العلم التي تصادف ذكرى وفاة العالم التقي النقي الخطيب عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي جمع الثوابت الوطنية في كلمته المشهور: "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، والجزائر وطننا".¹

يرجع الفضل في تأسيس جمعية العلماء المسلمين إلى الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي فكر رفقة نخبة من أفاضل وأبطال الجزائر في تأسيس جمعية يجتمع فيها المسلمون ويناقشون أفكارهم فيها، ويخططون لمواجهة العدو الذي سعى بكل ما أوتي من قوة إلى طمس الهوية الوطنية؛ ولذلك رأى الشيخ "عبد الحميد بن باديس" بأنه من الضروري العمل على تقوية العلاقة بين المسلمين، وتصحيح ما أفسده الاستعمار، والقضاء على الأفكار المضللة التي نشرها، ولا يمكن تجسيد ذلك إلا بتأسيس الجمعية فهو القائل: "إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله، إذا كانت لهم قوة، وإذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرّة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة"²؛ وهكذا أسس جمعية العلماء المسلمين؛ لبعث النهضة في الجزائر وعمل مع كوكبة من علماء الجزائر المخلصين في إصلاح ما أفسده الاستعمار الفرنسي، وإحياء الشعب الجزائري بنور العلم والإيمان، وعلى هذا يكون الخطيب قد أحسن اختيار الرمز الذي يعبر عن العلم؛ والذي يؤدي استحضاره إلى تحريك عاطفة المستمع؛ فيقتدي بالشيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي جاهد وضحي مع إخوانه من أجل المحافظة على الثوابت الوطنية.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 321.

² - عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، د، ط، الجزائر: 1964، دار الكتاب الجزائري، ص 428.

وتتمثل حجة التّضحية في "إثبات قيمة شيء، أو قضية معيّنة بواسطة التّضحيات التي قدمت أو ستقدم من أجلها"¹؛ ويوضحها قول الخطيب "عبد الحميد مهدي" وقبل أيام فقط مرّت بنا ذكرى استشهاد أحد إخوانه- إخوان عبد الحميد بن باديس- من العلماء البارزين في جمعيّة العلماء، ألا وهو الشهيد الشيخ العربي التبسي رحمه الله، فعلى مثل عطاء وتضحيات هؤلاء العلماء نربي أنفسنا وأبناءنا لنكون خير خلف لخير سلف"²؛ فقد أسسوا هذه الجمعيّة من أجل رسالة نبيلة جسّدها شعار "الإسلام ديننا العربية لغتنا الجزائر وطننا"؛ حيث أصبح هذا الشعار الهدف الأساس الذي ناضل من أجل الحفاظ عليه ثلّة من العلماء؛ بغية إعادة الدّين إلى ضيائه كما في عهد السّلف الصالح.

كما أدى علماء الجمعيّة دورا كبيرا في الدفاع عن العلم، وإنشاء الزوايا لتحفيظ القرآن وبناء المدارس لتعليم الناشئة أصول الدّين وعلوم اللّغة؛ لأنّها كيانا يضمّ بين طياته تراثا وفكرا وثقافة وحضارة، فهي وعاء الدّين وحافظته، وقد سعى الاستعمار إلى طمسها بكلّ ما أوتي من قوّة وإمكانات.

لقد بذلت جمعيّة العلماء المسلمين بقيادة الشيخ عبد "الحميد بن باديس"؛ جهدا كبيرا في الحفاظ على مقوّمات الأمّة، وحرصت على التّعليم؛ لأنّه أساس تقدّم المجتمع، ووسيلة من وسائل مواجهة التّحديات التي فرضها الاستعمار الفرنسي على الجزائر سنوات طويلة ولا تزال تفرضها المستجدات الحضارية على العالم العربي؛ وعلى هذا تكون حجة التّضحية طريقة في الاستدلال مثيرة، "ومأتى الإثارة فيها أنّ مفهوم التّضحية ذاته غامض مبهم يمكن أن يفهم أكثر من فهم دون قدرة على الحسم إذ ما يعتبره البعض تضحية في سبيل أمر أو غاية قد لا يراها آخرون كذلك"³؛ فاختلاف التّصور الواضح للمفاهيم يؤدي إلى الاختلاف في تقدير الأشياء وإعطائها قيمتها الحقيقية.

¹ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه ص 174.

² عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص 322.

³ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص 250.

ولذلك تعتمد الخطابات الحجاجية على المشترك "أي على الاستناد إلى ما يشكل موضوع اتفاق بين المتلقين، أو يمثل جملة من المعارف المشتركة الشائعة بينهم، ذلك أنّ للمشارك سلطة على النفوس؛ فهي تدعن لما تعودت عليه"¹، وبالتنظر إلى المدونة وقفت على بيت شعري يعتمد فيه الحجاج على مواضع مشتركة، نقله لنا الشيخ "عبد الحميد مهدي" عن الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي نادى الجيل الجديد مع إخوانه العلماء قائلاً²:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب

رأى الشيخ "عبد الحميد بن باديس" بأنّ النشء هم المستقبل، فطفل اليوم رجل الغد ولهذا أشرف على تنشئته وتربيته وتعليمه؛ ليكون خير خلف لخير سلف، ولقد شكلت المعاني الواردة في هذين البيتين موضوع اتفاق بين المتلقين، فليس الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الوحيد الذي ينظر إلى النشء على أنّهم آمال الأمة، بل جميع الناس في العالم يتفقون معه في كون النشء هم المستقبل، وإذ يستحضر الخطيب هذين البيتين الشعريين؛ فإنّه يحاول التأثير في المستمعين؛ ليقوموا برعاية أبنائهم، ويحرصوا على تنشئتهم التنشئة الصحيحة، ويبدلوا الجهد في تعليمهم؛ وأن يفعلوا ذلك إيماناً منهم بأنّ النشء هم من يجلبون الخير للأمة، ولذلك يجب على الأولياء أن يتحمّلوا مسؤولياتهم تجاه أبنائهم.

2. المسؤولية من العلاقة السببية إلى تقسيم الكل إلى أجزائه:

يجب على المسلمين أن يستمروا في طلب العلم، وأن يحنوا أبنائهم على ذلك ويتابعوهم لأنّ "صغر سنهم، ومرور الكثير منه بمرحلة المراهقة يجعلهم في غاية من الحساسية والهشاشة والضعف، وبالتالي يكونون عرضة للتيارات الوافدة التي قد تجرهم إلى الانحرافات المختلفة المتوقعة: من رفاق السوء، وصحبة الجنس الآخر وتعاطي

¹ سامية اليريدى، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه ، ص 287.

² عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 322.

التدخين، ولربما تناول المخدرات والمسكرات والموهنات، وكلها موجودة في واقعنا المعيش وعليه فإنني أنصح أولياء التلاميذ بمراعاة ما يلي: مراقبة أبنائكم وبناتكم¹.

قدّم الخطيب "عبد الحميد مهدي" جملة من الأسباب التي تحتمّ على الأولياء مراقبة أبنائهم؛ فيجنّبهم الوقوع في الانحرافات، التي تدفعهم إلى التصرفات غير المسؤولة، وهو بذلك يربط الأحداث بشكل تتابعي واضح، وبذلك تكون العلاقة السببية من أبرز العلاقات الحجاجية، وأقدرها على التأثير في المتلقي؛ حيث لا يكتفي المتكلم فيها بربط الأفكار والوصل بين أجزاء الكلام، بل يعمد إلى مستوى أعمق، فيجعل بعض الأحداث أسبابا لأحداث أخرى، ويسم فعلا ما بنتيجة متوقعة لفعل سابق، ويجعل موقعا معينا سببا مباشرا لموقف لاحق²؛ فلا شك أن الآباء إذا أهملوا أبنائهم؛ فإنهم سيتصرفون تصرفات غير مسؤولة، كزّد فعل، أو انتقام...

وإنّ الآباء هم المسؤولون عن ذريتهم من الناحية المادية والمعنوية والروحية بدليل قوله (ﷺ): "الرجل راع في أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته. والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيته، ألا فكلّم راع وكلّم مسؤول عن رعيته"³.

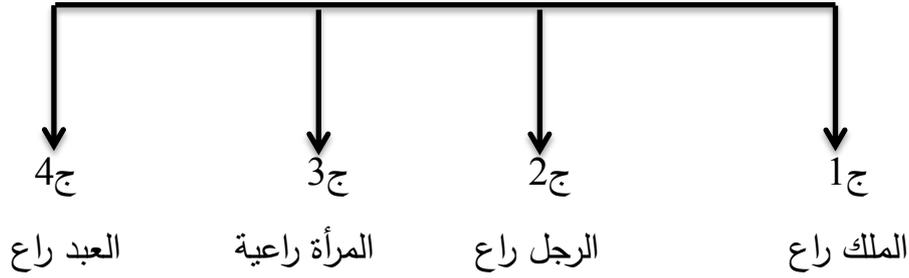
عرض الرسول (ﷺ) في هذا الحديث قضية تضمنها قوله: "كلّم راع ومسؤول عن رعيته" وهي القضية الإجمالية للحديث ثم فرعها إلى أجزاء يمثل كلّ جزء منها حجة تدعم القضية الإجمالية. ويمكن تفصيل الحديث كما يلي:

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 298.

² - ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 299.

القضية الكلية (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)



كل هذه الحجج هي حجج داعمة للقضية المتمثلة في قوله: (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته).

وتشمل مسؤولية الآباء توفير الحاجيات المدرسية لأبنائهم؛ ولأنّ الدّخول المدرسي مكلف جداً؛ فإنّ الخطيب قد عرض لقضية مهمّة ألا وهي ارتفاع تكاليف الدّخول المدرسي؛ حيث قال "إنّ الدّخول المدرسي مكلف جداً من النّاحية الماديّة: ك شراء الألبسة الجديدة لأبناء المتدرسين، وشراء الكتب والأدوات المدرسيّة، ودفع المستحقات الأخرى، كالتأمين وحق جمعية أولياء التلاميذ وغيرها"¹؛ ثم جزأ هذه القضية إلى أجزاء، فأسهّم كلّ جزء جاء بعد الحجة الكلية في تقويتها وتدعيمها؛ وهذا ما يصطلح عليه بتقسيم الكلّ إلى أجزائه ويقصد به "أن يذكر المخاطب حجته كلياً في البداية، ثمّ يقسمها ويعدد أجزائها، إن كانت ذات أجزاء؛ وذلك ليحافظ على قوتها الحجائيّة، فكلّ جزء منها بمثابة دليل على دعواه"²؛ التي يسعى من خلالها إلى التأثير في المخاطب، ودفعه إلى مساعدة المحتاجين فمن حق أبنائنا علينا "أن نوفر لهم أجواء البهجة والسّرور في مثل هذه المناسبات، ولكن توجد عائلات كثيرة في مجتمعنا تعاني من الفقر والحرمان والاحتياج ولقد سمعنا أن بعضاً من أبناء هذه الأمة حرموا من الدراسة نتيجة لهذه التكاليف الماديّة المرهقة"³؛ ولأنّه ليس بمقدور كل الآباء تغطية التكاليف المدرسيّة، توجه الخطيب إلى أصحاب الأموال ودعاهم إلى المنافسة في الإنفاق فقال: " انظروا إلى هذه العائلات بعين الرحمة، وخصصوا نصيباً

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص 293.

² - عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ص 494.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص 293.

محترماً من أموالكم الطيبة لإغاثة وإعانة هؤلاء المحتاجين من الفقراء واليتامى والمساكين¹.

خرج الأمر (أعينوا)، عن دلالاته الأصلية، والمتمثلة في طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء إلى معنى النصح والالتماس؛ وليؤثر المتكلم في المخاطب، ويحمله على القيام بالفعل المطلوب منه استشهد بقوله (ﷺ): "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله تعالى في من عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه"²؛ دعا الرسول (ﷺ) المسلمين إلى التضامن، والتعاون، وقضاء حاجات بعضهم.

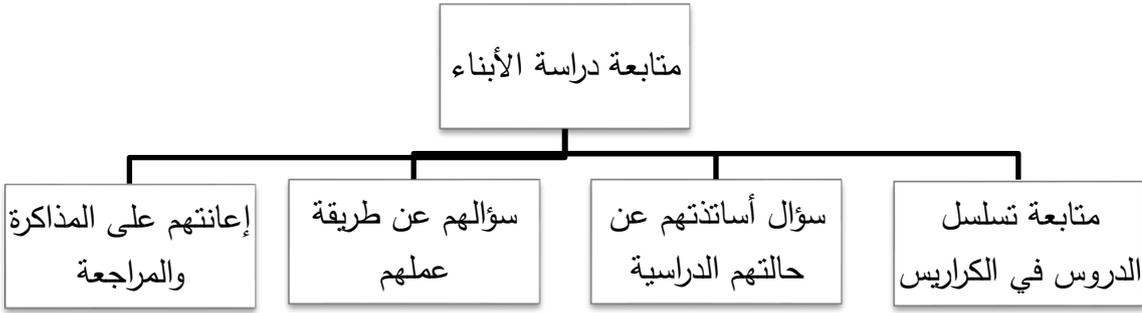
ويوضح الخطيب مسؤولية الآباء تجاه أبنائهم أكثر بقوله: "يجب عليكم متابعة دراسة أبنائكم كأن تتابعوا تسلسل دروسهم في كراريسهم، وأن تسألوا أساتذتهم بين آونة وأخرى عن حالتهم الدراسية، من حيث المشاركة، واهتمامهم بالدراسة، وحسن السلوك، والحضور اليومي وأن تسألوا عن طريقة عملهم، والتركيز والعمق في تفكيرهم، وكيفية معالجة مسائل دراستهم، وأن تعينوهم على المذاكرة والمراجعة في المنزل، وفي أوقات الراحة والعطل، وأن توفرُوا لهم الجو المناسب لذلك"³.

يمثل هذا القول الكل؛ فبمتابعة الأولياء لتسلسل دروس أبنائهم في كراريسهم، وسؤال أساتذتهم ومعلمهم، وإعانتهم على المذاكرة والمراجعة في المنزل... الخ، تتحقق متابعة الأولياء لدراسة أبنائهم، وبالتالي فإن أي جزء من الأجزاء يؤدي بالضرورة إلى الكل. ويمكن توضيح ذلك بالرسم التالي:

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 294.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 294.

³ - المرجع نفسه، ص 299.

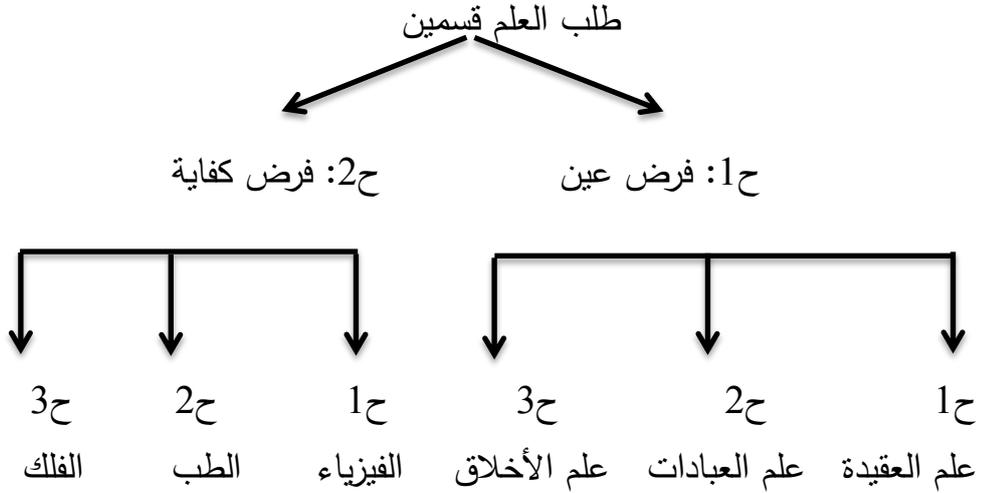


وهكذا يتفوق أبنائنا في دراستهم، ويحققون أهدافهم، وبينون مستقبلهم بناء مرتكزا على أسس علمية، ولا يتحقق ذلك إلا إذا أدركوا أهمية العلم وشرف طالبه.

3. العلم والعلماء بين المعتقد الخاطئ والمفهوم الصحيح:

لقد قسم العلماء "فريضة طلب العلم إلى قسمين: "القسم الأول فرض عين: بمعنى أن من العلوم ما هو واجب وفرض أن يتعلمه كل فرد بعينه في المجتمع الإسلامي كعلم العقيدة، وعلم العبادات وعلم المعاملات، وعلم الأخلاق، والقسم الثاني: فرض كفاية: بمعنى أن العلم إذا قام به البعض كفوا غيرهم؛ كعلوم الفيزياء، والطبيعة والحياة، والطب والرياضيات، والفلك، والزراعة والملاحة، والتكنولوجيا بجميع فروعها، والعلوم العسكرية وغيرها"¹، وكل قسم يتفرع إلى أجزاء، وقد بين الخطيب أجزاء كل قسم وما يحمله من حجج ويمكن تلخيص أجزاء هذا الموضوع في الشكل التالي:

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 295.



وفي إطار الحديث عن تقسيم العلماء لفريضة " العلم " رأى الخطيب " عبد الحميد مهدي" أنه من المهم أن يقف عند مسألة مهمة "وهي أن بعض الشباب يعتقدون أن كلمة العلماء تطلق على علماء الشريعة فقط، وهذا خطأ كبير، وتصور غير سليم، هذا التصور هو الذي جعل كثيرا من شباب أمتنا يعزفون عن الاجتهاد والبحث في العلوم الكونية المختلفة"¹، ليلفت انتباه الشباب إلى أن كلمة "العلماء" تشمل أيضا "العلماء" الذين يبحثون في العلوم الكونية كالفلك والعلوم الطبيعية والفيزيائية والتكنولوجية... الخ، وبهذا التوضيح يكون قد صحح المعتقد الخاطيء، وأبرز المفهوم الصحيح الذي تعنيه كلمة "العلماء"، ويهدف الخطيب من خلال ذلك إلى جعل بعض الشباب الذين اهتموا بالعلوم الشرعية فقط، وأهملوا العلوم الكونية المختلفة يتراجعون عن قرارهم، "وذلك باعتبار نتائجه السلبية؛ إذ يمكن للمحتج أن يقوم قراراً أو حدثاً أو رأياً باعتبار نتائجه الإيجابية أو السلبية²؛ لأن التخلي عن طلب العلوم الدنيوية يتسبب في تأخر العالم الإسلامي، ويعرضه لمواجهة كبيرة وتحديات جمة.

بناء على ما سبق نفهم بأن تعلم هذه العلوم، والتفوق فيها قوة، يجب أن تكون في أيدي المسلمين، ليجابها أعداءهم، وهذا نقيض مبدأ السلم، وحجة المتكلم في ذلك مقابلة

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 318.

² - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص256.

يجريها بين هذا المبدأ ونتائج السلبية، فالمسلمون إذا أهملوا جميعهم "هذا العلم- فرض الكفاية- حتى يصيبهم الضعف والتخلف في هذه الميادين الأساسية في الحياة؛ يأتيهم العدو من هذه الثغرات - كما هو حالنا اليوم- ويضغط عليهم ويساومهم في مبادئهم، ويملي عليهم شروطه المجحفة، والتعجيزية والماكرة"¹.

وليدرك المسلمون أهمية هذه العلوم أخبرهم الخطيب بأنّ "الآيات القرآنية التي تتناول العبادات قليلة جدا إذا ما قورنت بالآيات التي تتناول موضوع الكون والحياة والخلق والرزق والنفس وحركة المجتمعات البشرية"²، وليؤثر فيهم اعتماد على المقارنة في قوله: "وإنّ علماء المسلمين بذلوا جهودا كبيرة في القسم الأول من هذه العلوم. وأهملوا القسم الثاني إهمالا شبيه تام وكامل في القرون الأخيرة، بينما حدث العكس تماما في الغرب فتقدموا وتأخرنا وازدهروا وتفقهروا، وأصبنا بالتخلف والجهل بالحياة، وبآلياتها الموضوعية فكلمنا خرجنا من أزمة إلّا ودخلنا في أخرى أشد منها، ولم نعد القوة اللازمة للحق، حتى يظهر؛ فيعمل على إزهاق الباطل"³؛ لأنّ المقارنة وسيلة لتثبيت المعنى في ذهن المتلقي من خلال الجمع بين الأضداد؛ فالمسلمون تأخروا لأنهم أهملوا قسما مهما من العلوم والمتمثل في العلوم الدنيوية، ولهذا عاتبهم الخطيب "عبد الحميد مهدي" وقد ماثل بينهم وبينه.

ويقضي مبدأ "التماثل قاعدة في التعامل مع المتماثلين تتمثل في العدالة؛ أي في التعامل مع العناصر المنتمية إلى صنف واحد بكيفية واحدة، ولذا نتحدث عن المبادلة أو التبادل وهي علاقة منطقية خالصة غير أنّ الحجة تظل شبه منطقية فحسب؛ لأنها إسناد للحكم ذاته إلى أمرين ندعي أنّهما متماثلان"⁴، على هذا النحو يتجلى الجانب التأثيري في قوله: "ألا إنّنا قد قصرنا في طلب العلم وفي العمل به أيضا"⁵.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 296.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 296.

⁴ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص 201.

⁵ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 296.

ويذهب "ليونال بلنجي" حسب ما نقلته لنا الباحثة "سامية الدريدي" إلى أنّ "الحجة القائمة على التبادلية في معناها العام المشترك تمثل جوهر الاعتراض الشائع: ضع نفسك مكاني بل إنّ الحجة ذاتها تؤسس قولة حجاجية متواترة عندنا: كيف تعيب على الناس ما تبيحه لنفسك؟"¹؛ لهذا حكم الخطيب على غيره مثلما حكم على نفسه؛ وبين للمخاطبين بأنه لا يتميّز عنهم، وليس أفضل منهم، وبين لهم سبب تفوق الغرب علينا؛ ويتضح ذلك جلياً في حجته والتي جاءت صريحة في قوله: "ولئن أخذ العالم الغربي هذه الصفات من قرآن ربنا ومن حياة علمائنا، فتوصلوا إلى ما نراه اليوم من تكنولوجيا متطورة، ومن صناعات مدنية وعسكرية متفوقة، ومن اكتشافات واختراعات مدهشة أثرت تأثيراً عميقاً في حياة الإنسان المعاصرة؛ فإنّه بإمكاننا أن ندركهم في كلّ المجالات ونبادر ونبدع أيضاً، إن طبقنا تعاليم القرآن ووصايا ربّ العالمين، الذي يأمرنا باستعمال السمع والبصر في الملاحظة والمشاهدة، واستعمال العقل في التفكير والتدبر والاعتبار"²

ولقد بنى الخطيب حجته على الاحتمال ويؤسس هذا النوع من الحجج "على حظوظ المرء في تحقيق أمر ما أو إنجاز حدث معين أو اتّخاذ موقف محدّد وخلفيته واضحة"³؛ أي أنّ هذا النوع من الحجج يركز على مدى التزام الفرد بتطبيق بعض التعاليم الدينية التي تعينه على بلوغ الهدف وتحقيق النّطور في جميع المجالات، وإذا التزم المسلمون بتعاليم القرآن وطبقوا وصايا ربّ العالمين؛ فإنّهم بلا شك سيبدعون مثلما أبدع الغرب، وسيتقدمون في جميع المجالات، وهذا المحتمل القائم مرهون بمدى التزام المسلمين وتطبيقهم لتعاليم الله سبحانه وتعالى الذي يأمر عباده باستعمال السمع والبصر في الملاحظة والمشاهدة واستعمال العقل في التفكير والتدبر والاعتبار، وبذلت تتحقق الغاية من طلب العلم.

¹ - ليونال بلنجي، الحجاج: مبادئه وطرقه، ص50. نقلا عن سامية الدريدي الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص203.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص323.

³ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص213.

4. حجة الغائية وتجديد الخطاب الديني:

يدعو الإسلام الإنسان لطلب العلم كي لا يضل عن الغايات النبيلة، ويؤكد دائماً على ضرورة تعلم العلوم الدينية والدنيوية وفي هذا الصدد يقول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "إنّ الذين يتعلمون العلوم المختلفة، ويبحثون بجد وذكاء وتقوى إلى آخر لحظة من حياتهم لإيجاد الحلول النافعة والفاعلة التي تبين قيمة الإسلام، وترفع من شأن الأمة الإسلامية المنهكة والممزقة، وتساهم في حلّ مشاكلها وأزماتها، يرفع الرسول (ﷺ) مقامهم في الجنة فقد قال الرسول (ﷺ): من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين النبيين درجة واحدة في الجنة"¹.

خاطب المتكلم مخاطبه بالكيفية اللغوية المخصصة لحال المتردد؛ لأنه انطلق من واقع المسلمين؛ فكثير منهم مقصر في طلب العلم، وهدف المتكلم هو التأثير في المخاطب حتى يجتهد ويبذل الجهد في طلب العلم.

ومن العلم ما هو متعلق بالأمر الشرعيّ التي تبين الأحكام، وتفصل كيفية العبادات والمعاملات، وتنظم علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبغيره من الأفراد والجماعات، وهناك من العلوم ما يحتاجه الناس؛ ليتمكنوا من الاستمرار في معيشتهم، ولها صلة بالحياة والكون فهي علوم مهمّة حرص الإسلام عليها؛ وحث المسلمين على تعلمها، وتبقى الغاية الأسمى من طلب العلم ما جاء في الحديث والتمثلة في إحياء الدين وإحيائه يعني تجديده، ويشمل التجديد حفظ نصوص الدين الأصليّة صحيحة نقيّة، ونقل المعاني الصحيحة للنصوص وإحياء الفهم السليم لها والسعي للتقريب بين واقع المجتمع المسلم في كلّ عصر، وبين المجتمع النّمونجي الأول الذي أنشأه الرسول (ﷺ)، وإحياء مناهج ذلك المجتمع في فهم النصوص والاجتهاد، كما يشمل التجديد تصحيح الانحرافات النظرية والفكرية والعملية والسلوكية وتنقيّة المجتمع من شوائبها"²؛ هذا يعني أن تجديد الخطاب الديني له مفهومان:

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 295.

² - عمر زقاي، تجديد الخطاب الديني في الجزائر، ص 20.

أولهما يهتم بتوضيح المفاهيم، وإعادة تشكيلها تشكيلا مبنيا على أسس دينية قوامها العقل ويدعو إلى تعليم الناس جوهر الدين وحقيقته، وثانيهما: يرتبط في جزئه الأكبر بقضايا العقيدة وإزالة ما علق بها من شبهات ألحقها بها أعداء الدين، كما يعني بأمر العبادات من خلال توضيح مقاصدها، والكشف عن أهدافها، فضلا عن شرح منظومة الأخلاق الإسلامية على مستوى كل من الفرد والمجتمع؛ فتجديد الدين يعني إعادة نضارته ورونقه وبهائه وإحياء ما درس من سننه ومعالمه ونشره بين الناس.

ولا تقتصر خدمة الدين على علماء الشريعة فقط، وإنما تشمل علماء العلوم الكونية المختلفة؛ وهؤلاء العلماء إن صححوا نياتهم واجتهدوا إلى آخر لحظة في حياتهم؛ ليرفعوا من شأن الإسلام، يرفع الله من شأنهم ومن درجاتهم حتى إنه لم يجعل بينهم، وبين النبيين إلا درجة واحدة وهذه أكبر غاية يريد الإنسان والعالم على وجه الخصوص تحقيقها، من هنا يظهر أنّ لحجة الغاية دوراً كبيراً في التأثير على المتلقي، ولهذا قلما تغيب في الخطابات الحجاجية؛ لأنها المحرك الأساسي الذي يدفع بالمتلقي إلى القيام بالفعل المطلوب منه؛ والمتمثل هنا في بذل الجهد في طلب "العلم النافع"؛ بغية نشر الدين الإسلامي وتطهيره والرفع من رايته.

ويؤدي اعتبار الغاية إلى نوع ثالث من الحجج، نعني به حجة التّجاوز وهي تؤكد على "إمكانية السير دائما نحو نقطة أبعد في اتجاه ما دون أن نلمح للسير في ذلك الاتجاه حدّا وذلك بفضل تزايد مطّرد في قيمة ما"¹؛ هذا يعني أنّ هذه الحجة تقوم على اعتبار ما عدّ عائقا مجرد وسيلة لبلوغ مستوى أعلى وما اعتبر إشكالا مجرد أمر عارض يمكن من الوصول إلى الغاية المنشودة. فبالرغم من أنّ الانتقال من مكان إلى مكان بعيد ليس بالأمر الهين والسهل؛ بل هو من أكبر العوائق التي تواجه الإنسان في طلبه للعلم، إلا أنّ الأنبياء تجاوزوا هذا العائق وصبروا وتحملوا مشاق السفر؛ نظرا لقيمة العلم وأهميته في الحياة

¹ - برلمان وتيتيكا، مصنف في الحجاج، ج2، ص387، نقلا عن سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه.

الإنسانية" ولنا في سيّدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام الأسوة الحسنة في شدّ الرّحال واجتياز المسافات البعيدة طلباً للعلم والاستزادة منه¹؛ لأنّ بعد المسافات وكثرة العوائق ما هي إلاّ نقطة عبور يجب تجاوزها للوصول إلى الهدف المنشود والمتمثّل هنا في "طلب العلم" والانتفاع به ونفع الغير به؛ لأنّ الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التّعليم، والسّبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم؛ وما يتحلّون به من المذاهب والفضائل تارة: علماً وتعليماً ولقاء، وتارة: محاكاة وتلقيناً بالمباشرة؛ إلاّ أنّ حصول الملكات عن المباشرة، والتّلقين أشدّ استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات، ورسوخها وتفتحها²، والمحتج من خلال هذه الحجة يحاول التّأثير في السّامع وحمله على التّسليم بهذه الحقيقة، ومن ثمّ العمل بها، وهذا هو هدف الخطاب الحجاجي.

واعتبار الغاية تعود إليه حجة أخرى هي حجة التّبذير، وتتمثّل في القول بأننا "لما كنّا بدأنا عملاً ما ولما كنّا سنخسر تضحيات تحمّلناها في سبيله لو تخلينا عن المهمّة، فإنّه ينبغي المواصلة في الاتّجاه ذاته"³؛ أي ضرورة استكمال ما بدئ فيه، وإتمام ما شرع في القيام به، وهذا ما يدعو إليه الإسلام لذلك "لم يجعل التّعليم مقتصرًا على مرحلة من مراحل حياة الإنسان، فأمر المسلم أن يطلبه منذ الولادة حتّى الموت. جاء في الأثر: أطلبوا العلم من المهد إلى اللّحد"⁴، وهذا دليل على أنّ الإسلام يحث المسلمين على الاستمرار في طلب العلم؛ لأنّه لا يمكن للإنسان أن يحيط بالحقيقة في مرحلة معيّنة، ولا يمكن للمعرفة أن تكتمل؛ بل لا بدّ على الإنسان أن يواصل في طلب العلم حتّى يكتشف الحقائق، ويكتسب المعارف، ويواكب التّطورات فما هو صالح لمرحلة معيّنة، يصبح من التّاريخ في مرحلة أخرى. ولذلك على الإنسان الذي ينشد المعاصرة أن يستمر في طلب العلم إلى آخر لحظة

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص320.

² - ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تح: درويش الجويدي، ط1، بيروت: 1997، المكتبة العصرية.

³ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص224.

⁴ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدّينية والوطنية والدولية، ص320.

في حياته؛ فأيات الله في الكون لا تتقضي، وإذا توقف الإنسان عن طلب العلم في مرحلة من مراحل حياته؛ بحجة أنه قد حصل من العلم القدر الكافي، وأنه قد استوفى المعرفة كلها يضيّع على نفسه فرصا كثيرة في الاكتشاف، فلا ينتفع ولا ينفع غيره.

5. العلم وأشكال القيم في الخطاب الديني:

إنّ العلم النّافع؛ هو الذي يرشد الإنسان لفعل الخير، والإصلاح، ويجنبه الوقوع في المعاصي والفساد والطغيان، ويعين صاحبه على أداء الفرائض وينشئه على الفضائل ويحثه على التحلي بالأخلاق العالية ويقوم سلوكياته، ويحسن معاملته، ويرفع درجاته، ويرتبط العلم بالأخلاق ارتباطا وثيقا؛ فهو موجهها ومرشد الناس إليها، والعلم الذي لا يثمر هذه الصفات ولا يفضي إليها ولا يدفع صاحبه إلى التحلي بها لا فائدة منه، والعلم النّافع يميّز بين النّافع الذي هو الخير، وبين الضار الذي هو الشر، كما يمكن الإنسان من التمييز بين الحق والباطل؛ ولذلك اعتمد الخطيب "عبد الحميد مهدي" في بناء حججه على "استدعاء الخير والحق والجمال واتخاذها مراجع في الكلام وخلفيات، إليها يستند القول وعليها يتأسس الرأي أو الموقف"¹؛ ويظهر ذلك جليا في قوله: "العلم النّافع هو الذي يعطي للإنسان القدرة على التمييز بين الحق والباطل والنّافع والضار، والصالح والطالح، وهو الذي يزوده بالآليات والأدوات التي تجعله يقيم العلاقات الصحيحة بين الأشياء والقضايا المختلفة ويفهمها فهما"²؛ لقد استند الخطيب في بناء حججه إلى معيار الخير والحق واعتبرهما وسيلة لترغيب المخاطب؛ لكي يجتهد في طلب العلم ويبذل جهده في ذلك؛ ولذلك يكفي حضور هذه القيم في خطاب حجاجي معيّن؛ لتوجه المخاطب إلى وجهة في الخطاب محدّدة سطر المتكلم طريقها بدقة، وحمل مخاطبه على السير فيها دون غيرها.

ومن هذه القيم نذكر الصدق والأمانة والتقوى... الخ التي هي من مقاصد العبادات وفي ذلك يقول الخطيب "عبد الحميد مهدي": " وإنّ من مقاصد العبادات في الإسلام أن تترك أثرا

¹ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص 271.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 293.

في سلوك الإنسان وتصرفاته في ميادين الحياة كلّها؛ فالعلم والعمل والسلوك أمور متلازمة مترابطة في ما بينها؛ فالمسلم يتعلم ليدرك ويفهم، ويتعلم ليعمل الخير والصلاح ويتعلم أيضا ليمثل بالأخلاق الفاضلة والسلوكات الحميدة¹؛ التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتحلي بها والتحلي بها إنّما يكون بتطبيق تعاليم هذا الدين الذي يعدّ القاعدة الأساسية التي تبنى على أساسها الشخصية الإسلامية المتشعبة بالقيم الأخلاقية العالية، والمكارم والفضائل ولا يمكن تطبيق تعاليم ديننا، ولا الالتزام بالأخلاق التي يهدف الإسلام إلى ترسيخها دون طلب العلم، الذي يعين الفرد على تحقيق متطلباته، وبناء مستقبله، أما الجهل فإنّه سبب للانحلال الأخلاقي؛ وبه تحلّ البدعة محلّ السنّة، والشرك محلّ الإخلاص، والسيئة محلّ الحسنة والرزائل محلّ الفضائل والتعاسة محلّ السعادة، أجلّ "إنّه لا سعادة لأمة الإسلام إلا بتحقيق حقائق الإسلام، وإلا فلا، ولا يمكن أن تذوق الأمة السعادة في الدنيا أو تعيش حياة اجتماعية فاضلة إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية، وإلا فلا عدالة قطعا ولا أمان مطلقا؛ إذ تتغلب عندئذ الأخلاق الفاسدة والصفات الذميمة، ويبقى الأمر معلقا بأيدي الكاذبين والمرائين"²؛ فالأخلاق الفاضلة والسلوكات الحميدة تتضمنّ القيم المحسوسة، وهذه الأخيرة من شأنها "أن توجه الفعل، وتقيد السلوك، وهي قيم تسهل ملاحظتها والتحقّق من تحقيقها في الواقع وكيفيات تطبيقها"³، ويقصد الخطيب من وراء تأكيده على هذه القيم التأثير في المخاطب وحمله على التخلّق بالأخلاق الحسنة.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 320.

² - محمد الروكي، "العلم والأخلاق وأثرهما في بناء الإنسان عند النورسني" مقال منشور على الموقع الإلكتروني: file:///C:/Users/Global info laga/Desktop. 2016/09/23 يوم.

³ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص 278.

6. حجة النموذج في الخطاب الديني:

تعد من أهم الحجج الحاضرة بكثافة في الخطابات الدينية، وهي "حجة تستحضر فيها شخصية ذات هيبة ووزن عند المخاطب وتعتبر أسوة يقتدى بها"¹، وهناك كثير من الأشخاص يتأثرون بسلوكات غيرهم وأفكارهم؛ فيتخذونها نموذجاً لهم يمشون على منوالها وهذه الشخصيات ليست بشخصيات عادية؛ بل هي شخصيات مميزة؛ والقدرات الغالبة في الخطاب الديني هم الرسول (ﷺ) والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحون ومنهم: نساء الأنصار (رضي الله عنهن) الذين لم يمنعهن الحياء على طلب العلم والتفقه في الدين؛ مصدقاً لقول أمنا عائشة (رضي الله عنها): "رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن"².

إنّ الحياء أمر محمود ولا اعتراض عليه في ذاته، ولكن بعض النساء يمنعهن الحياء أن يتفقن في أمور دينهن؛ فيفضلن الجهل لحيائهن؛ فيصبح الحياء في هذه الحالة مذموماً مرفوضاً؛ لأنه وسيلة إلى الجهل وهذه غاية لا نريدها، ولذلك تنص حجة الاتجاه على "رفض أمر ما حتى وإن اعترفنا بأنّ في ذاته أمراً مقبولاً أو جيداً؛ لأنه سيكون الوسيلة التي تقودنا إلى غاية لا نريدها؛ وهي حجة مثيرة "تمكّن من دفع أمور عديدة لا اعتراض عليها في ذاتها ورفض أطروحات لا خلل فيها، وإنّما لأنها قد تؤدي بنا إن طبقناها أو عملنا بها إلى غاية لا ننشدها وإلى نتيجة نتحاشى حدوثها"³؛ ولهذا فإنّ لنا في نساء الأنصار (رضي الله عنهن) القدوة الحسنة في طلب العلم؛ حيث قادهن الحياء إلى الابتعاد عن الفواحش والوقوع في المحرمات، وهذه الأمور هي التي تحرص عليها التربية الدينية؛ فليس المهم أن نتعلم وإنّما المهم أن يتوج علمنا بأخلاق سامية.

¹ - الحسن بنو هاشم، "بعض خصائص الحجاج في الخطاب الديني من خلال خطاب السيد يوسف القرضاوي في

برنامج "الشريعة والحياة"، مقال منشور ضمن كتاب: محمد مشبال، بلاغة الخطاب الديني، ص 293.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 316.

³ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص 224.

إنّ العلم والأخلاق دعامتان من الدعائم الأساسية التي لا تستغني عنها جميع المجتمعات؛ ولذلك نصح الخطيب الآباء بتربية أبنائهم فقال لهم: "ربوا أولادكم على السلوكات الحضارية الراقية وعلى الأخلاق الفاضلة، والآداب الحسنة، كالطاعة للمعلم وخدمته والاهتمام بنصائحه والاحسان إلى زملائهم يقول الرسول (ﷺ): ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن"¹، وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجده يتحدث عن نموذج في التربية وهو سيدنا لقمان (عليه السلام) الذي لنا " في وصيته لابنه وهو يعظه في سورة لقمان النموذج الأحسن للاتباع"²؛ ولذلك "ينبغي على المحتج أن يدقق في نماذجه؛ بحيث تكون جديرة بالتقليد مهياً لأن يفقدى بها وأن ينسج على منوالها؛ فيكون للنموذج المعتمد قدر كاف من الهيبة على حد عبارة برلمان دائماً"³، لأنّ حسن اختيار النموذج يدعم طاقة الحجاج ويقوي قدرته الإقناعية، ولذلك تحدث الخطيب " عبد الحميد مهدي" عن سيدنا لقمان (عليه السلام) لأنّه يمثل النموذج الأحسن في تربية ابنه على السلوكات الحضارية الراقية، وعلى الأخلاق الفاضلة، والآداب الحسنة؛ وينبغي للمسلمين أن يسلكوا طريقه في تربية أبنائهم.

وإنّ أهم دور للتربية الإسلامية في نظر الإسلام يتمثل في بناء مجتمع مترابط ومتماسك مشبع بالقيم الإسلامية؛ حيث تعمل التربية الإسلامية على إعداد جيل يخدم الشأن العام، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحافظ على الوطن، ولقد شهد التاريخ على أمم استطاعت أن تتجاوز العقبات، وارتقت في سلم الحضارات، وتطورت في عديد المجالات وتفوقت على غيرها من الأمم، كلّ ذلك بفضل أبنائها الذين تدبروا في كلام خالقهم، وأدركوا الهدف من خلقهم، وفهموا مقتضيات دينهم، وامتلكوا إرادة قويّة وهمما عالية وأخلاقاً حميدة واقتدوا بأفعال وأقوال وأخلاق الرسول (ﷺ) الذي بيّن الهدف من بعثه بقوله: "إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وفي قوله هذا ما يؤكّد بأن الرّسل (ﷺ) الذين جاءوا من قبله قد اهتموا

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 299.

² - المرجع نفسه، ص 295.

³ - برلمان وتيتيكاه، مصنف في الحجاج، ص 488، نقلا عن سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه.

بموضوع الأخلاق، وأسهموا في ترسيخها ونشرها، وحثوا الناس عليها، وبيّنوا أهميتها وأنها (ﷺ) جاء بعدهم ليتم مكارم الأخلاق، لأنّ الأخلاق أساسية في بناء الفرد وتكوينه وإعداده إعداداً يؤهله لأن يكون أسوة حسنة لغيره.

خلاصة:

حاولت في هذا الفصل الموسوم بـ: "الحجاج ودور العلم في بناء الخطاب الديني" دراسة مجموعة من خطب الشيخ "عبد الحميد مهدي"، حول موضوع "العلم وأهميته في الإسلام" بهدف الوقوف على مختلف الآليات التي استثمرها الخطيب "عبد الحميد مهدي" للتأثير في المتلقين على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم الثقافية والاجتماعية... الخ.

وإنّ الهدف من الحجاج هو التأثير في المتلقي بهدف تثبيت معتقد لديه أو نفيه أو حمله على القيام بشيء ما في المستقبل أو التغيير من سلوكه؛ ويكتسي الحجاج أهمية بالغة في تحليل الخطابات بمختلف أنواعها بما يمدّها من تقنيات وآليات مستمدة من اللّغة والبلاغة والمنطق... الخ.

ولقد اعتمد الخطيب "عبد الحميد مهدي" على مختلف الآليات التي تمدنا بها هذه العلوم؛ لأجل إثبات أطروحته المتمثلة في التأكيد على مكانة "العلم" في الإسلام، ودوره في بناء الذات والمجتمع بخاصة في ظل المستجدات الراهنة التي فرضتها علينا التكنولوجيا؛ فقد أصبح من الضروري على كلّ المجتمعات الراغبة في الالتحاق بالركب الحضاري أن تطلب العلم.

ولا يقتصر دور العلم على تنمية المجتمع وتحقيق ازدهاره تكنولوجيا، ولا على سن القوانين، بل يتركز دوره على الجانب الأخلاقي؛ فحيث تنتهي مواد القانون، فليس من سبيل إلا أن يتجه الناس إلى الأخلاق؛ من "هنا ترتبط كل قطاعات حياة الإنسان بالأخلاق في حركتها وفي نشاطها وفي نتائجها ارتباطا سببيا وحتميا؛ بحيث لا يمكن الحديث عن أي قطاع بأنّه سلبي أو إيجابي من دون ربطه بالفكر الذي حرّكه والأنشطة التي جرت فيه إذا ما كانت مؤسسة على مكارم الأخلاق أو مبنية على الرذائل والمذمومات؛ فالأصل في حسن الأفكار والأفعال أو قبحها وكذلك نتائجها أخلاقي لا هو سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي.... فالمشكلة الأصل في مجتمعنا العربي الإسلامي المعاصر أخلاقي بالدرجة الأولى¹؛ ولذلك اعتنى

¹ - جيلالي بويكر، تأملات في أصول المجد ومبلغ الكمال الإنساني، ص 175.

الإسلام بالأخلاق، وأمر الإنسان بالعلم؛ لأنه يُمكن الإنسان من التَّمييز بين الأخلاق الحميدة والسيئة، ومن هنا "تبرز قوّة الإسلام الإيجابية ومصادقته، ويظهر منهجه الكامل وتتجلى روحه المتوازنة في الشرائع والشعائر، وفي الأخلاق والمعاملات وفي سائر أوامره ونواهيه"¹؛ أي أنّ الشريعة الإسلامية تجمع بين الأخلاق والعمل، ولهذا رأيت أنّه من المهم أن أسعى من خلال دراستي للخطاب الديني إلى تثبيت حقيقة جوهرية وهي أنّ اكتمال الخطاب الديني إنّما يكون تحققه على مستوى أفعال المخاطبين المكلفين.

¹ - جيلالي بوبكر، تأملات في أصول المجد ومبلغ الكمال الإنساني، ص 76.

الفصل الثالث

سلطة الفعل الكلامي في الخطاب الديني

مدخل:

تعدّ السّلطة من أهمّ العناصر السّياقية التي تتدخل في تحديد مقاصد الأفعال الكلاميّة ومنحها قوتها الإنجازية، ولذلك ارتبطت المفاهيم التي صاغها التّداوليون والنتائج التي توصلوا إليها بالمحتويات والمعاني رهينة الاستخدام في سياقات مختلفة؛ ومن ثمّ فمجرد التّفكير في إجابة مقنعة وجديّة عن تلك الأسئلة التي تطرحها التّداولية من قبيل: من يتكلّم؟ وإلى من يتكلّم؟ وماذا نقول حين نتكلّم؟ وماذا ننجز بأقوالنا؟ وكيف نتكلّم بشيء ونقول شيئاً آخر؟ يتطلب الإحاطة بطبيعة المخاطبين، ومراتبهم والعلاقة التي تربطهم وسياقات تلفظهم "وللحسم في هذه الإشكاليات تسلح التّداوليون بمفاهيم أساسية لعل أهمّها في مقارنة الأعمال اللّغوية مفاهيم الفعل أو العمل والسياق والإنجاز"¹؛ وبذلك أصبحت نظريّة الأفعال الكلاميّة نواة مركزيّة لكثير من الأعمال التّداوليّة؛ لأنّها جعلت من طبيعة الحدث اللّغوي حدثاً إنجازياً مؤثراً له علاقة بمقاصد الكلام.

وانطلقت المعطيات النظريّة لأفعال الكلام مع "الفيلسوف" أوستن (Austin) في كتابه (نظرية أفعال الكلام العامّة) التي ركز فيها على فكرة أساسيّة وهي "كيف ننجز الأشياء بالكلام" وفي سعيه للإجابة عن هذا السؤال رأى بأنّ الفعل الكلاميّ مركب من ثلاثة أفعال تعدّ جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، ولا يفصل أحدهما عن الآخر وهي: فعل الكلام، قوّة فعل الكلام، ولازم فعل الكلام²، كما يُطلق عليها تسميات أخرى وهي: العمل القولي، العمل اللاقولي وعمل التّأثير بالقول.

- "العمل القولي: وهو مجرد إصدار إشارات صوتيّة حسب سنن اللّغة الدّاخلية؛

¹ - الصبحي هدوي، الإنشاء بالقول مقارنة نحوية تداولية للأوامر والنواهي أعمالاً لغوية، ط1، عمان: 2016، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ص 19.

² - أوستن، نظرية أفعال الكلام العامّة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، تر: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق: 1991، ص 7.

- **العمل اللاقولي:** الذي يقوم على إتمام عمل آخر، عبر القول غير مجرد التلفظ

بمحتوى، وتحديدًا على قول صراحة، ولكن ليس دائماً؛

- **عمل التأثير بالقول:** ويتمثل في إحداث تأثيرات، ونتائج في المخاطبين¹؛

نفهم من هذا بأنّ تحليل الفعل الكلامي حسب "أوستين" يمرّ بثلاث مراحل أولها فك رموز اللّغة، وثانيها الكشف عن الدلالة المتضمنة في القول، وثالثها تتبع أثر هذه الفعل في الآخرين.

ويستدعي كلّ قول من هذه الأقوال قوّة إنجازيّة، ولكن بدرجات مختلفة ويقصد بالقوّة الإنجازيّة "القصد الذي ينويه المتكلّم، أو يستلزمه خطابه مقامياً من خلال عمليّة الإنجاز الحرفي أو الاستلزامي للكلام؛ فمحدّدات الأعمال الإنجازيّة شكلاً ووظيفة وتأويلاً بحسب التداوليين قوامها عنصران أصليان ضمن مؤشرات السّياق، وهما القصد والاستعمال"². يعني هذا أنّ كلّ قول يتضمن قوّة إنجازيّة حرفيّة، وقوّة إنجازيّة مستلزمة مقامياً تتضمن القصد الذي يريد المتكلّم تليغّه للمخاطب هذا الأخير لا يمكنه أن يصل إلى القصد إلاّ إذا استعان بالسّياق الذي يساعد في تحديد دلالة الأقوال.

ولقد كان اللاقول (الفعل الإنجازي) هو المظهر الأساس الذي استرعى انتباه "أوستين"

(Austin) فوجّه اهتمامه إليه حتّى أصبح لبّ هذه النظرية.

واستناداً إلى مفهوم القوّة الإنجازيّة ميّز "أوستين" (Austin) بين خمسة أنواع للأفعال

الكلامية:³

- **الحكميات:** تتمثل في الحكم، نحو التبرئة، الإدانة، الفهم، إصدار أمر، الإحصاء

التّوقع، التّقديم، التصنيف، التشخيص، الوصف، التّحليل... الخ.

¹ - فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ط1، سوريا: 2007، دار الحوار للنشر والتّوزيع، ص59.

² - أحمد كروم، مقاصد اللّغة وأثرها في فهم الخطاب الشّرعي، ط1، عمان: 2015، دار كنوز المعرفة للنشر والتّوزيع، ص136.

³ - فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص62.

- **التنفيذيات:** وتقضي بمتابعة أعمال مثل: الطرد، العزل، الاتهام، الاستقالة... ويتأسس التمييز بين الأعمال المندرجة فيه وبين الأعمال المندرجة ضمن الصنف الأول، على كون التنفيذيات هي أعمال تنفيذ أحكام، ولكنها ليست في حد ذاتها حكميات؛
- **الوعديات:** إن الوعديات تلزم المتكلم بالقيام بتصرف بطريقة ما، مثل: الوعد الموافقة والتعاقد والعزم والنية، وإذا وجدت فرق في الدرجة بين "التعاقد" والنية؛ فالأمر يتعلّق بأعمال من طبيعة واحدة التي تحمل على القول الإنشائي الأولي" سأفعل.
- **السلوكيات:** وهي أعمال تتفاعل مع أفعال الغير، نحو: الاعتذار والشكر والتهنئة والرفقة، والترحيب... الخ؛
- **العرضيات:** وهي أعمال تختص بالعرض مثل: التأكيد والتّقي والوصف والإصلاح والشهادة والتوضيح، والتفسير والتدليل... الخ؛
- لا يمكن إنكار حقيقة أنّ "أوستين" (Austin) هو أول من وضع المبادئ الأساسية والمفاهيم المركزيّة التي تقوم عليها هذه النظرية، إلا أنّ "سيرل" (Searle) طوّرها، وشمل عمله بُعدين وهما: "المقاصد والمواضع؛ فالأعمال اللّغويّة، والجمل تُعتبر وسيلة تواضعيّة للتعبير عن المقاصد وتحقيقها"¹، كما أعاد "سيرل" (Searle) تقسيم الأفعال الكلاميّة وميّز بين أربعة أقسام وهي:
- "فعل التلفظ (الصوتي والتركيبى)؛
- الفعل القضوي (الإحالي والجملي)؛
- الفعل الإنجازي (على نحو ما فعل أوستين)؛
- الفعل التّأثيري (على نحو ما فعل أوستين)².

¹ - أودينة سليم، فلسفة التّداوليات الصوريّة وأخلاقيات النقاش عند يورغن هابرماس، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، قسنطينة: 2009 ص25.

² - خليفة بوجادي، في اللسانيات التّداوليّة مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص99.

- كما طوّر "سيرل" شروط أداء الفعل اللغوي/الملاءمة، وجعلها أربعة وقد نقلها لنا "طه عبد الرحمن" في كتابه اللسان والميزان وهي على التّوالي:¹
- **شروط المضمون القضوي:** وهي التي تحدد أوصاف المضمون المعبر عنه بقول مخصوص؛
 - **الشروط التمهيدية:** وهي ذات صلة بمقام التّواصل، وبما يعرفه المتكلم عن قدرات واعتقادات المستمع، وعن طبيعة العلاقات القائمة بينهما... الخ
 - **شروط الصدق:** وهي التي تحدد الحال الاعتقادي الذي ينبغي أن يقوم بالمتكلم المؤدي لهذا الفعل التكملي؛
 - **الشروط الجوهرية:** وتعيّن هذه الشروط الغرض التواصلي من الفعل التكملي، هذا الغرض الذي يلزم المتكلم بواجبات معيّنة.
- وقد أفاد "سيرل" (Searle) من تقسيم أوستن (Austin) السالف للأفعال الانجازيّة بالنظر إلى الغرض المنجز وشروط الإخلاص واتجاه المطابقة، جاعلا منها خمسة أنواع رئيسية هي:²
- **الإخبارات:** التي يكون الهدف منها تطويع المتكلم، ويجب أن تتطابق الكلمات مع العالم، والحالة النفسيّة هي اليقين بالمحتوى، مهما كانت درجة القوة. ومثال ذلك: سيأتي غدا؛
 - **الطلبّيات:** ويكون الهدف منها جعل المخاطب يقوم بأمر ما، ويجب أن يطابق العالم الكلمات وتكون الحالة النفسيّة رغبة/ إرادة، مثل قولك: اخرج؛
 - **الوعدّيات:** ويكون الهدف منها جعل المتكلم ملتزما بإنجاز عمل ويجب أن يطابق العالم الكلمات، والحالة النفسيّة الواجبة هي صدق النية؛

¹ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 261.

² - فيليب بلانشيه، التّداولية من أوستن إلى غوفمان، ص 66.

- الإفصاحيات أو التّعبيّرات: يكون الهدف منها هو التّعبير عن الحالة النفسيّة بشرط أن يكون ثمة نيّة صادقة، ولا توجد مطابقة الكون للكلمات ويسند المحتوى إما إلى المتكلّم أو إلى المخاطب؛
- التّصريحات (الإنجازيات) **Déclaratives** : يكون الهدف منها إحداث واقعة؛ وحيث يكون التّوافق بين الكلمات والعالم مباشرا، دون تطابق مع تحفظ المشروعية المؤسسية أو الاجتماعية.
- وقد أضاف "سيرل" (Searle) تصنيفا آخر للأفعال الكلامية حين ألح على انقسام الفعل اللّغوي إلى قسمين هما: الأفعال المباشرة، وغير المباشرة.
- الأفعال المباشرة: ويعرّفها "سيرل" (Searle) بقوله: "الأفعال المباشرة هي الحالات التي يتلفظ فيها المتكلّم بقول ما ويراد منه ما صرّح به"¹؛ أي الأفعال التي تطابق قوتها الإنجازية الحرفية مراد المتكلّم.
- الأفعال الكلامية غير المباشرة: يُعدّ "سيرل" (Searle) من الأوائل الذين اهتموا بدراسة الأفعال الكلامية غير المباشرة وقد عرّفها بقوله: "هي الحالات التي يكون فيها معنى القول مخالفا تماما لصيغة الجملة بطرق وكيفيات مختلفة"²؛ فصيغة الجملة لا تدلّ على معناها، وإنّما تدلّ على معنى آخر مخالف لمعناها.

¹-J. RSEARL : Sens et expression, études de théorie des actes de langage, trad et – préface- par, Joelle Proust, Paris : 1982, P 71.

²- Ibid, p.72

المبحث الأول: أسلوب الاستفهام وترسيخ المفاهيم الدينية:

إنَّ الإشكالية التي تطرحها الأفعال الكلامية غير المباشرة حسب "سيرل" (Searle) تختزل في السؤال التالي: كيف يمكن للمتكلّم أن يقول شيئاً ويقصد شيئاً آخر؟ أي كيف ننقل من الدلالة الظاهرة إلى الدلالة المضمرة؟ وللإجابة عن هذا السؤال يقترح "سيرل" (Searle) جملة من العمليات الذهنية للتّوصل إلى قصد منتج الخطاب وهي:

- "الفهم الدلالي للجملة؛
- تقييد دلالة الجملة بشروط الاستعمال؛
- إشعار المخاطب بقرائن الجملة ووسائطها قصد الفهم والإدراك؛
- اعتبار الجملة المستعملة وسيلة تواضعية لإنتاج (أثر تكلمي) معين للتخاطب¹؛ أي أنّ الوصول إلى المعنى الكامن في الفعل الكلامي يتطلب الاستعانة بمراحل الاستدلال الذهني.

وهكذا يتمكّن المخاطب من فهم قصد المتكلّم، أما قواعد التّواصل التي تتحكم في هذا النمط من الاستدلال؛ فليست سوى تلك القواعد التّحوارية التي حددها "غرايس" (Grice) وقد أشرت إليها في الفصل الأول.

وينتج عن خرق إحدى هذه القواعد ظاهرة الاستلزام الحواري، "والتي تؤسس لنوع من التّواصل يمكن وسمه بالتّواصل غير المعلن الضمني؛ بحجة أنّ المتكلّم قد يقول كلاماً ويقصد غيره، كما أنّ المخاطب قد يسمع كلاماً ويفهم على غير ما قصده المتكلّم، ومن ثمّة فإنّ كثيراً من العبارات اللّغوية إذا روعي ارتباط معناها بسياقات إنجازها، لا تتحدّد فقط في ما تدل عليه صيغتها الصوريّة، لذا يجب إيجاد تأويل آخر ملائم يحتم الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى المستلزم²؛ وهذا يعني بأنّ تحديد دلالة الجمل لا يتوقف على مستوى

¹ -Searle, Les actes de langage, Paris : 1972, Hermann,p89.

² -العياشي أدرابي، الاستلزام الحواري في التّداول اللّساني، من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، ط1، الرباط: 2011، منشورات الاختلاف، ص7.

الإدراك الحرفي لها، بل يتعداه إلى الإدراك الذهني، وسأوضح في النماذج الآتية بعض الاستعمالات القصديّة لأفعال الكلام.

1. أسلوب الاستفهام ودوره في تربية الذات الإنسانية:

يركز الدين الإسلامي على الجانب الأخلاقي، سواء في المعاملات الاقتصادية أم الاجتماعية، سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى قيمة كبرى للقيم الأخلاقية "فما هي القيم الأخلاقية؟ وهل هي ضرورية حتى تستقيم الحياة؟"¹.

اختار الخطيب "عبد الحميد مهدي" أن يبدأ خطبته حول موضوع الأخلاق بطرح سؤال جوهرى حول الموضوع؛ حيث سأل المخاطبين عن مفهوم القيم الأخلاقية، وقد عدل السؤال هنا عن دلالاته الحقيقية ويقصد بالعدول: "إخراج الكلام في صورة مخصوصة دون أخرى وعدول بالكلام من صورة إلى صورة أخرى تطابق مقتضى الحال أو الاعتبار المناسب"²؛ فالمقام هو الذي يحدد دلالة الاستفهام.

ويمكن أن نصنف الاستفهام الوارد هنا ضمن خانة الأفعال التوجيهية وهذه الأخيرة "تعبّر عن توجه المرسل على أن ينفذ المرسل إليه بعض الأفعال في المستقبل"³؛ منه أقول بأنّ الهدف من الأسئلة هنا ليس انتظار الإجابة، بل أن تأتي الإجابة باستجابة فعلية، وهذا يعني بأنّ التداولية تبحث في المعنى المختفي وراء الملفوظ؛ فالاستفهام هنا ليس حقيقياً، بل استفهاماً جاء به المتكلم؛ ليكون تمهيداً لفعل توجيهي، حيث قصد المتكلم أن يبين للمخاطب أهمية الأخلاق وضرورتها في الحياة، وحثه على التخلق بها حتى تستقيم حياة المسلمين؛ وقد أقامت الحضارة الإسلامية بناءها على القيم العليا التي تؤكد مسؤولية الإنسان في الوجود، وترشده إلى بلوغ أقصى حدود الكمال والفضيلة في الآداب والأخلاق التي لا تتحقق

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ط1، تيزي- وزو: 2015، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ص15.

² - نور الدين أجيظ، الوظائف التداولية للتخاطب السياسي وأبعادها الحجاجية، ط1، الأردن: 2016، عالم الكتب الحديث، ص164.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص485.

إلا إذا فهم الناس مفهوم التربية ومقاصدها: "ماذا تعني كلمة التربية؟ وما هي المقاصد التي تسعى إلى تحقيقها؟"¹.

استعمل الخطيب "عبد الحميد مهدي" أسلوب الاستفهام، وقد أفادت قوته الإنجازية الحرفية معنى السؤال، كما حمل قوة إنجازية مستلزمة مقامياً جاءت تمهيدا لفعل توجيهي؛ لأنّ الخطيب كان يطرح السؤال، ويجب عليه في الآن ذاته؛ بهدف ترسيخ المفاهيم، وقد وضح مفهوم التربية بقوله: "إنّ التربية الإسلامية هي عملية تعليمية وسلوكية طويلة الأمد إنّها عملية بناء تعمل على ترسيخ التصور السليم وتمكين العقيدة الصافية وإعداد الفرد والأسرة والمجتمع في طريقة تفكيرهم، وأسلوب حياتهم، ونظرتهم للكون والحياة وممارستهم الصادقة للعبادات المكتوبة على المسلمين، بمعنى تكوين الإنسان الصالح والمواطن الصالح الذي يعيش واعياً معافى وسعيداً بعيداً عن التوتر والقلق"²، ثم كشف عن المقاصد التي تهدف إلى تحقيقها وهي ثلاثة مقاصد:

1. "المقصد الأول: الانسجام بين الإنسان وذاته.

2. المقصد الثاني: الانسجام بين الإنسان والمجتمع.

3. المقصد الثالث: الانسجام بين الإنسان والكون كله"³.

وعندما نتصفح القرآن الكريم نجد نماذج كثيرة في مجال التربية، ومن النماذج التي تعلقت بتربية الآباء للأبناء في أسرة سالحة نجد وصية لقمان (عليه السلام) لابنه قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ، وَهُوَ يَعِظُهُ، يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣ ﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ، فِي عَمَيْنِ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ١٤ ﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥ ﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ١٦ ﴾ يَبْنَىٰ أَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص 24.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

﴿ سورة لقمان الآيات من 13 إلى 19. ﴾

تضمّنت وصايا لقمان (عليه السلام) لابنه الأسس التي بني عليها الإسلام وهي: الاعتقادات والفرائض وآداب المعاملة، وقد افتتحت الموعدة بندااء الموعوظ لطلب حضور الذهن لوعي الكلام. واستخدم المتكلم صيغة تقريبية تعمل على التقريب أكثر بين الآباء وأبنائهم من خلال صيغة التصغير (يا بني)؛ فبدأت السلطة الأبوية خطابها التوجيهي بتقريب المخاطب بغية الرفع من إمكانية تحقيق القصد من الخطاب، ثم ابتداء سيدنا لقمان موعظة ابنه باستخدام مجموعة من الأفعال الكلامية تمثلت في النهي والأمر، المقرونين بالترغيب والترهيب؛ حيث أمر ابنه بالإخلاص لله، ونهاه عن الشرك قال تعالى: ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ ولیدعم المتكلم القوة الإنجازية للفعل الكلامي جاء بجملة ﴿ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وهي تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره؛ لأنه ظلم لحقوق الخالق، فلا أشع ممن سوى المخلوق بالخالق، وسوى العبد الفقير الناقص بالربّ الغني الكامل من جميع الوجوه، ولما أمر الله عباده بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين والإحسان لهما، وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾؛ حيث تضمّنت الصيغة الخبرية لهذه الآية فعلا كلاميا مباشرا تمثل في الأمر، فالله سبحانه وتعالى وصى الإنسان بوالديه، وأمره بالإحسان إليهما والقيام بواجبه تجاههما. وليؤثر في المخاطب ويحمله على القيام بالفعل المطلوب منه أخبره بأنه سيسأله يوم القيامة عن هذه الوصية، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ ولیدعم القوة الإنجازية للفعل الكلامي ذكر الله سبحانه السبب الموجب لبرّ الوالدين، وبخاصة الأمّ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ أي: مشقة على مشقة ثم ﴿ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ فيجب على الإنسان أن يحسن إلى من حضنته وكفلته وأرضعته، وقد أكد الله سبحانه وتعالى مكانتهما في الإسلام حيث أوصى بطاعتها ومصاحبتهما حتى وإن جاهدا ولدهما على

الشرك بالله، ثم أمره بالصلاة، وأمره بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وبعد ذلك أرفدها بحسن الآداب في حالتي المشي والتكلم في قوله: ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ

الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

وقد كشف تحليل الآية عن وجود فعل إنجازي تتشكّل حملته الدلالية من قوّة إنجازية حرفيّة تتمثّل في الأمر بالقصد في المشي "والقصد هو الوسط العدل بين طرفين؛ فالقصد في المشي هو أن يكون بين طرفي التّبختر وطرف الدبيب. وأمره بغض الصوت؛ أي جعله دون الجهر، وجيء بمن الدّالة على التّبعض؛ لإفادة أنّه بعضه؛ أي بعض جهره؛ أي ينقص من جهره، ولكنّه لا يبلغ به إلى التّخافت"¹، كما تضمّنت الآية قوّة إنجازية مستلزمة مقاميا تمثّلت في النّصح والإرشاد؛ لأنّ المقام مقام تعليم. ولیدعم المتكلم القوّة الإنجازية للفعل الكلامي جاء بأسلوب التعليل متضمّنا تشبيها بليغا في قوله: ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ليعلّل به الأمر بالغض من الصوت، لأنّ صوت الحمير أنكر الأصوات، ورفع الصوت في الكلام يشبه نهيق الحمير ولهذا أنكره " فإذا كان الشّيء متعلّقا بغيره مقيسا على ما سواه كان خير ما يستعان به على تقريبه من الإفهام، وتقديره في النفوس أن يوضع له مثال يكشف عن وجهه، ويؤنس به ويكون زماما عليه يمسه على المتفهم له والطالب علمه"²؛ فالمتكلم استعان بالتشبيه حتّى يستقر في ذهن المخاطب شدّة إنكاره لرفع الصوت، إذ التشبيه بالغ الأهميّة في التأثير على المتلقي، وهو فضاء للتفاعل بين المتكلم والسّامع.

ويهدف المتكلم بخطابه إلى إفادة المخاطب بأكبر قدر ممكن؛ لذلك يبيّن له بأنّ "التّربيّة النّاجحة هي تلك التي تستطيع أن تؤهل الفرد للانسجام في المجتمع؛ فيقوم بالواجبات المطلوبة منه، ويأخذ الحقوق الممنوحة له في يسر وسلامة وانسجام"³؛ إذ من المعلوم أنّ الإنسان مدني بالطبع، يتحرّك ضمن جماعة يرضى بالانتماء إليها، وإنّ العجز عن التّكيف وعدم القدرة على الانسجام مع المجتمع يجعل الفرد يدخل في صراع مع ذاته

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التّحرير والتّوير، ج21، د.ط، تونس: 1984، الدار التونسية للنشر، ص168.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط5. بيروت: 2004، ص575.

³ - المرجع نفسه، ص26.

فالمجتمع هو الإطار المرجعي لتشكل و بروز عناصر الشخصية الفرديّة، حيث يوحى للفرد بكثير من المفاهيم والمعايير التي يتصرف بمقتضاها الفرد.

والتربية الإسلامية تنشئ في الفرد نزعة اجتماعيّة، ولذلك يأمرنا الله سبحانه وتعالى بإنشاء جمعيات خيريّة تعلّم الناس الخير والوعي وتأمّره بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣٣﴾ سورة آل عمران الآية 103.

تتشكل الحمولة الدلاليّة لهذه الآية من أفعال كلاميّة مباشرة طابقت فيها القوّة الإنجازيّة الحرفيّة مراد المتكلم، وهذا ما يظهر من خلال قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فالأفعال الدالة على الأمر (اعتصموا، اذكروا) والفعل الدال على النهي في الآية كلّها أفعال كلاميّة مباشرة؛ حيث يأمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بأن يتمسّكوا بدينه، وأن يذكروا نعمته عليهم، والتي من جملتها الهداية للإسلام المؤدي إلى التآلف، وقد أسهم قوله تعالى: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ في تدعيم القوّة الإنجازيّة للفعل الكلامي (اذكروا)، فالله سبحانه وتعالى لما أمر عباده بذكره ذكّره بنعمه حتّى يتحقّق الغرض الإنجازي من الأمر والنهي، والذي هو التأثير في السّامع؛ ليقوم بما أمر به، ويكف عمّا نهي عنه، ويصبح بذلك الإنسان من المهتدين.

وتكمن غاية المتكلم أثناء مخاطبته للآخر في انسجام مقاصده بالأساليب التي يصوغ بها ملفوظاته؛ ولذلك وضح الخطيب "عبد الحميد مهدي" مفهوم انسجام الإنسان مع ذاته ومجتمعه، والكون كلّه من خلال وقوفه عند أربع قيم لبيان أثر القيم الأخلاقيّة في الفرد والمجتمع.

وكانت التوبة أول قيمة أخلاقية وقف عندها الخطيب " عبد الحميد مهدي" بقوله: " فما هي التوبة؟ أي قيمة خلقية؟ وما هي درجة أهميتها؟ ولماذا ركز عليها الدين الحنيف في القرآن والسنة؟"¹

إن مقصد الكلام هنا ليس السؤال الذي عبرت عنه القوة الإنجازية الحرفية، وإنما تضمن السؤال قوة إنجازية مستلزمة مقامياً تمثلت في تمهيد المخاطب لفعل توجيهي، فلقد كان المتكلم هو من يجيب عن تلك الأسئلة، حيث بين مفهوم التوبة بقوله: " التوبة طريق للنجاة، ودليل صدق على الإقلاع عن الذنوب، والرجوع إلى الله تعالى، ولها شروط وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على الابتعاد عنها... هذه هي القيمة الأولى التي تملك من الأهمية الكثير"²، وبذلك يكون الخطيب قد كشف عن قيمتها وأهميتها وشرح سبب تركيز الدين عليها، كل ذلك بغرض التأثير في المخاطب وحثه على التوبة؛ لأنها قيمة أخلاقية تحقق لفاعلها حياة طيبة.

وتتمثل القيمة الثانية في الصدق " فما أهمية الصدق؟ ولماذا هذا التأكيد عليه؟ قد يتفق جميع العلماء بأن الصدق قيمة خلقية حميدة، وقد تكون جميع مناهج التربية في العالم تضع قيمة الصدق في الاعتبار، ولكن هل يدركون قيمة الصدق كما يصورها القرآن؟"³

حمل هذا القول قوة إنجازية حرفية متمثلة في السؤال، وقوة إنجازية متضمنة تمثلت في حث المخاطب على الصدق، من خلال الوقوف على مفهوم الصدق، وتقديم الصورة الحقيقية له، وتبيين سبب تأكيد الإسلام عليه؛ فالإسلام حث على الصدق؛ لما لهذه القيمة من خير يعود على الإنسانية كلها. ولهذا كان الرسول (ﷺ) يأمر بالصدق في القول والفعل فيقول: " إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً"⁴، هذه هي نتيجة فضيلة الصدق على مستوى الآخرة.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص 31.

² - المرجع نفسه، ص 31، 32.

³ - المرجع نفسه، ص 32.

⁴ - المرجع نفسه، ص 33.

ولكن "ماهي أهمية الصدق على مستوى الحياة الدنيا؟ أليس الناس يكذبون جهارا ليحققوا مآربهم الدنيوية؟ أليست المجتمعات اليوم مبنية على الكذب؟ أليست العلاقات حتى بين الدول مبنية على المخادعة والكذب والبهتان؟ أليست القوانين الدولية تكذب على مستوى الإعلام العالمي؟"¹

تنوعت دلالات الاستفهام في هذه العبارات؛ ففي قوله: "ماهي أهمية الصدق على مستوى الحياة الدنيا؟ ليس القصد من الاستفهام هنا ما تضمنته القوة الإنجازية الحرفية، وإنما ما تضمنته القوة الإنجازية المستلزمة مقامياً، وقد تمثلت في التّحسر الذي كشف عنه المقام؛ إذ يتّصل "القصد بمقامات الكلام؛ لكونه يمثل المعنى الذي تقتضيه هذه المقامات، كما يؤدي دوراً أساساً في الملاءمة بين نوع الحديث وملابساته ونوع اللفظ، وهي جملة الظروف الحافة بالنّص"²؛ أي أن أغراض الكلام ومقاصده تختلف باختلاف مقتضيات الأحوال.

وإذا كان القصد هو الذي يحدّد الغرض من أي فعل لغوي، كما يحدّد هدف المتكلم من وراء ما يتلفظ به؛ فإنه يعدّ "محوراً أساسياً في المجال التداولي، وفي المجال التخاطبي كذلك وإذا كان المجال التداولي يتناول الأقوال والمعارف، والمعتقدات المشتركة المتعلقة بالمتكلم والمخاطب؛ فإنّ المجال التخاطبي، يتضمّن هذه العناصر التداولية باعتبار المتكلم والمخاطب يستحضران بعض هذه الأقوال والمعارف والمعتقدات المشتركة في زمن الخطاب"³؛ ولأهميتها فإن الخطيب "عبد الحميد مهدي" استحضرها؛ بغرض حمل المخاطب على الإقرار، والاعتراف بأمر استقر عنده؛ فالاستفهام في قوله: "أليس الناس يكذبون جهارا ليحققوا مآربهم الدنيوية؟ أليست المجتمعات اليوم مبنية على الكذب؟ أليست العلاقات حتى بين الدول مبنية على المخادعة والكذب والبهتان؟ أليست القوانين الدولية تكذب على مستوى الإعلام العالمي؟"⁴ يهدف إلى حمل المخاطب على الاعتراف بحقيقة مفادها أنّ الناس يعتمدون على الكذب في قضاء مصالحهم، ويتركون الصدق الذي هو أساس الخلق

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص 33.

² - أحمد كروم، مقاصد اللّغة وأثرها في فهم الخطاب الشّرعي، ص 161.

³ - المرجع نفسه، ص 153.

⁴ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص 35.

الحميد، وهو الأساس في بناء الثقة والمصداقية بين أفراد الأمة، وأفراد المجتمع، وأفراد المؤسسة الواحدة، بل وبين أفراد العائلة الواحدة؛ فالإنسان يجب أن يكون صادقاً مع نفسه ومجتمعه، منه أقول بأن المراد من الاستفهام هو ما تضمنته القوة الإنجازية المستلزمة مقامياً والمتمثلة في التقرير.

وفي خضم الحديث عن الفعل الكلامي المتمثل في الاستفهام رأيت أنه من المهم أن أستفيد من جهود علماء الأصول في تمييزهم لأصناف الأفعال الكلامية على أساس تداولي فقد درسوا الاستفهام وجعلوه منتقلاً بين الخبر والإنشاء بحسب السياق، وقصد المتكلم وقرضه من المخاطب "فالاستفهام بمعنى الخبر ضربان: أحدهما: نفي، والثاني: إثبات فالوارد للنفي يسمى: استفهام إنكار، والوارد للإثبات يسمى استفهام تقرير" ¹؛ لأنه يطلب بالأول إنكار المخاطب، وبالثاني إقراره به.

- استفهام الإنكار: المعنى فيه أن "ما بعد الأداة منفي، ويجيء لأغراض كتعريف المخاطب أن ذلك المدعي ممتنع عليه وهو نوعان: إبطالي وحقيقي أما في الإنكار الإبطالي فيكون ما بعد أداة الاستفهام غير واقع، ومدعيه كاذب، أما الإنكار الحقيقي فيكون ما بعد الأداة واقعا وفاعله معلوم.

- استفهام التقرير: ومضمونه حملك المخاطب على الإقرار بأمر قد استقر عنده" ²؛ أي الاعتراف بأمر قد استقر عند المتكلم.

والنوع الأول من الاستفهام هو الوارد في قول الخطيب: "أيرضيك حالنا؟ فمتى يا ترى نتوقف عن عمليات الهدم والإفساد الذاتي؟ ومتى يا ترى تختفي فينا مظاهر التخلف والاستبداد؟" ³؛ وعليه أقول إن السؤال المطروح لم يكتف بقوته الإنجازية الحرفية، وإنما حمل قوة إنجازية مستلزمة مقامياً تمثلت في الإنكار مما يدخله في خانة الفعل الكلامي غير المباشر؛ إذ أنكر المتكلم أعمال الفساد، وطلب بطريقة ضمنية الكف عنها.

¹ - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 516.

² - المرجع نفسه، ص 517، 518.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 33.

ويكون المتكلم بذلك قد أنجز فعلا كلامياً غير مباشر "نقول عن متكلم ما إنّه قد حقّق فعلا إنجازياً غير مباشر، عندما يحقق في الواقع فعلين لغويين إنجازيين مختلفين من خلال ملفوظ واحد، ولا يكون السؤال الذي هو القوة الإنجازية الحرفية المباشرة، وإنّما هو الطلب والإنكار"¹؛ ولهذا ينبغي للمتكلم أن يبيّن خطابه في كثير من الحالات على استراتيجيات مشتركة يعرف السامع على أساسها أنّ القول لا يؤخذ بمعناه الحرفي، لأنّ التلفظ يظلّ ناقصا نقصا ظاهرا إن أخذناه بشكله الحرفي فقط.

وهناك مقاصد يقصد إليها المتكلم في الأفعال الكلامية باستعمال الأساليب الملائمة كأسلوب الاستفهام، وذلك حين يريد أن يضمن كلامه معنى آخر غير المعنى الظاهر: كالتعجب والإنكار في مثل قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَ خَسِيفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسِيطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ

سورة سبأ الآية 9.

تتكوّن هذه الآية من فعل كلامي مباشر، وفعل كلامي غير مباشر، أمّا الفعل الكلامي المباشر، فهو ما دلّت عليه الصيغة الحرفية للاستفهام، غير أنّ الاستفهام في هذا السياق لا يراد به إنجاز فعل السؤال الذي يحتاج لجواب، وإنّما أنجز المتكلم (الله سبحانه وتعالى) بالاستفهام فعلا كلامياً غير مباشر دلّت قوّته الإنجازية المستلزمة مقامياً على معنى التعجب.

وقد اعتبر الأصوليون التعجب من الإنشاء غير الطلبي، وعرفوه بأنّه "استعظام زيادة في وصف الفاعل خفي سببها وخرج بها المتعجب منه عن نظائره، أو قل نظيره فيها"² ولهذا قيل إذا عرف السبب بطل العجب، واهتموا بمسألة التعجب من أفعال الله. "وقد ناقش الزركشي أصل هذه المسألة، وهو كيف ينسب إلى الله خفاء السبب أو جهل الحقيقة

¹ بتصرف: إدريس سرحان، طرق التّضمين الدلالي والتّداولي، أطروحة دكتوراه، المغرب: 1999، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ص345.

² مسعود صحراوي، التّداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط1. بيروت: 2005، دار الطليعة للطباعة والنشر، ص160 .

فاستحسنوا صنيع الزمخشري وهو إضافة إلى التعجب فعلا كلاميا ثانيا هو التعجب ومعناه "حمل المخاطب على التعجب، إذ إن فعل التعجب فيه مصروف إلى المخاطب"¹ فلا يوصف فعل الله سبحانه وتعالى بالتعجب؛ لأنه استعظام يصحبه الجهل، وهو سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك، وإنما المراد تعجب العباد من مذاهبهم الفاسدة؛ فالغاية من هذا التعجب أن يعود المخاطب إلى صوابه إن كان منكرا.

ولذلك خالط فعل التعجب الإنكار على انتفاء تأملهم في ما بين أيديهم، وما خلفهم من السماء والأرض؛ أي من المخلوقات العظيمة الدالة على أن الذي خلق تلك المخلوقات من عدم هو قادر على تجديد خلق الإنسان بعد موته، إذ جاءت الآية رداً على الكفار الذين أنكروا البعث، وأفاد حرف النفي في قوله (أفلم) الحث على التفكير والتدبر في آيات الله تعالى²، كما ورد استفهام التعجب الذي يشوبه الإنكار في قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٤٥﴾ أو يأخذهم في ثقلبهم فما هم بمُعْجِزِينَ ٤٦﴾ أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ٤٧﴾ سورة النحل 45-47.

كشف تحليل هذه الآية عن وجود فعل كلامي مباشر تمثل في الاستفهام الذي عدل عن دلالاته الحقيقية إلى دلالة مجازية نتج عنها فعل كلامي غير مباشر؛ فالاستفهام في الآية استفهام تعجب؛ لأجل الإنكار على الكفار والاستخفاف بهم وبعقولهم؛ إذ كيف يأمنون عقاب الله تعالى وعذابه، وقد علموا ما فعل الله بالذين من قبلهم، والإنكار يقتضي التهديد بدلالة الالتزام، وهذا ما عبرت عنه الآية؛ فالله يهدد المشركين بذكر بعض أنواع العذاب وليدعم المتكلم القوة الإنجازية للفعل الكلامي جاء بلفظة (بمعجزين) فهم بالرغم من ثقلبهم ليسوا معجزى الله "والتقلب هو السعي في شؤون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر ومحادثة ومزاحمة، والمعنى المراد هنا أن يهلكهم الله وهم شاعرون بمجيء العذاب فالتقلب مظهر من مظاهر القوة ورغم ذلك فإنهم لن يعجزوا الله بل سيحيط بهم العذاب وليؤثر مرة أخرى في

¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن ج2، نقلا عن مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية

لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ص 162.

² ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير.

السّامع قال: (فإنّ ربكم) بدل (إنّ الله) لأنّ من معاني الربّ المدبر لأمر عباده والراعي لشؤونهم¹. وليحمل المخاطب على ترك المنكر ختم الآية: بقوله: (فإنّ ربكم لرؤوفٌ رحيمٌ) لأنّ الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، ولا يتعجل بعقاب الكفار على كفرهم وظلمهم، وإنّما يعطيهم الفرصة الكافية للتّظر والتأمّل ومراجعة الحساب، وامتنثال أوامره، فينذرهم تارة ويذكرهم تارة بمصير العصاة، وفيها تأكيد (باللام وإنّ) دلالة على عظيم هذه النعمة، فلو تصورنا أنّ الله تعالى أخذ النّاس بظلمهم لعلمنا عظم فضله سبحانه وتعالى ورحمته بعباده.

2. مبادئ قيام العلاقات الإنسانيّة في الإسلام:

تقوم العلاقات الإنسانيّة في الإسلام على الأخوة والتضامن، والتسامح، والرحمة... الخ ولذلك حرص الإسلام على هذه المبادئ المثالية، حتّى تتحقق الوحدة في الأمّة الإسلاميّة وهذه القضايا تناولها الخطيب" عبد الحميد مهدي" في خطبه، وقد بدأها بالحديث عن رحمة الله الواسعة والتي "منها رحمة كاملة يختصّ بها عباده الصالحين فيتوب عليهم، ويغفر ذنوبهم، ويستر عيوبهم ويكشف كروبهم، في الحياة الدّنيا وفي الآخرة على الخصوص ورحمة مؤقتة خاصّة بالكفار والمنافقين والعصاة والضالين، من رزق وعافية وستر في الدّنيا، وإمهال وإملاء إلي يوم القيامة"².

لم تقتصر هذه الجمل على مجرد الإخبار بأنّ رحمة الله واسعة؛ فلم يعدّ "الإخبار هو القصد الوحيد عند المرسل، وإنّ عددناه واحدا من مقاصده، فليس القصد الرئيس، إذ يختبئ وراءه قصد آخر"³؛ هذا يعني بأنّ التّداولية تبحث في المعاني الضمنيّة والإضمارات التي يقصدها المتكلّم، فإلى جانب هذا الخبر؛ حمل الكلام هنا طلبا ضمنيا من المخاطب أن يسرع إلى التّوبة، ويفعل الخير ويجتنب المنكر؛ ليفوز برحمة الله في الدّنيا والآخرة، وبذلك تكون هذه الجمل قد تضمّنت فعلا كلاميا مباشرا ممثلا في الإخبار، وفعلا كلاميا غير

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّشوير، ج13، ص166.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص49، 50.

³ - حكيمة بوقرومة، "دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم"، مجلة الخطاب، ع3، تيزي وزو: 2008، ص 19.

مباشر تمثّل في نصح المخاطب بالالتزام بطاعة الله سبحانه وتعالى حتى يرحمه الله برحمته الواسعة.

والرحمة من صفات المسلمين ف: "المسلمون في مجموعهم يتراحمون كشخص واحد كل فرد منهم بالنسبة للمجتمع كعضو بالنسبة للشخص. ويتعاونون على تعميم الخير ويتعاونون على إزالة الشر"¹.

أبان تحليل هذه الجمل عن وجود فعل كلامي مباشر تمثّل في وصف المجتمع المسلم بالتراحم والتعاطف، وبالإضافة إلى الوصف والإخبار تضمّنت هذه الجمل دلالات أخرى إذ إنّ عددا كبيرا من العبارات المتلفظ بها مهما يشبه أن تكون جملا قد انكشف من أمرها كونها لم يقصد بها، لا في كلّها ولا في جزئها أن تخبر عن أمر أو أن تبلغ معرفة ما عن حدث واقعي على وجه مخصوص، مثلا أحكام القيمة في الأخلاق هي قضايا يقصد بها إظهار الشعور العاطفي أو إلزام نوع من السلوك، أو تعبيرى على وجه ما²؛ فالمتكلم يبدي انطباعه إزاء قضية ما من أجل حمل المخاطب على الإذعان، ولذلك نجده يستدل على أفكاره بقول الرسول (ﷺ) الذي قال: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"³.

وتبدأ الرحمة في الإنسان بنفسه، ثمّ يجب عليه أن يعمل على نشر هذه الرحمة في العائلة، برحمة الآباء والأمهات بالقول الكريم وصنيع الجميل، والخدمة الصادقة أم أنّه يقول: "إنّ الوالدين قاما بالواجب فقط، وأنا الآن أقوم بنفس الواجب فأربي الأولاد، وأولادي يربون أولادهم وهذه سنة الحياة، هذه كلمة حق أريد بها باطل، وهو المنطق الذي أخذ به الأوربيون وأصحاب الحضارة الغربيّة، فأصبحوا لا يلتقون بالوالدين إلا في المناسبات. وإذا كبر الوالدين وأصابهم العجز رموا بهم في دور العجزة. أهذا هو مصير الوالدين؟ أهذا هو جزاء الوالدين؟"⁴.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص 51.

² - أوستن؛ نظرية أفعال الكلام العامّة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ص 14.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص 51.

⁴ - المرجع نفسه، ص 239.

إن مقصد الكلام ليس السؤال الذي تضمّنته القوّة الإنجازيّة الحرفيّة، وإنّما تضمّن الفعل الكلامي استفهاما إنكاريا وتوبيخيا؛ لأنّ البحث التداولي هو بحث في المقصود الذي قد يختفي وراء الملفوظ، ولا يمكن أن يكون قصد المتكلّم شيئا لا تحمله اللّغة، إنّما قصد المتكلّم مضمّن في اللّغة مضاء بالسياق؛ نفهم من هذا أنّه لا يمكننا الكشف عن مقاصد المتخاطبين إلّا من خلال فهم اللّغة في سياق الاستعمال.

والسياق الذي ورد فيه الاستفهام هو الذي ساعدنا على الوصول إلى القصد الذي أراد المتكلّم تبليغه للمخاطب، والتبليغ عبارة عن "تقل فائدة القول الطبيعي يزدوج فيه الإظهار والاضمار؛ فيتبيّن أنّ المتكلّم ليس ذاتا ناقلة، حتّى تجوز مماثلته بـ"جهاز للإرسال، أو قل "المرسل" وإنّما هو ذات مبلّغة، أي ذات لا تقصد ما تظهر من الكلام فقط، بل تجاوزه إلى قصد ما تبطن فيه معتمدة على ما أوردت في متنه من قرائن وما ورد منها خارجه"¹، حيث قصد المتكلم استنكار فعل بعض الأبناء الذين لا يحسنون إلى الوالدين.

ويقتضي الإحسان إليهما طاعتها بالمعروف في إطار الشّرع وحدود المعقول، كما يقتضي أيضا الاعتراف بجميلهما، وما قدماه لنا من صنوف الرّعاية والعناية والخدمات ولذلك نجد الإسلام " يأمر أتباعه بصلّة الأرحام، ويوصيهم بالإحسان إلى الأقارب"².

جاء الأمر في هذه الجملة صريحا وتعتمد "الإنجازات الصريحة على الإبانة والمقصود بالإبانة هنا اشمال الملفوظ على فعل دال بذاته على الأمر"³، حيث أمر الإسلام بصلّة الرحم؛ لأنّها من الأخلاق الفاضلة التي تتبع من الإيمان يقول الرسول (ﷺ): "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه"⁴؛ وبالمقابل؛ فإنّ قطع الرحم من الصفات الذميمة التي حذرنا الإسلام من الوقوع فيها، إلّا أنه يوجد "هناك نوع من النّاس يقسمون أن لا يبروا

¹ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص216.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص175.

³ - عيد بلبع، التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس من اللسانيات إلى النّقد الأدبي والبلاغة، ص238.

⁴ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص175.

أقاربهم، وأن لا يصلحوا بين الناس؛ لأنهم فوجئوا بإساءة أقاربهم، أو بإساءات الناس إليهم¹.

تشكّل الفعل الكلامي في هذه الجملة من معنى صريح هو الإخبار؛ بأنّ هناك نوعاً من الناس يحلفون بالله أن لا يفعلوا الخير بأقاربهم؛ نتيجة إساءة أقاربهم لهم، ومعنى مستلزم مقامياً ممثلاً في نهي الناس عن هذا القسم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢٢٥) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ سورة البقرة الآيتان 224- 225.

تضمن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ النهي عن كثرة الحلف به لما في هذا النهي من الخير منها تعظيم الله سبحانه والآية جاءت "لبيان ما يترتب على تعظيم اسم الله تعالى واتقائه في حرمة أسمائه عند الحنث مع بيان ما رخص فيه من الحنث، أو لبيان التحذير من تعريض اسمه تعالى للاستخفاف بكثرة الحلف"²؛ لأنّ الإكثار من الحلف بالله تعالى فيه عدم مبالاة "وفي الجاهليّة كان الرّجل يحلف على ترك الخير من صلة الرّحم أو إصلاح ذات البين، أو إحسان ثم يقول أخاف أن أحنث في يميني، فيترك فعل البر"³؛ فجاءت الآية لتنهى عن المحافظة على اليمين، إذا كانت المحافظة عليها تمنع من فعل خير شرعي. وهذا النهي يستلزم إذا وقع الحلف على ترك البرّ والتقوى والإصلاح أنّه لا حرج في أن يكفر عن يمينه ويفعل الخير"⁴. وتضمن قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ فعلاً كلامياً مباشراً تمثل في الإخبار بأنّ الله لا يؤاخذ عباده بما لا قصد لهم فيه، بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وليدعم المتكلم (الله سبحانه وتعالى) القوّة الإنجازيّة للأفعال السابقة ختم الآية بقوله: ﴿والله غفور حلِيم﴾ وفائدته الامتتان على المؤمنين وشمول

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص 175.

² - محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّوير، ج 2، د ط. تونس: 1984، الدار التّونسية للنّشر والتّوزيع ص 376.

³ - محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّوير، ج 2، ص 378.

⁴ - المرجع نفسه، ص 379.

الإحسان لهم والحليم هو الذي يمهل بتأخير العقاب؛ فهاتان الصفتان تدلان على رحمة الله بعباده الذين حثهم على التّراحم.

وتعدّ المساواة من الأخلاق التي حثّ عليها الإسلام " فما معنى المساواة؟ وما حقيقتها في التّصور الإسلامي؟"¹

عدل الاستفهام هنا عن دلالة الحقيقة المتمثلة في طلب الفهم، إلى توجيه المخاطب لتطبيق العدالة وتحقيق المساواة؛ لأنها مبدأ مثالي يساوي بين النّاس في الحق والكرامة في أي مجتمع من المجتمعات التي تؤمن بهذا المبدأ وقد أكّد الرسول (ﷺ) ذلك بقوله: " النّاس سواسية كأسنان المشط"².

يهدف هذا الحديث إلى إلغاء أحكام الجاهلين الذين يميّزون بين النّاس، فلا تمييز بينهم بحسب أنسابهم أو طبقاتهم الاجتماعيّة، بل يجب معاملتهم معاملة واحدة من حيث القيام بالواجبات والاستمتاع بنفس الحقوق؛ فالحديث يمثل قاعدة أساسية في الدّين الإسلامي؛ والفعل الكلامي فيه ينتمي إلى صنف الإيقاعات التي بمجرد التّلفظ به يحدث التّغيير.

وبذلك تتحقق العدالة "والعدل في الإسلام عام لم يطلب من فرد مخصوص، بل هو مطلوب من كلّ أحد ومسؤول عنه كلّ إنسان. فإن كنت حاكماً ينبغي لك أن تكون عادلاً. وإن كنت قاضياً ينبغي لك أن تحكم بين المتخاصمين بالحق"³.

تضمّن الفعل الكلامي هنا معنًى صريحاً تمثل في إخبار المخاطب بأنّ العدل واجب على كلّ إنسان، فالحاكم يجب أن يعدل، والقاضي يجب أن يحكم بالحق، وقد تضمّن الخبر الأمر الذي عبّر عنه المتكلّم بالصيغة الدالة على الوجوب (ينبغي)؛ إذ هناك ألفاظ يعبر بها المتكلّم عن الأمر، مثل ألفاظ الوجوب وما في حكمها، وهذا ما يؤكده الغزالي بقوله: " وأما الألفاظ فمثل قوله: أمرتك وهو ينقسم إلى إيجاب وندب، ويدل على معنى الندب قوله: ندبتك ورغبتك، وافعل فإنّه خير لك، وعلى معنى الوجوب بقوله: أوجبت عليك، أو فرضت عليك

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص 75.

² - المرجع نفسه، ص 76.

³ - المرجع نفسه، ص 91.

أو حتمت عليك فافعل، فإن تركت فأنت معاقب وما يجري مجراه، وهذه الألفاظ الدالة على الأمر تسمى أمراً¹؛ لذلك اعتبر العلماء أنّ الوجوب في الأمر لا يتحقق إلا بوجود شرطي الصيغة والسلطة، وقد فسر "السكاكي" ذلك بقوله: "لا شبهة في أنّ طلب المتصور على سبيل الاستعلاء، يورث إيجاب الإتيان على المطلوب منه، ثمّ إذا كان الاستعلاء ممن هو أعلى رتبة من المأمور استتبع إيجابه وجوب الفعل بحسب جهات مختلفة وإلا لم يستتبعه فإذا صادفت هذه أصل الاستعمال بالشّرط المذكور أفادت الوجوب، وإلا لم تفد غير الطلب ثمّ إنّها حينئذ تولد بحسب قرائن الأحوال ما ناسب المقام"². ومن ثمّة فإنّ الوجوب في الأمر ليس مسألة لغويّة بل لغوية تداوليّة؛ إذ إنّ رتبة المرسل هي المحدّد لدلالة صيغ الأمر على الوجوب منه نقول بأنّ لفظ الوجوب (ينبغي) قد خرج عن دلالاته الحقيقية إلى دلالة مجازيّة تمثلت في النّصح والإرشاد؛ لأنّ لفظ الوجوب هنا لم يقترن بسلطة المتكلّم.

ومثلما أمرنا الإسلام بتطبيق العدالة فإنّه "يأمرنا بمقاومة الظلم لتحرير الأنفس من وطأته وتحرير المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان من القهر، والاستبداد ولو بالمقاومة المسلحة"³.

تضمّنت هذه الجمل فعلين كلاميين مباشرين تمثل الفعل الأول في الإخبار بأنّ ديننا يأمر أتباعه بمحاربة الظلم والاستبداد، وتمثّل الفعل الثّاني في الأمر الذي جاء صريحاً؛ إذ ظهر قصد المتكلّم من خلال الدلالة اللّغوية للجملّة، وهو ما عبر عنه "سيرل" (Searle) بمبدأ قابلية الإبانة *Principe d'exprimabilité*، ومفاده أنّ كلّ حالة ذهنيّة (فكرة أو اعتقاد أو رغبة أو مقعد الخ) تقبل الإبانة عنها بصراحة وحرفية بواسطة جملة⁴، وهذا يعني أنّه لا توجد حالة ذهنيّة لا يمكن التّعبير عنها بصراحة.

¹ - أبو حامد الغزالي، المستصفى في علم الأصول، تح: عبد السلام عبد الشافي، د.ط، بيروت: 1996، دار الكتب العلميّة، ص318.

² - السكاكي، مفتاح العلوم، ص318، 319.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ص104.

⁴ - آن ربول وجاك موشلار، التّداولية اليوم علم جديد للتّواصل، تر: سيف الدّين دغفوس، محمد شيباني، ط1 بيروت: 2003، دار الطليعة للطباعة والنشر، ص43.

والبعد التداولي واضح هنا في قصد المتكلم إحداث أثر بعينه في السامع، وحمله على محاربة الظلم، وليؤثر أكثر في السامع استشهد بقوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٧٤﴾ وما لكَزْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَأَجْعَلْ لَنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَأَجْعَلْ لَنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ سورة النساء الآيتان 74-75.

يكشف تحليل الآية عن وجود فعلين كلاميين مباشرين: يتمثل الأول في الأمر الذي عبّر عن دلالاته الحقيقية، فالأمر في هذه الآية مفاده إلزام السامع القيام بالفعل المطلوب منه، والذي يعطي لهذا الأمر قوته هو منزلة المتكلم صاحب السلطة المطلقة، فهذا أمر من الله وهو سبحانه وتعالى أدرى بمصالح عباده.

وقد استوفى الفعل الكلامي شروط الملاءمة، فشرط المحتوى القضوي فعل في المستقبل مطلوب من المخاطب، وهو أمر المسلمين بالقتال في سبيل الله تعالى، أما الشرط التمهيدي فيتمثل في قدرة المخاطب على إنجاز الفعل المطلوب منه، وفي الوقت نفسه؛ فإن المتكلم على يقين بقدرة السامع على إنجاز الفعل، وأنه يريد ذلك حقا، وهو ما يعرف بشرط الإخلاص، أما الشرط الأساس فيظهر في إرادة المتكلم التأثير في المخاطبين؛ لينجزوا الفعل مستعينا بوسائل تعديل القوة الإنجازية والتي منها: إنجازه لفعل كلامي آخر مباشر عبر عنه المحتوى القضوي هو الوعد؛ فالله سبحانه وتعالى وعد بأن يؤتي المجاهد في سبيله أجرا عظيما سواء أقتل في سبيل الله، أم غلبه عدوه وظفر به.

وإن الجهاد من العبادات العظيمة التي يثاب عليها الإنسان، وقد أمر الله سبحانه وتعالى الرجال به؛ فاعتقدت النساء في زمن الرسول (ﷺ) أن الرجل مفضل على المرأة؛ فبعثن بأسماء بنت يزيد الأنصارية إلى الرسول (ﷺ) تستفسره في هذا الأمر؛ فقالت: "يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أنا وافدة النساء إليك. إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبالله، إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم، وإتكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعة، وعبادة المرضى

وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإنّ أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً، حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم. أفنشارككم في الأجر والخير؟ فالتفت النبي (ﷺ) بوجهه كلّهُ، ثمّ قال: هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟ فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أنّ امرأة تهتدي إلى مثل هذا؟ فالتفت النبي (ﷺ) فقال: أفهمي أيتها المرأة واعلمي من خلفك من النساء أنّ حسن تبعل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كلّهُ. فانصرفت المرأة وهي تهلّل حتى وصلت إلى نساء قومها، فبشرتهن".¹

أخبر الرسول (ﷺ) الصحابة (رضي الله عنهم) عن إعجابه بهذه المرأة التي اهتدت إلى أمر مهم؛ فالحديث يبيّن ما شعر به المتكلم (الرسول ﷺ)؛ الذي كشف عن فرحته بفعل هذه المرأة للصحابة واتضح ذلك في قوله: (هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟) كما عبّر الحديث عن الحالة النفسية للمرأة التي استبشرت بقول الرسول (ﷺ) وذهبت تهلّل، أمّا اتجاه المطابقة فهي في اتجاه فارغ، أي ليس لهذا النوع اتجاه مطابقة، إذ يغني عنه شرط الإخلاص الذي يؤول إلى إنجاح الفعل. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة 228).

تميز عصر الجاهلية بتفضيل الرجل على المرأة؛ حيث حرمت هذه الأخيرة من أبسط حقوقها، فجاء الإسلام ونادى بتحقيق العدالة، وضبط حقوق الزوجين بوجه لم يبق معه مدخل للظلم، وأول إعلان لهذا العدل بين الزوجين في الحقوق، كان بهذه الآية العظيمة التي بيّن الله سبحانه وتعالى فيها حقوق الرجال والنساء، وأمر كل طرف بالقيام بحقوق الآخر؛ فكشف الشطر الأول من الآية عن حقوق النساء وأبطل معاملة الجاهلية لهن وما فيها من احتقار. وفي رواية عن ابن عباس (رضي الله عنهما) "كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً فلما جاء الإسلام وذكرهن الله رأينا لهن بذلك علينا حقا من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا"²

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص334.

² - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص397.

ومن ثم فإنّ الفعل الكلامي في الآية في قوله: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾¹ ينتمي إلى صنف الإيقاعات التي يكون الهدف منها إحداث واقعة؛ فالمتكلم أراد بإعلانه لحقوق النساء وإبطال ظلم الجاهلية؛ وإعلان عدالة الإسلام إحداث التغيير؛ فأصبحت المرأة تراث وتتمتع بجميع حقوقها، وتعبّر عن أفكارها.

ولتعدّل القوّة الإنجازيّة للفعل الكلامي قدّم "الظرف (لهنّ) للاهتمام بالخبر؛ وقد قدمه ليصغي السامعون إلى المسند إليه"¹؛ وفي هذا إعلان لحقوق النساء، وإشادة بها؛ فالآية تبيّن حق كلّ طرف على الآخر، وليس الغرض منها الإخبار فقط؛ إنّما الغرض منها إنجاز فعل لتحقيق التغيير في الواقع وإبطال أحكام الجاهليّة؛ فدين الإسلام دين تشريع ونظام، وقد نادى بإقامة العدالة وإصلاح حال المرأة ورفع شأنها لتتهيأ الأمة الداخلة تحت حكم الإسلام إلى الارتقاء وسيادة العالم.

أمّا في قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقد أعلن الله سبحانه وتعالى أنّ للنساء حقّاً كحقّ الرجال، "وجعل للرجال درجة زائدة منها وهذه الدرجة هي ما فضل به الأزواج على زوجاتهم: لهم حقّ الطلاق ولهم حقّ الرجعة"² وهذا يعني أنّه يجب على النساء تقدير أزواجهن؛ فالفعل الكلامي التقريري يخبر عن مكانة الرجل في الإسلام، وقد اهتم بتقديم حقّ النساء وفي هذا الاهتمام مقصدان: "أولهما: دفع توهم المساواة بين الرجال والنساء مطلقاً.

وثانيهما: تحديد مقدار تفضيل الرجال على النساء لإبطال الاعتقاد بإثّارهم المطلق الذي كان متبعاً في الجاهليّة"³؛ إذ ليس غرض الآية الإخبار، وإنّما إبطال أحكام الجاهلية وحمل المخاطبين على التغيير، وأن يعترف الرجل بحق المرأة ويقوم بواجبه تجاهها. وهذا ما يصطلح عليه بالمسؤوليّة فـ "المسؤوليّة إذاً هي شعور الإنسان بأنّ الله جل جلاله فرض

¹ - الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّوير ، ص 397.

² - المرجع نفسه، ص 402.

³ - المرجع نفسه، ص 402.

عليه فرائض وأوجب عليه أن يؤديها ويلتزم بها، ورتب على القيام بها ثوابا وأجرا، وعلى تركها عقوبة ووزرا¹.

يمكن تحديد قصد المتكلم في هذه الجملة انطلاقا من المعنى الحرفي لها، فقد كشف الخطيب عن مفهوم المسؤولية هذه الأخيرة تتكوّن أساسا من الضمير الخلقى الذي يعبر عنه في الإسلام بالوازع الديني الذي من معانيه؛ استحضار عظمة الله في القلب والخوف منه ومراقبته ابتغاء مرضاته وحسن ثوابه، ومحاسبة النفس ومجاهدتها؛ لإقامتها على الطريق المستقيم والتّحلي بالأخلاق والآداب الكريمة، ولقد أكد الرسول (ﷺ) عليها فقال: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته: فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته. والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته. والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيته. والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته. والولد راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته. فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"².

نفهم من هذا الحديث بأنّ الإسلام ضبط مسؤولية الرجل وضبط مسؤولية المرأة وضبط مسؤولية الخادم ومسؤولية الولد، ويفيد معنى الحديث بالإضافة إلى معنى الإخبار معنى متضمنا في القول تمثّل في توجيه المستمع للقيام بعمل ما؛ حيث تضمّن الحديث دعوة قوية إلى القيام بالواجبات ومراعاة الحقوق، والحديث يقرّر المسؤولية لكلّ فرد في ما ولّاه الله من نفوس وأموال وأعراض ومصالح الخلق وحوادثهم، لتحقيق هدف منشود وهو تحقيق الانسجام بين الأفراد؛ لأنّ المتكلم لا يهدف "إلى وصف الحالة الراهنة للأشياء، وإنّما يهدف إلى دفع المخاطب للقيام بواجبه، وهكذا تتحقق رؤية "أوستين" (Austin) التي مفادها أنّ النطق بالجملة هو إنجازها وإنشائها"³؛ أي تحقق الفعل بمجرد التّلفظ به.

وينبغي الإشارة إلى أنّ الإنشاء الذي يقصده "أوستين" (Austin) ليس هو المفهوم الشائع في التراث العربي لمصطلح الإنشاء، "فمفهوم الإنشاء في الدرس البلاغي يتسع عن

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم الأخلاق، ص 145.

² - المرجع نفسه، ص 92.

³ - عيد بلبع، التّداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس من اللّسانيات إلى النّقد الأدبي والبلاغة، ص 266.

مفهوم "أوستن" (Austin) ليشمل الطلب من أمر ونهي واستفهام... الخ. والإنشاء الذي قصده "أوستن" (Austin) لا يتحدد في الجملة الطلبية بل يتحدد في الجملة الخبرية التي يكون للسياق أثر في توجيه معناها ليتجاوز الوصف والإخبار؛ فليست كل الجمل خبرية، فمن الجمل ما يتوفر لها نحوياً الشروط التي تجعلها خبرية، ولكنها لا تصف ولا تخبر بشيء ولا تثبت أمراً ما على وجه الإطلاق، ومن ثم يكون النطق بهذه الجمل إنجازاً لفعل أو إنشاء لجزء منه¹؛ أي أن المتكلم ينجز الفعل بمجرد النطق به، سواء كانت الجملة خبرية أم إنشائية.

وقد تأسست فكرة "أوستن" (Austin) في ما يخص الأسلوب الخبري على التفريق بين الخبر الخالص الذي يدخل تحت معيار الصدق والكذب، والخبر الذي يحمل دلالة ضمنية تتمثل في طلب إنجاز فعل ما وأطلق على هذا النوع من الأساليب الأقوال الإنجازية، ويقصد بها الأقوال التي يقصد بها إنجاز فعل ما؛ أي الأخبار التي تحمل دلالة الطلب، ولا تنتفي عنها دلالة الخبرية تماماً²، ولهذا تضمنت الجمل السابقة طلباً بالإضافة إلى دلالتها الخبرية وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على أنه لا يمكن تحديد قصد المتكلم انطلاقاً من ظاهر اللفظ؛ لأنّ المتكلم لا يعبر عن قصده وفق شكل اللغة الدلالي مباشرة بما يتطابق مع معنى الخطاب ظاهرياً .

3. مظاهر الإسلام ومعاملة المخاطب بحسب عمله:

تعدّ النظافة أول مظهر من مظاهر الإسلام، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالنظافة ولم يخصصها بزمن معين ومكان معين، وإنّما أمرنا بها في كلّ زمان وكلّ مكان بدليل قوله تعالى:

﴿يَبْنَىءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلَّا يَمْ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ

¹ - عيد بلبع، التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس من اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة ، ص264.

² - المرجع نفسه، ص 263.

مَا تَرَىٰ نُزِّلَ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾ سورة الأعراف من الآية 31 إلى الآية 33.

استعمل المتكلم (الله سبحانه وتعالى) الياء لنداء البعيد؛ للاعتناء بالأمر المدعو له والذي عبرت عنه الأفعال الكلامية الواردة في الآيات منها: أمر بني آدم بالاستتار؛ ردًا على أهل الجاهلية في ما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة، الرجال بالنهار، والنساء بالليل وكانوا يزعمون في ما يأتون من الفحشاء كالتعري أن الله جل ثناؤه أمرهم بذلك، كما ادعوا أنه عز وجل حرم عليهم شيئًا مما في بطون الأنعام وحرم عليهم البحيرة والسائبة¹ وإن كان لنزولها سبب خاص، إلا أن الله سبحانه وتعالى خاطب من خلالها جميع بني آدم وأمرهم بالاستتار. وهو أمر على جهة الاستعلاء هذا الأخير شرط تداولي؛ إذ يحدّد علاقة المتكلم بالسّامع؛ بحيث يجب أن تكون مرتبة المتكلم أعلى من درجة السّامع، حتى يستطيع التأثير في المخاطب عن طريق سلطته. وهذه السلّطة هي التي توجب على المخاطب تنفيذ الأمر المطلوب منه؛ ولذلك ارتبط مفهوم "الاستعلاء بالأمر والنهي إذ يشترطه البلاغيون وكثير من الأصوليين في صيغتي (افعل) و(لتفعل) لأجل تسميتهما أمرًا كما يشترطونه في صيغة (لا تفعل) لأجل تسميتها نهياً، وإن لم تستعمل على سبيل الاستعلاء سموها دعاء أو التماساً²؛ حيث يقول "السكاكي" في باب الأمر "والأمر في لغة العرب عبارة عن استعمالها أعني استعمال نحو: لِيُنزِلْ وَإِنْزِلْ وَنَزَالَ وصه على سبيل الاستعلاء، وأما أن هذه الصور والتي من قبيلها هل هي موضوعة لتستعمل على سبيل الاستعلاء أو لا؟ فالأظهر أنّها موضوعة لذلك وهي حقيقة فيه لتبادر الفهم عند استماع نحو: قم، وليقم زيد، إلى جانب الأمر وتوقف ما سواه من الدعاء والالتماس والندب والإباحة والتهديد على اعتبار القرائن³؛ وبهذا يكون الاستعلاء شرطاً أساسياً كلما استعمل المتكلم صيغة من صيغ الأمر بطريقة مباشرة.

¹ - ينظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ط1. بيروت: 1988.

² - الصبحي هُدوي، الإنشاء بالقول مقارنة نحوية تداولية للأوامر والنواهي أعمالاً لغوية، ص64.

³ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص317.

وقد تتجزأ التوجيهات من خلال المنطوقات الإنجازية غير المباشرة، والتي منها خروج الأمر لدلالة الإباحة كما في قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ حين استعملت صيغة الأمر في سياق فهم المخاطب حظر الإتيان بالشيء. وفي قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾؛ أي لا تسرفوا في الأكل بكثرة أكل اللحوم والدسم؛ لأن ذلك يعود بأضرار على البدن؛ ففتنشا عنه أمراض كثيرة؛ فجاء النهي نهي إرشاد لا تحريم بقريئة الإباحة اللاحقة في قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾. وقد تدعمت القوة الإنجازية لفعل الإرشاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾؛ حيث أفادت (إِنَّ) التعليل الذي استلزم الإرشاد؛ ليكون الله تعالى قد أثر بقوله في السامع الراغب في نيل حبه جل ثناؤه "وقد ابتدئ الكلام السابق بأن اللباس نعمة من الله وثني بالأمر بوجوب التستر عند كل مسجد وثالث بإنكار أن يوجد تحريم اللباس"¹ وبذلك عدلت صيغة الاستفهام في قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ عن دلالاته الحقيقة والتي هي طلب العلم بشيء لم يكن معلوما، إلى دلالة الإنكار الذي أفاد التوبيخ. وهذا ما يقتضي وجود فعل متضمن في القول بدلالة الالتزام ممثلا في النهي، وانتقل المتكلم إلى فعل كلامي آخر دللت فيه صيغة الأمر ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ على وجود فعل كلامي مباشر، وهو أمر الرسول (ﷺ) بإخبار الناس بما أمره الله تعالى، وفعل كلامي غير مباشر وهو تبشير المؤمنين بأن زينة الله خالصة لهم دون المشركين وفيها حذف تقدير؛ أي هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا وهي خالصة للمؤمنين في الآخرة"²؛ لأن السامع مستحضر له عارف من المتكلم القصد؛ حيث انطلق المتكلم مما هو معلوم ومشترك بينه وبين السامع وهذا ما يصطلح عليه بالافتراض المسبق "وهذه الافتراضات المسبقة لا يصرح بها المتكلمون، وهي تشكل خلفية التبليغ الضرورية لنجاح العملية التبليغية وهي محتواة في القول، سواء تلفظ بهذا القول إثباتا أو نفيا"³؛ فلكل خطاب افتراضات مسبقة مستمدة من

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج8، ص 95.

² - العكبري، الثبيان في إعراب القرآن، تح: علي محمد الجاوي، دط، دت. ج1، ص564.

³ - الجبلاي دلالش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، الجزائر: 1994، ص34.

المعرفة العامة وسياق الحال، ليولد ثبوتهم على الإيمان فعلا تأثيرياً نستشفه من قوله: ﴿نُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْمُونَ﴾ وهو الثناء على "المسلمين الذين تدبروا الآيات وأخذوا بها وتعريض بجهل المشركين الذين استمروا على عنادهم، ثم أعقب مجادلتهم ببيان ما حرم الله حقا وهم ملتبسون به وعاكفون على فعله، فالقصر المفاد من (إنما) قصر إضافي مفاده أن الله حرم الفواحش، وما ذكر معها لا ما حرمتوه من الزينة والطيبات¹. وفي مقام استعمال (إنما) يتحقق شرط تداولي وهو أن "يكون السامع لا يصر على الخطأ بل يجب عليه أن لا يصر على الخطأ"²، وليدعم المتكلم القوة الإنجازية لفعل الأمر استعمال الفعل (حرم) بدل (لا تفعل) التي يمكن أن يعدل فيها النّهي عن معناه الحقيقي إلى دلالات أخرى منها الكراهة؛ ليفهم السامع بذلك التحريم لا غيره.

وتكون بذلك الأفعال الكلامية في الآيات قد استوفت "شروط الملاءمة بتعبير "سيرل" (Searle) فشرط المحتوى القضوي فعل في المستقبل مطلوب من المخاطبين وهو وجوب التستر وإباحة الأكل والشرب، والنّهي عن الافتراء على الله وقول ما لم يقل، أما الشرط التمهيدي فيتمثل في قدرة المخاطب على إنجاز الفعل والعمل بالأوامر، والكف عن المنهي عنه، وفي الوقت نفسه المتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إنجاز هذا الفعل، وأنه يريد ذلك حقا، وهو ما يعرف بشرط الإخلاص. أما الشرط الأساس فيظهر في إرادة المتكلم التأثير في السامع لينجز الأفعال المطلوبة منه، والمتمثلة في لزوم الاستتار، والتزين عند التوجه إلى المساجد، والتمتع بنعم الله منها: الشرب والأكل وقد بيّن الرسول (ﷺ) الآداب العامة للأكل فقال: "اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجل مما يليه"³.

استعمل المتكلم صيغة الأمر في قوله: (اذكروا، وليأكل) في سياق التعلّم، وبيان ما ينبغي فعله عند البدء في الأكل؛ فإنتج فعلا كلاميا غير مباشر تمثّل في نصح وإرشاد المسلمين إلى ذكر الله عند البدء في الأكل، وأن يأكلوا ممّا يليهم، ويدهم اليمنى وفي هذا

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج8، ص99.

² - ينظر: أم الخير سلفاوي، البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم ل "السكاكي"، مذكرة ماجستير، ورقة: 2009.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 24.

الصدد قال الرسول (ﷺ) " إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وليشرب بيمينه؛ فإنّ الشيطان يأكل ويشرب بشماله" ¹.

تكوّن هذا الحديث من فعل كلامي مباشر تمثّل في الأمر (فليأكل، وليشرب) وفعل كلامي غير مباشر تمثّل في إرشاد المسلمين إلى ضرورة الأكل بيمينهم واليمينى؛ وليؤثر المتكلم في المخاطبين استخدم أسلوب التعليل في قوله: (فإنّ الشيطان يأكل ويشرب بشماله)؛ والمسلم مطالب بمخالفة الشيطان ثم أرشدهم إلى تنظيف أفواههم بعد الأكل فقال: " نظفوا أفواهكم فإنّها طريق القرآن" ².

عدلت دلالة الفعل الكلامي في هذا الحديث عن المعنى الحرفي للقوة الإنجازية والمتمثّل في الأمر (نظفوا)، إلى معنى مستلزم مقاميا تمثّل في النصّح والإرشاد بقرينة سبقت هذا الحديث وهي قوله: (ﷺ): "السواك مطهرة للفم مرضاة للرب، ما جاءني جبريل إلّا أوصاني بالسواك حتّى لقد خشيت أن يفرض عليّ وعلى أمّتي" ³؛ حيث بيّن المتكلم للمخاطب السبب الذي جعله ينصحهم بتنظيف أفواههم، وإن كان هذا ليس بالسبب الوحيد وإنّما هناك أسباب أخرى، ولكن المتكلم اختار الأقوى منها ليؤثر في المخاطب؛ فلا يمكن لنا أن نتصوّر فعلا تبليغيًا أينما كان ومهما كانت طبيعته، يخرج عن الغاية التي سعى إليها المتكلم وهي التأثير في المخاطب، ولذلك عمد المتكلم إلى تقوية إنجازية الفعل الكلامي باستخدامه لأسلوب التعليل في قوله (فإنّها طريق القرآن).

ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على رسوله؛ ليبين للعالمين تعاليم ديننا الحنيف الذي اهتم بأمور كثيرة منها النظافة وفي هذا الصدد يقول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "أيها المسلمون الأفاضل/ إنّ مكانة النظافة في الإسلام عظيمة ومنزلتها كريمة وهي شرط من شروط الدين وكماله، وهي زينة العباد وتحفة المدائن ولذلك صدر جميعهم قديما وحديثا، كتبهم بباب الطهارة، لأنّه أساس البناء ومفتاح كلّ الأبواب" ⁴.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينيّة والوطنية والدولية، ص 24.

² - المرجع نفسه، ص 20.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينيّة والوطنية والدولية، ص 19.

ابتدأت هذه الجمل بالنداء؛ لأنّ النداء أول فعل كلامي يقوم به المتكلم لبت مقاصده وقد حققت آليّة النداء هنا أغراضاً منها تنبيه المخاطب؛ ليهتم بما يلقي إليه، فالمتكلم وهو ينتج حديثه يّح على ضرورة حضور السّامع وعلى ضرورة الانتباه والنّظر إليه. وفي هذه الإشارات الماديّة إلى حضوره قيمة تداوليّة كبيرة تتمثّل في أنّه لا يمكن إنتاج الخطاب الذي يريده المتكلم دون استحضار سامعه؛ حيث "يرى التّداوليون أنّ نجاح عمليّة التّواصل تقتضي معرفة المخاطب وتعيينه، فهو يمثل السّاند لاكتمال الوظيفة التّواصلية لخطاب ما، إذ لا يمكن تبين كنه الكلام على نحو دقيق، إلا بعد التّعرف على من وجّه إليه الخطاب في داخل النّص"¹؛ لذلك حرصت البلاغة على تعيين المخاطب في النّص، كما عنيت التّداولية بالسياقات المختلفة، وأطراف الموقف التّواصلية عناية كبيرة ف " للفعل الدلالي غاية أساسية هي استدعاء المخاطب وإبلاغه شيئاً ما"²، وبذلك يكون المخاطب هو محور العملية التّواصلية؛ لأنّ الهدف الأساس من الخطاب هو إيصال رسالة إلى شخص ما أو إلى مجموعة من الأشخاص؛ حيث أراد الخطيب "عبد الحميد مهدي" إخبار المسلمين بأهمية النّظافة، والتّأكيد على مكانتها في الإسلام؛ وبذلك تكون العبارة التالية: (إنّ مكانة النّظافة في الإسلام عظيمة ومنزلتها كريمة) ملفوظاً وصفيّاً تقريرياً مؤكداً بأداة التّوكيد (إنّ).

وإذا نظرنا إلى التّوكيد من زاوية بلاغية ودلالية نجده يضيف إلى المعنى معانٍ مضافة، لم يفدها الإخبار وحده، وإنّما أفادتها زيادة أداة التّوكيد (إنّ) ويكون الكلام بذلك مطابقاً لمقتضى حال بعض المسلمين الذين لا يهتمون بالنّظافة، والملفوظ مستعمل في معنياه: الصريح ممثلاً في إخبار المسلمين بمكانة النّظافة وأهميتها في الإسلام، والضمني: ممثلاً في حث ونصح المسلمين بالتّزام بالنّظافة وليدعم الخطيب القوة الإنجازية لفعله الكلامي استشهد بقوله (ﷺ): "إنّ هذا الدين بنيّ على النّظافة"³.

¹ - مؤيد آل صوينت، الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، دط، بغداد: 2009. ص 91.

² - ينظر: صبحي إبراهيم الفقي علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - دراسة تطبيقية على السور المكيّة، ط 1 القاهرة: 2000، دار قباء، ص 23.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدنيّة والوطنيّة والدوليّة، ص 19.

تضمّن الحديث فعلا كلاميا مباشرا حمل قوّة إنجازيّة صريحة، تمثّلت في إخبار المسلمين، بأنّ الإسلام يدعو إلى نظافة الجسم، كما يدعو إلى نظافة المرافق العموميّة: كالشوارع والآبار، والعيون والسّاحات العامّة، والحدائق المشجرة التي يتجمّع فيها النّاس، وقوّة إنجازيّة مستلزمة مقاميا تمثّلت في التأكيد على أهميّة النّظافة، ونصح وحث المسلمين على الالتزام بها، ولأنّ منهم من لا يلتزم بالنّظافة رغم علمه بمكانتها في الإسلام استخدم المتكلم عناصر لغويّة أسهمت في تعديل القوّة الإنجازيّة؛ فجاء بالجملة الإسميّة مصدرية ب(إنّ) للتوكيد؛ "لأنّ المتكلم لم يعامل المتلقي على أنّه خالي الذهن، وإنّما عامله معاملة المتلقي المتردّد رغم أنّه مسلم، فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأنّ المخاطب إذا لم يعمل بمقتضى علمه؛ فإنّ الكلام يلقي إليه على خلاف مقتضى حاله؛ أي يعامل على أساس تصرفه لا على أساس علمه؛ لأنّ كمال العلم بمضمون الخبر حصول مقتضاه، فإذا لم يحصل، لم يحصل كمال العلم"¹؛ واستخدم المتكلم اسم الإشارة (هذا) الدال على القريب في قوله (إنّ هذا الدّين) تمييزا للمشار إليه المتمثّل في الدّين الإسلامي، الذي يهتم بالنّظافة ويلح عليها، ويثني على المتطهرين؛ إذ ينبغي على المسلمين أن يمثلوا هذا الدّين أحسن تمثيل، ولا يتحقّق ذلك إلا بالافتداء بهدي الرسول (ﷺ) والاعتناء بنظافة الثّوب والمكان؛ "إنّ الإسلام يؤكّد على هذه النّظافة ويلح عليها"².

تكوّنت هذه الجملة من فعل كلامي مباشر تمثّل في إخبار الإمام المسلمين؛ بأنّ الإسلام يهتم بالنّظافة ويؤكد عليها، ولأنّه يمكن للغة أن تخرج عن الأصل فتنزّل الخالي الذهن منزلة المنكر؛ "لأنّ المعرفة أو العلم تقتضي اللزوم أي التّنفيد لمقتضاها، وإن لم يعمل الإنسان بما علم يعدّ جاهلا ومنكرا ويعامل في الخطاب معاملة المنكر والجاهل"³؛ فإنّ المتكلم خاطب المتلقي بالكيفيّة اللّغويّة المخصوصة المطابقة لحال المنكر؛ باعتبار واقع بعض المسلمين الذين لا يحافظون على النّظافة، ولا يهتمون بها الأمر الذي جعل المتكلم

¹ - عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشنوي، الكافي في علوم البلاغة المعاني، البيان، البديع، د ط. الإسكندرية: 1993، منشورات الجامعة المفتوحة، ص78.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدنيّة والوطنيّة والدوليّة، ص19.

³ - عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشنوي، الكافي في علوم البلاغة، المعاني، البيان، البديع، ص 80.

يبدأ الجملة بأداة التوكيد (إنّ)، كما قوى إنجازية الأفعال الكلامية باستعمال الفعل (يؤكد) بصيغة المضارع الدال على الاستمرار؛ أي الاستمرار في التأكيد على ضرورة النظافة، كما دعم المتكلم شدة الغرض الإنجازي بقوله (يلح)، لأنّ الإلحاح هو التأكيد مع الإصرار فالفعل يلح أكثر قوة من الفعل (يؤكد) إذ " لكلّ لفظة دلالة خاصة. وحينما نستعمل لفظة دون أخرى نُحملها دلالة دون غيرها نعلم أنّها قادرة على إيصال مقاصدنا التي نريدها إلى مستمعينا؛ فالاختيار لم يكن بطريقة اعتباطية"¹ وبذلك يكون ملخص هذا المضمون الإنجازي أنّ البنية لم تكف بمجرد الإخبار، بل سعت إلى تحقيق أشياء في الواقع فإضافة إلى القوة الإنجازية الحرفية الواصفة، والمقررة أنجزت الجملة أفعالاً كلامية متضمنة في القول، إذ أنّ "ما يتلفظ به المتكلم من كلام، يتحوّل إلى أفعال ذات امتداد اجتماعي وتعتبر في الوقت نفسه حملاً للمخاطب، على القيام بفعل معيّن"²؛ والمسلم إذا تقرر في نفسه مدى حرص الإسلام على النظافة، سيحافظ على نظافته، ونظافة الوسائل التي يستعملها للنظافة.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى النظافة شرطاً من شروط دخول الجنة قال الرسول (ﷺ):

"إنّه لن يدخل الجنة إلا من كان نظيفاً"³.

تضمن الحديث معنى صريحاً تمثل في ما أخبر عنه (ﷺ)، وآخر ضمناً تمثل في التأكيد على أهمية النظافة بنوعها الروحية والجسدية، وأمر المسلمين بها. ولأنّ بعض المسلمين لا يهتمون بنظافة أجسامهم وقلوبهم اعتقاداً منهم أنّها وإن كانت شرطاً من شروط الإيمان لا يمكن أنّ يكون عدم الالتزام بها سبباً لدخولهم النار استعمل المتكلم صيغة النفي والاستثناء وراعى فيهما شرطاً تداولياً؛ وهو اعتقاد السامع؛ الذي يرى المتكلم بأنّ السامع مخطئ فيه ويصرّ على اعتقاده "ما من موضع فيه النفي والاستثناء إلا والمخاطب عند المتكلم مرتكب للخطأ مع الإصرار"⁴؛ ودعم المتكلم القوة الإنجازية لفعله الكلامي بالتأكيد

¹ - ينظر: سحالية عبد الحكيم، "التداولية النشأة والتطور"، مجلة مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، بسكرة: 2009، العدد 5.

² - عمر بلخير، "مقالات في التداولية والخطاب"، الجزائر: 2013، دار الأمل للطباعة والنشر، ص 189.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 19.

⁴ - أم الخير سلفاوي، البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم لـ "السكاكي"، ص 143.

الذي دلّت عليه الأداة (إنّ) باعتبار حال بعض المخاطبين الذين لا يهتمون بنظافة أجسامهم وقلوبهم ومحيطهم وإن كان لابد لهم أن يعملوا بقوله (ﷺ): "إنّ الله تعالى طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود؛ فنظفوا أنفسكم ولا تشبهوا باليهود"¹.

جاء التوجيه في هذا الحديث مركبا باستعمال الأمر والنهي حيث أمر الرسول (ﷺ) المسلمين بالنظافة ونهاهم عن التشبه باليهود، ومن العناصر التي أعطت للتوجيه قوته الإنجازيّة سلطة المتكلم التي توجب على المخاطب تنفيذ الأمر ومن أدوات التوجيه التي ساهمت في تقوية الفعل الكلامي في هذا الحديث مدح الأشياء والثناء على فاعلها أضف إلى ذلك استخدام المتكلم لأداة التوكيد (إنّ).

4. نتيجة الاستفهام فرصة للوقوف على نجاح الرسالة:

ويلجأ الصحابة رضوان الله عليهم إلى الرسول (ﷺ) ليستفسروا عن بعض الأمور التي تتفهم في دينهم، وديناهم فهذا أبو قتادة (رضي الله عنه) يسأل الرسول (ﷺ) قائلاً: "يا رسول الله إن لي شعر جمة -الشعر إذا بلغ المنكبين- أفأرجلها؟ أي أمشطها" قال: نعم وأكرمها، فكان أبو قتادة (رضي الله عنه) ربما دهنها في اليوم مرتين من أجل قوله (ﷺ): وأكرمها"².

أفتتح هذا الحديث بالتداء؛ لكونه مدخلا لأفعال كلاميّة أخرى؛ وقد حمل الفعل الكلامي (أفأرجلها) قوّة استفهاميّة مباشرة، وهي "طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل"³؛ وبذلك يكون الاستفهام من الآليات التوجيهية التي توجّه المرسل إليه إلى خيار واحد وهو ضرورة الإجابة عن السؤال، وقد أجاب الرسول (ﷺ) إجابة واضحة وصادقة، كما استخدم القدر المطلوب من الكلمات من حيث الكم، وأجاب إجابة وثيقة الصلة بسؤال الصحابي، ولتعديل القوة الإنجازيّة للفعل الكلامي استعمل المتكلم (أكرمها) وكانت النتيجة ما ورد في السياق "فكان أبو قتادة (رضي الله عنه) ربّما دهنها في اليوم مرتين من أجل قوله (ﷺ) وأكرمها"⁴، وبهذا يكون

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينيّة والوطنية والدولية، ص 33.

² - المرجع نفسه، ص 20.

³ - عيسى علي العاكوب، علي سعد الشتوي، الكافي في علوم البلاغة المعاني، البيان، البديع، ص 263.

⁴ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينيّة والوطنية والدولية، ص 20.

المتكلم قد أنجز فعلا كلامياً بمكونيه الإنجازي والتأثيري "فحوى الفعل الكلامي أنه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وفضلا عن ذلك يعدّ نشاطا مادياً نحوياً يتّوسل أفعالاً قولية؛ لتحقيق أغراض إنجازية، وغايات تأثيرية تخصّ ردود فعل المتلقي¹؛ وهذا ما يجعلني أسلم بأهمية الفعل التأثيري؛ لأنّ معيار نجاح الفعل الكلامي هو الأثر الذي يظهر على السامع؛ إذ إنّ فعل التأثير فرصة للوقوف على نجاح الرسالة، والتي يكون الهدف منها في كثير من الأحيان هو توجيه المرسل إليه لإنجاز فعل في المستقبل ومن أمثلة ذلك توجيه الرسول (ﷺ) للصحابي الذي قال له: "يا نبيّ الله علمني شيئاً أنتفع به؟ قال: "اعزل الأذى عن طريق المسلمين"².

بدأ المتكلم كلامه بالنداء والنداء ممهد لأفعال كلامية تأتي بعده منها: الاستفهام الذي حاد عن دلالاته الأصلية في هذا الحديث إلى دلالة الطلب، فالاستفهام في هذا المقام هو ما عبّر عنه "السكاكي" بقوله: "إنّ الاستفهام طلب وليس بخفي أنّ الطلب إنّما يكون لما يهملك ويعنيك شأنه لا كما وجوده وعدمه عنده بمنزلة"³، وقد طلب الصحابي (رضي الله عنه) من الرسول (ﷺ) أن يعلمه شيئاً ينتفع به، ويكون سبباً في نيله لرضا الله تعالى، فأجابه الرسول (ﷺ) بقوله: (اعزل الأذى عن طريق المسلمين)، وقد خرج فيها التوجيه بصيغة الأمر (اعزل) عن دلالاته الحقيقية، والمتمثلة في إلزام المرسل إليه بفعل في المستقبل إلى دلالة الإرشاد والنصح والندب التي كان لوجه المصلحة دور في تحديدها؛ حيث "يخرج التوجيه إلى معان أخرى وهي الندب والتأديب والإرشاد، إلا أنّ هذه الوجوه لها معانٍ متقاربة، ويمتاز بأنّ الندب توجيه إلى ما يرجى به ثواب الآخرة والتأديب توجيه إلى ما يهذب الأخلاق، ويصلح العادات والإرشاد توجيه إلى ما فيه مصلحة دنيوية"⁴، وقد تضمن توجيه الرسول (ﷺ) كلّ المعاني التي

¹ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ص 40.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 21.

³ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 317.

⁴ - علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، د. ط. القاهرة: 1959، ص 253.

يتضمنها التوجيه؛ لأنّ إمطة الأذى عمل يعود نفعه على الفرد والمجتمع؛ وهو من الأخلاق السامية والسلوكيات القيمة التي يؤجر فاعلها في الدنيا والآخرة.

وارتبط شرط المحتوى القضوي في هذا الحديث بفعل في المستقبل مطلوب من المخاطب وهو إبعاد الأذى عن الطريق، وقوى هذا المحتوى الشرط التمهيدي كون المخاطب قادراً على إنجاز الفعل والمتكلم على يقين من قدرة المخاطب على الإنجاز، ويتأكد الفعل الطلبي بشرط الإخلاص؛ فالتكلم يريد حقا من المخاطب أن ينجز هذا الفعل؛ لأنّه يترتب عليه مصلحة للفاعل والمجتمع، وبذلك يتحقق الشرط الأساس المتمثل في إرادة المتكلم التأثير في السامع. ولقد استوفت الأفعال الكلامية في هذا الحديث قوانين الخطاب من إخبارية وشمول وصدق وإفادة، كما استعمل المتكلم الاستراتيجية التوجيهية وفق ما يقتضيه المقام وقرائن الأحوال؛ فنتج عن هذا الفعل الإنجازي فعل تأثيري؛ لأنّ المرسل إليه أظهر رغبته في القيام بالعمل الذي يوجهه إليه الرسول (ﷺ).

وتهدف أفعال التوجيه إلى التأثير في المخاطبين، فبعد الاستفهامات التي يطرحها المخاطب يجيب باسم المخاطبين، ومن أمثلة ذلك السؤال الذي طرحه "عبد الحميد مهدي" في سياق حديثه عن التلوث البيئي: "ما هو الهواء يا ترى؟ وما هي تركيبته؟ وما هي مصادر تلوثه؟ وكيف نحافظ عليه؟"¹.

لقد كان الخطيب "عبد الحميد مهدي" هو من يقدم الإجابة عن كلّ استفهام يطرحه؛ لأنّ الهدف من أسلوب الاستفهام في خطابات المسجد ليس تلقي الإجابة، بل أن تأتي الإجابة باستجابة فعلية، وبذلك يكون الاستفهام هنا ليس استفهاما حقيقيا، بل استفهاما جاء به المتكلم ليكون تمهيدا لفعل توجيهي، والمتمثل هنا في توجيه السامع، وحثه على المحافظة عن الهواء والبيئة، وبهذا يكون المتكلم قد أنجز فعلين، أحدهما مباشر تمثل في الاستفهام الذي عبّرت عنه القوة الإنجازية الحرفية، وآخر غير مباشر تمثل في التوجيه الذي عبّرت عنه القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا؛ حيث تعدد المتكلم الإتيان بأسلوب الاستفهام بدل أن يعتمد إلى تعريف الهواء مباشرة، ثم يبين تركيبته ومصادر تلوثه وكيف نحافظ عليه بغرض

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص39.

لفت الانتباه؛ لأنّ الإخبار المباشر والتبليغ لا يحققان الغرض من الخطاب والمتمثل هنا في توضيح مخاطر التلوث وأهمها انتقال الأمراض عن طريق المياه الملوثة، ولذلك يجب على المسلمين أن يحرصوا على نظافة المياه وفي هذا الصدد يقول الخطيب "عبد الحميد مهدي":
 "أيها المسلمون هكذا يتبين لنا أنّ الماء إذا بقي على طبيعته نقياً صافياً وطاهراً، فإنّه يكون نعمة على الأحياء جميعاً وعلى الإنسان بصفة خاصة ولكن عندما يتدخل الإنسان بغير علم وبغير نظام؛ فإنّه يلوّث الماء وينجسه؛ فيتحوّل حينئذٍ إلى حامل للموت"¹.

أنجز المتكلم فعلاً كلامياً مباشراً حمل معنًى صريحاً فحواه أنّ الماء الصافي نعمة وإذا تلوث؛ فإنّه يتحول إلى نقمة تتسبب في كثير من الأمراض، وفعلاً كلامياً غير مباشر حمل معاني ضمنية مستلزمة مقامياً "والمعاني المفهومة الضمنية هي المعاني التي تتجاوز حرفية الجملة، ويلعب السياق دوراً في تحديدها وبيانها"²، وهذا يعني أنّ المعنى يظل ناقصاً إن أخذناه بشكله الحرفي، ولذلك يجب البحث عن المعنى المتضمن والمتمثل هنا في تأكيد المتكلم على قيمة الماء، وضرورة الاعتراف بأنّه نعمة من خلال إرشاد الناس إلى الحفاظ عليه وتوبيخ الأشخاص الذين يقومون بتلويثه، وتهديدهم بعذاب الله تعالى؛ لأنّ الواقع يعكس طبيعة كثير من الناس الذين لا يعرفون قيمة الماء ولا يعترفون بهذه النعمة، ويستمرّون في تلويثه. وليؤثر المتكلم في المخاطبين استعمل أداة التوكيد (إنّ) وكرّرها مرتين لتزيد تأكيد الخبر، وهكذا يخدم الغرض التداولي؛ لأنّ تكرار العمل ضمان لتحقيقه، وهو بلغته هذه يشير إلى حالة ذهنية أخرى، يكون فيها السامع عالماً بالخبر الذي أفاده به المتكلم، إلاّ أنّه لا يعمل بمقتضى علمه؛ فيلجأ المتكلم إلى صيغة الخبر الإنكاري باستعماله لأدوات التوكيد التي يختلف قدرها بقدر إنكار السامع؛ لأنّ الذي لا يحافظ على النعمة، ولا يشكر الله نعمه يعتبر ناكراً. والمتكلم باستعماله لأدوات التوكيد يسعى لتحقيق غرض تداولي وهو محاولة التأثير في السامع، وجعله يحافظ على نعمة الماء، ولا يلوّثه حتّى لا يؤذي الناس بفعله.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 29.

² - فليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص 144.

ولذلك "يجب على مستوى العائلات أو الأحياء، أن يراقبوا آبارهم وعيونهم وينظفوها ويظهروها بالمطهرات المعروفة: كماء جافيل، وأن يتفادوا كل اتصال بين المياه الطاهرة والمياه المستعملة"¹.

استعمل المتكلم لفظ الوجوب (يجب)؛ ليؤكد للمخاطبين ضرورة مراقبة الآبار وتنظيفها؛ فأنتج بذلك فعلا كلامياً مباشراً تمثل في الأمر الذي دلّت عليه القوّة الإنجازيّة الحرفيّة، والتي تتمحي فتصبح دلالة الجملة الوحيدة هي الدلالة المستلزمة، والمتمثلة في الالتماس والنصح نتيجة الإخلال بشرط من شروط الأمر وهو الاستعلاء والذي يقتضي أن يكون الأمر في موقع يسمح له بتوجيه الأمر؛ إذ إنّ "المسافة التي نحتفظ بها بيننا وبين محدثنا والمكان وبين محدثنا والمكان الذي نحتله في مجلس الرفقة أو حول طاولة... والموضع الذي نأخذه ممن نخاطب أمراً أو نهياً أو مسألة أو مشورة (...). علامات تدلّ على وضعنا الاجتماعي وتشكل نظام رموز تختلف أدواته بحسب الثقافات"². ولذلك اعتنى علماء الأصول والبلاغة العرب بمراتب المتخاطبين، والعلاقة التي تربطهم والتي تؤثر "بوجه من الوجوه في عمليات التّواصل بين مستعملي اللّغة؛ فاعتنوا بدراسة الأمر والنهي على وجه الخصوص بالأمر والنّاهي في علاقتهما بالمأمور والمنهي عنه؛ ليفرقوا بينهما وبين سائر المعاني البلاغية التي تخرج إليها صيغتهما، وعلى هذا الأساس فصلوها على وجه الحقيقة عن المعاني الحافة بهما مما ينجز بصيغتهما شأن الدعاء والالتماس أو إلى أغراض أخرى منها النصح"³؛ أي أن الاستعلاء شرط ضروري لإصدار الأوامر، ونظراً لغيابه خرجت صيغة الأمر إلى دلالة الالتماس والنصح؛ حيث نصح الخطيب المخاطبين بضرورة المحافظة على الماء لأنه نعمة.

وليدرك النّاس هذه النعمة يبتليهم الله سبحانه وتعالى بالجفاف، فيصلون صلاة الاستقاء وهي "سنة تقام، يخرج لها الإمام كما يخرج للعديد، ضحوة فيصلي بالنّاس ركعتين يجهر فيهما بالقراءة، يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى، والشّمس وضحاها، وفي كلّ

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة والأعياد والمناسبات الدّينيّة والوطنية والدولية، ص 30.

² - الصبحي هادي، الإنشاء بالقول مقارنة نحوية تداولية للأوامر والنواهي أعمالاً لغوية، ص 63.

³ - المرجع نفسه، ص 64.

ركعة سجدة واحدة ويتشهد ويسلم، ثم يستقبل الناس بوجهه فيجلس جلسة، فإذا اطمان الناس قام متكئا على عصا، فخطب ثم جلس، ثم خطب، فإذا فرغ استقبل القبلة فحوّل رداءه، يجعل ما على منكبه الأيمن على الأيسر وما على منكبه الأيسر على الأيمن، ولا يقلب ذلك، وليفعل الناس مثله، وهو قائم وهم قعود، ثم يدعو كذلك، ثم ينصرف وينصرفون، ولا يكبر فيها غير تكبيرة الإحرام والخفض والرفع، ولا أذان فيها ولا إقامة¹.

يتضمن هذا الخطاب جملة من الأفعال الكلامية، تراوحت بين الماضي الذي يفيد التقرير والمضارع الدال على الحاضر؛ ليساعد المتلقي على استحضار الصورة التي تؤدي بها الصلاة في ذهنه فاقترضى المقام التعبيري بأفعال كلامية معبرة بشكل صريح عن كيفية أداء صلاة الاستسقاء مع موافقتها لشروط الملاءمة، وقوانين الخطاب من إخباريّة، وشمول وصدق وإفادة.

واندرج تحت الفعل الكلامي المباشر فعل كلامي متضمن في القول تمثل في حث المؤمنين، وتوجيههم إلى ضرورة الاقتداء بالرسول (ﷺ)؛ الذي كان يصلي صلاة الاستسقاء التي تكثر فيها الحركات ذات الصلة بالعبادة، ولهذا كثرت الأفعال الدالة على الحركة في هذا الخطاب منها: (يخرج، يصلي، يستقبل، جلس، قام حوّل، يجعل، يقلب، يفعل ينصرف) وهنا تكمن القوة الفاعلة التي تحملها الأفعال بغرض إحداث أثرها الإيجابي في المستمع.

ويتضمن هذا الخطاب ما تدعو إليها التداولية وهو القصدية والتأثير "فالقصدية تفترض دائما وجود قصد أولي لدى المرسل، ويكون ظاهرا في النص وقصد ثانوي ويكون مضمنا فيه؛ حيث يحاول المتلقي القراءة لفهم قصد المرسل الكامن"²؛ أي أنّ المتكلم يتواصل بشكل أكثر مما يفصح عنه المحتوى الظاهر للملفوظ، وعلى السامع أن يتوصل إلى قصد المتكلم الكامن في النص، والمتمثل هنا في حث المسلمين على الاقتداء بالرسول (ﷺ).

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 84، 85.

² - يعقوب خام، البراجماتية، ط2. مصر: 1998، الهيئة المصرية للكتاب، ص131.

5. ذكر العواقب وإيقاظ الضمير الإنساني:

يعدّ ذكر العواقب من أدوات التوجيه التي تقوي إنجازيّة الفعل الكلامي؛ لأنّها من الآليات المباشرة والصريحة التي يوجهها المتكلّم إلى المخاطب وفق مجموعة من الأوامر والنواهي وتختتم بإظهار العاقبة في الأخير كما جاء في قول الخطيب: "يا أصحاب محلات المواد الغذائيّة، راقبوا سلّكم ولا تبيعوا المواد التي انتهى أجلها ولو بيوم واحد، فإنّكم إن بعتموها تكونوا قد خالفتم القانون، وتجاوزتم حدود الشرع وتسببتم في الإضرار بالحياة البشريّة"¹ استهل المتكلّم حديثه بالتداء؛ لتنبية المخاطب إلى ما سيُلقى إليه، ثمّ أمره بمراقبة السّلع، ونهاه عن بيع السلع التي انتهى أجلها. وقد خرج الأمر والنهي عن دالتهما الحقيقيّة؛ لأنّ مرتبة المتكلّم ليست أعلى من مرتبة السّامع؛ ولكي يؤثر المتكلّم في السّامع، ويجعله يأخذ بتوجيهاته عمد إلى مؤشرات ساهمت في تقوية إنجازيّة الفعل منها: ذكر العواقب وتحذير السّامع، وتخويفه عن طريق إخباره أنّ بيع ما انتهت صلاحيته جريمة يعاقب عليه القانون والدين، كل ذلك بهدف إيقاظ الضمير؛ لأنّ جوهر الدين في الضمير والوعي بالمسؤولية. وهذا الضمير يجب أن نعى به أولاً وآخراً لأنّه هو الإسلام جوهرًا ومظهرًا أصلاً وفروعًا، ومقتضيات عصرنا ومجتمعنا تفرض علينا أن نحيا لا علوم الدين فقط وإنّما ضمير الإنسان ويكون ذلك بالتأكيد على شدة العقوبة "ألا إنّ كلّ متسبّب لهذه الأوبئة سيسأل أمام الله سؤالاً عسيرًا، وسيعذب عذاباً شديداً"².

تضمّنت الجملة فعلاً كلامياً مباشراً تمثّل في الإخبار عن مصير المتسببين في هذه الأوبئة، وأفعالاً كلاميّة غير مباشرة تمثّلت في حث المسلمين على مراقبة السّلع وتهديد المتسببين في الأمراض بسبب بيعهم للسّلع التي انتهى أجلها، ولأنّ تمكين المعنى في ذهن السّامع يحتاج إلى مؤكّادات كثيرة؛ استعمل الخطيب أداة التّحضيض (ألا)؛ ليحض ويحث السّامع على مراقبة السّلع وأضاف أداة التّأكيد (إنّ) لتقوية خبره. كما استعمل الفعل المضارع وأدخل عليه حرف (السين) في قوله: (سيسأل سيعذب) في مقام الوعيد لزيادة التّأكيد على

¹ عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدنيّة والوطنية والدولية، ص32.

² المرجع نفسه، ص29.

عظم المعصية، ولزيادة شدة الغرض الإنجازي استعمل المتكلم لفظة (عسيرا، وشديدا)؛ ليقرر في نفس السامع أنّ وقوفه أمام الله سبحانه وتعالى ليس بالأمر السهل، وأنّ عذاب المفسدين ليس بالأمر اليسير، وهذا يخدم الغرض التداولي؛ فإذا امتلأت الأفعال الكلامية قوة كان تأثيرها إيجابيا، فتنزع نفس المخاطب إلى القيام بالمطلوب منه، ويتحقق بذلك الفعل التأثيري. ويكمن الغرض الإنجازي للفعل الكلامي في توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما، ولذلك يلجأ المتكلم إلى الأخبار التي تتضمن التوجيه باستعمال أسلوب التهيب منها قوله: (إنّ الزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات هي جند من جنود الله يسلمها على من يشاء فهي ابتلاء للمؤمنين، واعتبار للنّاجين وللنّاس أجمعين، وعذاب للعصاة والمذنبين)¹.

تضمنت هذه الجملة فعلا كلاميا مباشرا هو الإخبار، وأفعالا كلامية متضمنة في القول، وهي: أمر المسلمين بطاعة الله، وحثهم على الالتزام بها وتهديد العصاة وتذكيرهم بأنّ الزلازل فيها حكمة، وهي أنّ الله سبحانه وتعالى ابتلاهم بها لعلمهم يرجعون إليه نادمين تائبين. وتؤدي أداة التأكيد (إنّ) دورا في تحديد قوة الفعل الكلامي؛ حيث جاءت الجملة على صيغة الخبر الطلبي المؤكد بمؤكد واحد، إذ عامل المتكلم المتلقي معاملة المتردد في الخبر؛ لأنّ بعض النّاس يتّمدون في المعاصي، فصاغ لهم الخبر على حسب حالهم؛ ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي استعمل الفعل المضارع (يسلم) للدلالة على التجدد؛ أي يتجدد نزول البلاء عليهم إن استمروا على المعاصي، وأصروا عليها.

ويستعمل المتكلم في مقامات خاصة: "كالرضا والغضب والحزن والنجاح أفعالا كلامية غرضها التعبير عن المشاعر والأحاسيس، وهي كثيرة، منها: الشكر، الاعتذار، التهنئة، الندم، والحسرة، الغضب، الشوق، والمواساة..."² ومن أمثلة ذلك ما قاله الخطيب في سياق حديث عن زلزال الأصنام (شلف) يوم 10 أكتوبر 1980 إذ قال: "إنّ الموقف لرهيب وإنّ الخطب لجليل وإنّه لحري بنا أن نواجه هذه الفاجعة بحكمة وحسن وتدبير، فنشارك

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 53.

² - حكيمة بوقرومة، "دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم" - مقارنة تداولية-، ص 15.

إخواننا المنكوبين الآمهم، ونقاسمهم ما نزل بهم، بإظهار التضامن والتعاون والتكافل معهم¹.

تضمّن الفعل الكلامي لهذه الجمل قوّة إنجازية صريحة تمثلت في وصف الموقف والإخبار عن شدة الفاجعة، والتأكيد على قوتها والحث على مؤازرة المنكوبين. ولجعل السّامع يتخيّل الموقف عمد المتكلّم إلى تصويره له باستعمال مؤشرات لغويّة تساعد على تعديل القوّة الإنجازية، وتأكيد الأفعال؛ فاستعمل أدوات التّوكيد (إنّ واللام) وكرّرها ثلاثة مرات "وجدوى التّوكيد أنّك إذا كررت فقد قررت المؤكّد ما علق به في نفس السّامع، ومكّنته في قلبه، وفائدة التّأكيد تمكين المعنى في نفس المخاطب"²، وهذا يخدم الغرض التّداولي؛ لأنّ المتكلّم يكرّر ليضمن تحقيق العمل المتمثل في مساعدة المنكوبين. وخوفاً من أن يتخلف أو يتكاسل أحد في مساعدتهم استعمل صيغة الخبر الإنكاري في نقله للخبر؛ ليعبث الهمة في نفس السّامع ولزيادة شدة الغرض الإنجازي استعمل الألفاظ (رهيب جليل، الفاجعة) ليكون أقرب في التّصوير وأبلغ في التّأثير.

ويفترض أن يتجه المتكلّم بخطابه إلى التّكثير من فائدة المتلقين حتّى يجتنبوا المعاصي استعداداً للموت، ولهذا نجده يحذر المخاطبين من الموت فيقول: "فاحذروا الموت؛ فإنّه يأتي فجأة، واستعدوا له ليلاً ونهاراً بطاعة ربكم في السرّ والعلن، وبما تقدمون في دنياكم من حسنات، وما تجتنبون من سيئات، وبما تبدلون من جاهكم ومالكم ابتغاء وجه الله³.

أنجز المتكلّم فعلاً كلامياً مباشراً، أضمر وراءه فعلاً كلامياً غير مباشر تمثّل في النّصح والإرشاد؛ أي نصح المسلمين بالاستعداد للموت وليوم القيامة مستشهداً بقوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدنيّة والوطنية والدولية، ص57.

² - ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، ج3، ط1، بيروت: 2001، دار الكتب العلميّة، ص221.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدنيّة والوطنية والدولية، ص55.

مُرْضِعَةً عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ سورة الحج الآيتان 1-2.

افتتحت سورة الحج بهذا النداء الموجه من الخالق عز وجل إلى الناس جميعا، والذي يأمرهم فيه بامتثال أمره واجتناب ما نهى عنه؛ فجاء الفعل الكلامي في هذه الآية مباشرة؛ حيث طابقت القوة الإنجازية الحرفية مراد المتكلم (الله سبحانه تعالى) المتمثل في أمر السامعين بعبادته.

وبعد الأمر من أكثر الأساليب استعمالا في التوجيه " فبمجرد نطق المتكلم بصيغة الأمر يكون قد أضفى على نفسه مرتبة الأمر، فيضع الآخر في مرتبة المأمور"¹؛ وإذا وضع المتكلم نفسه في مرتبة الأمر، فإنه يطلب بذلك حصول الفعل على جهة الاستعلاء، وهذا الأخير شرط تداولي؛ إذ يحدد علاقة المتكلم بالسامع؛ بحيث يجب أن تكون مرتبة المتكلم أعلى من درجة السامع. وقد أعطت بعض العناصر في النص التوجيه قوته منها: "قوله (رتكم) إيماء إلى استحقاقه أن يتقى لعظمته، وإلى جدارة الناس بأن يتقوه؛ لأنه بصفة تدبير الربوبية لا يأمر ولا ينهى إلا لدرء المفسد عن الناس ومراعاة مصالحهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾² تعليل لموجب الأمر بذكر بعض عقوباته منها: تشبيهه بالزلزلة العظيمة التي تذهل الأمهات، وتجهض الحاملات. ويبدو الناس سكارى وما هم بسكارى بسبب الرعب الشديد²؛ نفهم من هنا بأن الله سبحانه وتعالى ذكر هذه العواقب ليزيد من قوة التوجيه.

¹ - عمر بلخير، مقالات في التداوليات والخطاب، ص48.

² - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتثوير، ج17، ص186.

المبحث الثاني: قصديّة الامتثال في الخطاب الديني:

إنّ الامتثال تحقيق "إرادة المتكلم والاستجابة لرغبته في الفعل أو الانتهاء عنه؛ فبمجرد

أنّ ينجز المتكلم الأمر؛ فإنّه يضطلع بدور ما ويكلف المخاطب بدور مكمل، وهو حينئذ يعبر عن إرادته، ويفصح عن رغبته في أن يذعن المخاطب لطلبه ويمتثل له. ومن ثمّ فهو يكشف عن سلطة (autorité) يستوجبها الامتثال للطلب أمراً، وتقتضيها مبادرة المخاطب بالاستجابة له¹، هذا يعني بأنّ الامتثال مرهون بشرط الاستعلاء؛ الذي يمنح الأمر أو النّاهي الحق في توجيه الأوامر، ويستوجب على المخاطب الاستجابة لهذه الأوامر؛ والقيام بالفعل المطلوب منه. "ولا تعدو هذه الطلبات أن تكون أوامر تتفاوت خلالها قوّة القول وتختلف؛ إذ يمكن أن تنطلق من مجرد الاقتراح اللين لتصل إلى المطالبة الإيجابية؛ فيكون الأول على سبيل الاستعلاء والإلزام"²؛ ومن مميزات الأوامر بما هي طلبات³:

- أن يلزم المخاطب بإحداث المطالبة بين العالم والقول؛
- أن تكون صادرة عن نية وإرادة ورغبة من المتكلم؛
- أن يفترن الفعل المطلوب إحداثه بالزمان المستقبل؛
- أن يكون المخاطب قادراً على الامتثال.

1. الامتثال تحقيق لإرادة الذات عبر الآخرين:

تهدف الخطابات الدينية على اختلاف أشكالها إلى جعل المخاطبين يمتثلون لأوامر الله سبحانه وتعالى، ويعبدونه بالكيفية التي يريدها؛ وبذلك ينالون الثواب؛ المترتب على أفعالهم المختلفة التي ينتمي بعضها إلى صنف العبادات وبعضها يندرج ضمن العادات. وقد اهتم الإسلام بكلّ هذه الأعمال؛ لأنّها عبادات يستحق فاعلها أن يثاب عليها، بشرط أن تصلح نيته بدليل قوله (ﷺ): "إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى"⁴.

¹ - الصبحي هدوي، الإنشاء بالقول مقارنة نحوية تداولية للأوامر والنواهي أعمالاً لغوية، ص39.

² - المرجع نفسه، ص133.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص213.

جاء الفعل الكلامي في هذا الحديث مباشرة غرضه الإخبار بأنّ كلّ عمل إلاّ وله نية لا بدّ للسّامع أن يعقدها. وتعتبر (إنّما) عند علماء اللّغة أداة حصر، وهنا الأعمال هي المحصور على النّية" فجميع الأعمال محصورة ومتعلقة بالنّية، ولا تقتصر النّية هنا فقط على العبادات، وإنّما تدخل فيها حتّى العادات"¹؛ هذا يعني أنّه يمكن للإنسان أن يعقد النّية في كلّ عمل يقوم به. كما كشفت من خلال تحليلي للحديث بأنّ المتكلّم قد عمد إلى الاستخدام الكميّ للّغة وفق حاجات المخاطبين؛ إذ يختار البليغ في التّعبير عن الأشياء إمّا الإيجاز، أو الإطناب، أو المساواة التي جاء على قياسها هذا الحديث حسب ما فسره أهل البلاغة.

ويقصد بالمساواة" أن يكون اللفظ بقدر أصل المراد لا ناقص عنه ولا زائد عليه"²؛ إذ إنّ مقام المساواة هو مقام الإتيان بالأصل؛ حيث لا مقتضى للعدول عنه؛ فيعبر المتكلّم عن المعنى المقصود بلفظ مساو له. وهذا ما أشارت إليه الدّراسات الحديثة في إطار وضع جملة القواعد لإنجاح عمليّة التّواصل؛ إذ وضع "غرايس" (Grice) مبادئ التّعاون التي ظهرت واضحة في الحديث؛ حيث أعطى المتكلّم للمتلقي القدر اللازم من المعلومات، ولو نقص لفظ منها لوقع الخلل في المعنى بمقدار ذلك النقصان. ويكون المتكلّم بذلك قد حقق الإفادة" إننا نقرر أنّ كلّ الأنماط تدور حول حكم الإفادة، وهو أكثر صحة ودقة من الأحكام الأخرى"³؛ لأنّ المتكلّم يفيد المخاطب بمعلومات مهمة، ومنها إخباره بأنّ النية هي أساس الدّين.

كما يأمرنا ديننا بأداء الفرائض الدنيّة، والمداومة على كافة العبادات منها: قراءة القرآن والصلاة عملا بقوله تعالى: ﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِئَلَّا تُصَلِّتَ عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ سورة العنكبوت الآية 45.

¹ - سالم عطية، شرح الأربعين النووية، باب هل تدخل النية في جميع الأعمال، ج1، ص7.

² - عبد المتعال الصعيدي، البلاغة العالية علم المعاني، ط2، مصر: 1991، ص117.

³ - C.K Orecchioni, L'implicite, Paris:1986, Armand Colin éditeur, p199.

وجه الله سبحانه تعالى خطابه للرسول (ﷺ)، حيث أمره بتلاوة القرآن، وإقامة الصلاة ولا يعني توجيه الأمر إلى الرسول (ﷺ) بأنه هو فقط المعني بأدائها، وإنما يشمل الأمر هنا جميع المسلمين؛ ومفاد الأمر في هذه الآية إلزام السامع بالقيام بالفعل المطلوب منه، وقد استوفى الفعل الكلامي شروط الملاءمة؛ فشرط المحتوى القضوي فعل في المستقبل مطلوب من المخاطبين وهو أمرهم بتلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، أمّا الشرط التمهيدي فيتمثل في قدرتهم على إنجاز الفعل والعمل بالأوامر. وفي الوقت نفسه المتكلم متأكد من قدرتهم على إنجاز الفعل، وأنه يريد ذلك حقا، وهو ما يعرف بشرط الإخلاص، أمّا الشرط الأساس فيظهر في إرادة المتكلم التأثير فيهم؛ لينجزوا الفعل مستعينا بوسائل تعديل القوة الإنجازية، والتي منها تعليل الأمر بالصلاة في قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾؛ لأنّ الصلاة إنّ تمت على الوجه الأكمل كانت لها فائدتان: أنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر وفيها فائدة أعظم ألا وهي: ذكر الله لعباده الذين يذكرونه، ويشمل ذكر الله سبحانه وتعالى أداء الصلاة وتلاوة القرآن الكريم.

وقد بدأ نزول القرآن الكريم في شهر رمضان " وإنّ شهر رمضان، هو الشهر الوحيد من شهور السنة، الذي ذكره الله باسمه، لأنّه شهر شريف وفضيل، شرفه الله ببداية نزول القرآن فيه على قلب سيدنا محمد نبي الله ورسوله إلى هذه الأمة"¹.

تضمن الفعل الكلامي معنًى صريحا هو الإخبار، ومعنًى مستلزما مقاميا ممثلا في أمر المسلمين بالصيام، وحثهم على قراءة القرآن الكريم، وترغيبهم في تدبره. وتدعمت القوة الإنجازية لهذه المعاني بمؤشرات لغوية منها قول المتكلم: (شرفه الله ببداية نزول القرآن) بالإضافة إلى استعماله أداة التوكيد (إنّ)، وتكريرها مرتين لزيادة توكيد المعنى وتبليغ الغرض الذي تهدف إليه التداولية، والمتمثل في التأثير في المخاطب حتّى يقوم بهذه العبادة إيمانا واحتسابا ويكثر من قراءة القرآن في الشهر الفضيل؛ فتطمئن نفوس المسلمين؛ فرمضان ليس شهر القلق والغضب وضعف الشخصية، إنّما شهر العمل والعبادة والجهاد: جهاد النفس

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 97.

وجهاد الشيطان وجهاد الشر والباطل، وجهاد العدو باللسان والمال والسلاح، هذا الأخير الذي كان آخر أسلوب للدعوة.

وكانت غزوة بدر أول درس عملي لهذا الأسلوب وهذا ما أخبرنا به "عبد الحميد مهدي" الذي قال: "أيها المسلمون لقد حدثت غزوة بدر الكبرى يوم الجمعة السابع عشر من رمضان، في السنة الثانية من الهجرة المباركة، وإن حدثها في رمضان له دلالة كبيرة"¹.

بدأ المتكلم كلامه بالنداء؛ ليلفت المخاطب إلى ما سيخبره به، كما تضمن كلامه فعلا كلاميا مباشرا تمثل في إخبار المخاطب بأن غزوة بدر قد حدثت في رمضان. وإذا روعي ارتباط هذه الجملة بسياق إنجازها؛ فإن معناها لا ينحصر في ما تدل عليه الصيغة الصوريّة، إنّما تتضمن معان يرمي إليها المتكلم بشكل غير مباشر منها التأكيد على ضرورة العمل والاشتغال في شهر رمضان، لأنّ كثير من الشباب لا يشتغلون في شهر رمضان ويقضون أوقاتهم في النوم ولا يعملون. هذا الواقع جعل الخطيب يؤكد قوله باستعمال أدوات التوكيد منها: (ل+ قد) بالإضافة إلى عبارة (وإن حدثها في رمضان له دلالة كبيرة)؛ حيث تعني أنّ رمضان ليس شهر الكسل والخمول، وقلة الإنتاج، بل شهر العمل والجّد والنشاط وكثرة العبادة؛ لتكون بذلك القوة الإنجازية المستلزمة مقامياً هي حث السامع على استغلال هذا الشهر بالنقرب إلى الله سبحانه وتعالى والإكثار من الطاعات، وعمل الخيرات.

ولقد فرض الله سبحانه وتعالى الصيام على كلّ مسلم ومسلمة فمن "حضر إعلان رؤية هلال رمضان، ولم يكن مسافراً ولا مريضاً فعليه بصيامه، أمر من الله جلّ جلاله"².

أخبر المتكلم المخاطبين؛ بأن الله أمرهم بصيام شهر رمضان، وبالإضافة إلى الإخبار أنجز المتكلم فعلا كلامياً مباشراً تمثل في أمر المسلمين بصوم رمضان. وهذا ما دلت عليه صيغة الأمر (فعليه)؛ ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي استشهد المتكلم بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينيّة والوطنية والدولية، ص 143.

² - المرجع نفسه، ص 92.

كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ البقرة الآيتان 183 - 184.

افتتح الله سبحانه وتعالى كلامه بالنداء لما في النداء من إظهار العناية بما سيقال بعده وقد حمل كلامه فعلا متضمنا في القول، وهو الأمر بالصيام فجمله: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) خبرية لفظا طلبية معنى، "وقد صاغ المتكلم كلامه على صيغة الخبر في مقام الطلب قصد المبالغة في الطلب؛ للتنبيه على سرعة الامتثال؛ فالمتكلم وضع الصياغة الخبرية محل الصياغة الأمرية، بهدف إبراز معان مختلفة، وتحقيق وظائف تداولية، كمرعاة حال المخاطب بحذف الفاعل، والبناء للمفعول بالفاعل"¹؛ وقد أباح للمريض والمسافر الإفطار على أن يقضي ما أفطر في وقت آخر، وهذا ما جاء في قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. وقد حذف الفعل (فأفطر)؛ لأن من خصائص التداولية حذف ما علم لدى المخاطب، وفي قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾؛ أي يطيقون الصيام، لكن بصعوبة بسبب كبر سنهم؛ فهؤلاء أمرهم بالفدية، والمتمثلة في إطعام مسكينا عن كل يوم يفطرونه؛ وليبين المتكلم للسامعين أهمية الصوم عمد إلى ترغيب وتعظيم فعل الصوم والحث عليه بقوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

وتعد ليلة القدر أفضل ليلة من ليالي رمضان لنزول القرآن الكريم بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ سورة القدر الآيات (1-3).

إن غرض الخبر في هذه الآية هو تعظيم هذه الليلة، والحث على إحيائها بقراءة القرآن وتدبر آياته؛ ولتقوية الفعل الكلامي المباشر المتمثل في ما أخبر به سبحانه وتعالى أفتحت الآيات بحرف (إن)، وبذلك تكون الجملة الفعلية موجهة لمخاطب (مؤمن) يرضيه هذا التوكيد، ومخاطب يتوقع أنه متردد فيقوي له الخبر.

¹ - محمد مدور، الأفعال الكلامية في القرآن الكريم سورة البقرة دراسة تداولية، أطروحة دكتوراه، باتنة: 2014 ص213.

ويفيد تقديم المبتدأ على الخبر القصر " وهو قصر قلب للرد على المشركين الذين نفوا أن يكون القرآن منزلاً من الله تعالى"¹، وهذا مبدأ تداولي يتعلّق بتصوّر السّامع، وجهله في حكمه، ويحاول المتكلّم بذلك أن يبيّن له الصواب، وينفي له الخطأ "وفي التّعبير بضمير الغائب بدل كلمة القرآن تعظيماً له وتفخيماً لشأنه، وشهادة له بالنباهة المغنية عن التّصريح كما عظمه بأن أسند تنزيهه إليه، فالإتيان بالضمير الدال على القرآن دون الاسم الظاهر إيماء إلى أنّه حاضر في أذهان السّامعين لشدة إقبالهم عليه"²؛ أي لشدة اهتمامهم بقراءته وتدبره، أصبح معروفاً لديهم، ومشاركاً بينهم، ولذلك أضمر الله سبحانه وتعالى المسند إليه (القرآن الكريم) ولا يتم إضمار المسند إليه إلّا "إذا كان السّامع مستحضراً له، عارفاً منك القصد إليه عند ذكر المسند"³؛ فينطلق المتكلّم ممّا هو معلوم ومشارك بينه وبين السّامع والذي يشترك فيه طرفا الخطاب هو أنّ "جميع القرآن كان مقرّراً في علم الله تعالى مقداره وأنّه ينزل على النبي (ﷺ) منجماً حتّى يتمّ، وكان إنزاله بإنزال الآيات الأولى منه؛ لأنّ ما أحق بالشّيء يفيد بمنزلة أوله"⁴؛ أي بنزول الآيات الأولى من سورة العلق.

ومن الأهميّة بمكان أن أشير إلّا أنّ سورة القدر قد وضعت "في ترتيب المصحف عقب سورة العلق مع أنّ آياتها أقل عدداً من سورة البينة وسور أخرى بعدها، كأنّ هذا تنبيه على أنّ الضمير في أنزلناه يعود إلى القرآن الذي ابتدئ نزوله في سورة العلق فيجوز أن يراد به القرآن كلّهُ فيكون فعلُ أنزلنا مستعملاً في ابتداء الإنزال؛ أو إلى الآيات الخمس الأولى من سورة العلق؛ لأنّ الوحي فتر ثمّ عاد إنزاله منجماً ولم يكمل إنزال القرآن إلّا بعد ثلاثة وعشرين سنة"⁵؛ وتضمن أحكام الشريعة الإسلاميّة التي تهدف إلى إخراج النّاس من الظلمات إلى النور.

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّشوير، ج30، ص456.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - أم الخير سلفاوي، البعد التّداولي في البلاغة العربيّة من خلال مفتاح العلوم لـ" السكاكي"، ص 116.

⁴ - محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّشوير، ج30، ص456.

⁵ - المرجع نفسه، ص457.

لقد نزل القرآن الكريم في شهر رمضان، وهو شهر الصيام، وشهر العبادة والقيام، وفيه يعتق العابدون، القانتون من النار، ولأنّ الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده، يحبهم ويحب أن يغفر لهم، ويعفو عن ذنوبهم، ويضاعف حسناتهم، فرض عليهم زكاة الفطر حتّى يجبر النقص في صيامهم؛ نتيجة خوض بعض منهم في أعراض غيرهم كما أنّ بعضاً منهم لا ينجو من الغضب والسباب والشتم، ومنهم من لا يغيض بصره، ولا يكف سمعه عن سماع الباطل واللغو فكانت: " زكاة الفطر لشهر رمضان كسجدي السهو للصلاة، تجبر نقصان الصوم، كما يجبر السجود نقصان الصلاة"¹.

تشكلت هذه الجملة من فعل كلامي مباشر تمثل في الإخبار عن فائدة زكاة الفطر وقد استخدم المتكلم التشبيه لزيادة التوضيح، وتقريب الفهم إلى ذهن السامع؛ وفي التشبيه دلّ التوكيد على المعنى المتضمن في القول، والتمثّل في توجيه السامع لأداء زكاة الفطر، وحثّه على الالتزام بها؛ تزكية لصيامه وجبراً للنقص الذي يشوبه.

يأتي بعد الركن الرابع من أركان الإسلام الحج وهو " الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو عبادة خاصة بزيارة الكعبة والطواف حولها"².

أخبر المتكلم المخاطبين بأنّ الحج عبادة خاصة بزيارة الكعبة؛ ولأنّ الجمل الخبرية تخضع لمعيار الصدق والكذب، فإنّ السامع يحكم على هذه الجملة بالصدق؛ لأنّ النسبة الكلامية طابقت النسبة الخارجية؛ ولأنّ المتلقي لا ينكر الخبر، وغير متردد فيه أنزله المتكلم منزلة الخالي الذهن فخلت الجملة من المؤكّدات، وتضمنت فعلاً كلامياً غير مباشر تمثّل في حثّ وتوجيه المسلمين الذين تتوفر فيهم شروط الحج ومنها: القدرة المادية والجسدية على أداء هذه الفريضة.

وينتقل الخطيب من الحديث عن الحج إلى الحديث عن العمرة والتي: " هي زيارة الكعبة المشرفة بالإحرام والتلبية من الميقات، والطواف بالبيت العتيق سبعة أشواط كاملة وصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم، والارتواء من ماء زمزم، ثمّ السعي بين الصفا والمروة

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص160.

² - المرجع نفسه ، ص194.

سبعة أشواط كاملة، وحلق الرأس أو تقصيره، وبذلك تنتهي العمرة، والعمرة ليس لها موسم معين؛ فهي تؤدي طول السنة أثناء الحج وخارجه وقد ثبت أن الرسول الكريم (ﷺ) اعتمر أربع مرات: في صلح الحديبية، وفي عمرة القضاء وفي فتح مكة وفي حجة الوداع¹.

وضح المتكلم مفهوم العمرة، وشرح كيفية أدائها وعمد ضمن هذا الأساس إلى إعطاء عدد من المعلومات من الضروري أن تكون شاملة وعمامة وفي هذا الصدد يقول "ديكرو" (Ducrot): إنه "يجب على المخاطب تقديم المعلومات اللازمة والتي يمتلكها عن موضوع الخطاب وغرضها إفادة المخاطب"²؛ فالخطاب يتوقف على مدى استفادة المخاطب من كلام المتكلم؛ ليفيد بذلك الخبر فعلا كلامياً متضمناً في القول يتمثل في حث المسلمين على تأدية العمرة. وفي النص عدة مؤشرات لتقوية إنجازية هذا الفعل تضمنتها العبارة التالية: (وقد ثبت أن الرسول الكريم (ﷺ) اعتمر أربع مرات)؛ ليكون الدافع وراء تأكيد المتكلم لخبره باستعمال أدوات التوكيد (قد وأن) بالإضافة إلى الفعل (ثبت) الدال على المعنى ذاته التأثير في المخاطب؛ حتى يقتدي برسول الله (ﷺ) إذ أن كثيراً من المسلمين لا يعتمرون رغم قدرتهم على ذلك بحجة أن العمرة سنة مؤكدة وليست فريضة؛ فيفوتهم بذلك الخير الكثير والأجر الكبير.

ويعدّ اليوم العاشر من ذي الحجة، يوم الحج الأكبر بالنسبة لضيوف الرحمن في البقاع المقدسة وهو يوم عيد الأضحى المبارك بالنسبة لباقي المسلمين يذبحون فيه أضحاحهم، وليبين لنا الخطيب قيمة هذه العبادة أخبرنا بما قاله الرسول (ﷺ): (ما عمل آدمي من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإنّ الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض، فطيبوا بها نفساً)³.

إنّ غرض الفعل الكلامي في هذه الجملة هو الإخبار ولا داعي للخوض في مسألة الصدق والكذب؛ لأنّ قائل الحديث هو الرسول (ﷺ)؛ وتضمن الإخبار بهذه الحقيقة توجيهها

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 195.

² - Oswald Ducrot, Dire et ne pas dire, p204.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 211.

مؤداه حث المسلمين على القيام بهذه العبادة؛، وقد أسهمت أدوات التوكيد (إنّ) و(اللام) في زيادة القوة الإنجازية للفعل الكلامي المتضمن في القول؛ ليريد الخطيب بذلك من المسلمين المحافظين على هذه العبادة الثبات والمداومة، ومن غيرهم الالتزام بها ابتغاء نيل حب الله سبحانه وتعالى.

بعد أن أمر المتكلم المخاطب بتلاوة القرآن وإقامة الصلاة، والصيام والحجّ ذكره بالعبادات الأخرى، والتي يحقق الالتزام بها منفعة تعود على السامع والناس فيقول: "أمر ديننا بالتّعفف وغيض البصر، والابتعاد عن الزنا، وتبرج الجاهلية الأولى"¹.

تضمنت هذه الجملة فعلا كلاميا مباشراً، وهذا ما عبّر عنه المتكلم باستعماله للصيغة المعجمية لفعل الأمر؛ حيث أنجز المتكلم فعلا إنجازيا توجيهيا فحواه أمر السامع بالتّعفف وغيض البصر، والابتعاد عن الزنا؛ وليضمن المتكلم نجاح الفعل الكلامي قال: (أمر ديننا)؛ ليبين للسامع بأنه انطلق من معطى السلطنة الدينية؛ فالدين يقوم بدور مهم في حياة الأفراد ويهدف إلى توجيههم إلى القيام بفعل ما أو الإحجام عنه.

وإنّ التوجيه الديني مقرون بسلطة عليا هي سلطة الله سبحانه وتعالى؛ ففي قوله: (أمر ديننا)؛ أي أنّ الله تعالى هو الأمر، ومن ثمة؛ فإنّ الوجوب في الأمر ليس مسألة لغوية فحسب، بل لغوية تداولية، إذ رتبة الأمر هي المحدد لدلالة صيغ الأمر على الوجوب وهي المؤشر لنجاح هذه الأفعال؛ لأنّ التوجيه قائم على علاقة سلطوية بين المرسل والمرسل إليه.

2.نبذ التطرف الديني:

نبذ الرسول (ﷺ) التطرف والمغالاة في الدين، وهذا ما حاول الخطيب "عبد الحميد مهدي" توضيحه لكافة المسلمين من خلال اطلاعهم على الحوار الذي جرى بين الرسول (ﷺ) مع أحد الصحابة، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: "جاء رهط إلى بيوت أزواج النبي (ﷺ) يسألون عن عبادة النبي (ﷺ)، فلما أخبروا كأنهم تقالوها. فقالوا: وأين نحن من النبي (ﷺ)؟ فقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبداً، وقال الآخر: وأنا

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية ، ص26.

اعتزل النساء فلا أتزوج أبدا؛ فجاءهم رسول الله (ﷺ) فقال: أنتم القوم الذين قلتُم كذا وكذا؟ والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني¹.

تطرق هذا الحديث لقصة الجماعة الذين قصدوا رسول الله (ﷺ)؛ ليسألوا عن عبادته وبعد تلقيهم للإجابة، وجّه الجماعة لذاتهم استفهاما تقريريًا حملهم على الاعتراف والإقرار بأنّ حالهم يختلف عن حال الرسول (ﷺ)؛ الذي قد غفر الله له ما تقدم وما تأخر من ذنبه. وهذا ما أدّى بهم إلى إلزام أنفسهم بإنجاز أفعال في المستقبل (أصلي، أصوم...) وقد تدعمت القوة الإنجازية لهذه الأفعال بمؤشرات لغويّة منها: (فلما أخبروا كأنهم تقالوها) أي رأوها قليلة؛ كما تدعمت القوة الإنجازية باستخدام الجماعة للفظ (أبدا)؛ التي أفادت المداومة على العبادة طول حياتهم. ولما سمع الرسول (ﷺ) قولهم سألهم قائلاً: (أنتم القوم الذي قلتُم كذا وكذا؟) وقد عدل أسلوب الاستفهام عن دلالاته الحقيقية إلى دلالة الإنكار؛ حيث أنكر الرسول (ﷺ) فعلهم ويتضح ذلك في قوله: "والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"²

أخبر الرسول (ﷺ) الجماعة بأنّه أكثرهم خشية لله، وأكد خبره باستخدام القسم، وأدوات التوكيد (اللّام +إنّ) وتضمن هذا الخبر فعلا كلاميا غير مباشر تمثّل في إرشاد الجماعة وتغيير اعتقادهم الخاطيء، وبذلك يكون المتكلّم قد حقق غرضا تداوليا فليس الكلام مجرد نقل للأخبار وتبادلها "وإنّما تحقيق لأفعال مسيرة وفق مجموعة من القواعد من شأنها تغيير وضعية المتلقي وتغيير منظومة معتقداته أو وضعه السلوكي، وينجر عن ذلك أنّ فهم قول معين يعني التعريف بمحتواه الإخباري، وتوجهه التداولي أي قيمته وقوته الكلاميّة"³؛ إذ أنّ استعمال المتكلّم لمؤكدات كثيرة يسهم بلا شك في التغيير من وضعية المخاطب، بخاصة إذا

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينيّة والوطنية والدولية، ص 177.

² - المرجع نفسه، ص 178.

³ - C.K Orécchioni, Enonciation de la subjectivité dans langage, p 185.

تيقن بأن وراء هذا التوجيه منفعه تعود عليه، وإذا تقرر ذلك في نفسه فإنه سيلتزم بهذه التوجيهات.

ويعدّ الاستفهام من الآليات التوجيهية التي يستعملها المتكلم لتوضيح بعض المفاهيم ومن أمثلة ذلك قول الرسول (ﷺ) لأصحابه رضي الله عنهم: "أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصوم وحج، ويأتي وقد شتم هذا، وضرب هذا وسفك دم هذا، وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه فطرح في النار"¹.

تضمن الاستفهام معنى غير المعنى الظاهر تمثل في ضبط المفاهيم وتصحيحها حيث سأل الرسول (ﷺ) الصحابة عن المفلس ثم بين لهم الخطأ في فهمهم ووضح لهم المفاهيم على ضوء الكتاب والسنة؛ وقدم لهم مفهوما معنويا وليس ماديا؛ ولهذا يجب على المخاطب ألا يقوم بقراءة حرفية للملفوظ مثلما فعل الصحابة رضوان الله عليهم في إجابتهم (المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع) وإن كان يبدو أنّ الصحابة رضوان الله عليهم قد شعروا بأن الرسول (ﷺ) سيضيف شيئا ولهذا هم يحترسون في إجابتهم.

وقد بين لهم الرسول (ﷺ) من هو المفلس يوم القيامة حتى يحافظوا على حسناتهم ويتقوا الله تعالى حق تقاته، ويكثرُوا من صيام التطوع، وقراءة القرآن والشكر والتضرع لله تعالى اقتداء بالرسول (ﷺ) الذي قال: "عرضت علي مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فرددتها وقلت أجوع يوما وأشبع يوما، أحمدك إذا شبع، وأتضرع إليك إذا جعت"².

جاءت الأفعال الكلامية في هذا الحديث مباشرة أفادت الإخبار "ولما كان الخير من منظور النّحة أصل والإنشاء طارئ عنه"³ تضمنت الأفعال المضارعة الدالة على الحاضر (أجوع، أشبع، أحمد، أتضرع) معنى مستلزما مقاميا عبّر عن قصدية رسالة الإسلام، وهي

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 172.

² - المرجع نفسه، ص 174.

³ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 141.

أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) جاء رسولا مرشدا ومعلما للنَّاس، وينبغي للمسلم أن يكون له في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة في عبادته. كما وضح المتكلم قاعدة هامة في الإسلام وهي أَنَّ العبادة صبر وشكر؛ حيث يشكر الله إذا أنعم عليه، ويصبر إذا ابتلاه، ويصوم ويفطر، وهذه هي الملة السَّمحاء التي لا تطرف فيها ولا مغالاة.

3. الأمر وقصد الإباحة:

وتُنجز الأفعال التَّوجيهية من خلال خروج الأمر إلى دلالة الإباحة ومن أمثلة ذلك قول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "امش أيها الإنسان فوق هذه الأرض وابحث في سهولها وجبالها وصحاريها واستخرج خيراتها، وكلَّ من رزق الله الذي يتنوع ويتجدد في كلِّ عصر"¹.

أخبر الخطيب "عبد الحميد مهدي" المسلمين بأنَّ الله سبحانه وتعالى قد أمرهم بالمشي في الأرض والبحث في سهولها وجبالها، واستخراج خيراتها. وقد خرج الأمر عن دلالاته الحقيقية إلى دلالة الإباحة. وليدعم المتكلم إنجازية الفعل الكلامي استشهد بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ السُّجُودُ﴾ سورة الملك الآية 15.

أفاد الأمر في الآية الإباحة "ويعتبر الأصوليون الإباحة نوعا من الأحكام التَّكليفية وتأتي صيغة الأمر للإباحة، ومع أنهم اتفقوا على أنها ليست طلبا، ولكنها تعدّ عندهم من الأغراض التي تستعمل فيها بعض صيغ الطلب مثل صيغة الأمر، فكان ذلك مدعاة إلى تعرضهم لها ضمن صيغ دراساتهم للأساليب الإنشائية، ومبدأ التَّفاوت بين الأوامر والنَّواهي الشرعية حسب الأهمية نجدها عند الأصوليين"²، وصرح الشاطبي أن "أوامر الشريعة تجري في التأكيد مجرى واحدا، فإنَّ الأوامر المتعلقة بالأمر الضرورية ليست كالأوامر المتعلقة

¹ عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص48.

² مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني.

العربي، ص151.

بالأمور الحاجية ولا التحسينية"¹، وعليه فهو يرفض إطلاق القول في الشريعة بأنّ الأمر للوجوب أو للندب أو للإباحة من دون قرينة، كما هو رأي الكثيرين وذهب الشاطبي وغيره كالأشعري، والباقلاني إلى "اعتبار القرينة في صرفه إلى الوجوب أو الندب"²؛ أي يرفض القول بأنّ الأمر للوجوب مطلقاً كما تدعيه بعض المدارس المتشدّدة، التي ترى أنّ الأوامر تؤخذ على ظاهرها بطلب الفعل في الأمور، وبالكف عن الفعل في المنهيات ما لم يصرفه نص.

والتقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ فيه امتنان من الله تعالى على خلقه، ممّا يشعر أنّ في هذا الأمر مع الإباحة توجيهها، وحثاً للأمة على السعي والعمل، والجدّ والمشي في مناكب الأرض من كلّ جانب؛ فتضمّنت الآية فعلاً كلامياً مباشراً تمثّل في الأمر، وفعلاً كلامياً غير مباشر نتج عن خروج الأمر إلى معنى الإباحة التي تضمّنت توجيهها فحواه حث المسلمين على المشي فوق الأرض، وأن يبحثوا في سهولها وجبالها وصحاريها ويستخرجوا خيراتها، وأن يأكلوا من رزق الله الذي يتنوّع ويتجدّد في كلّ عصر وأن يتفكروا في قدرة الله وعظمته.

وإنّ استحضار عظمة الله جل جلاله في قلوبنا، وترديد اسمه هو يسمى بالذكر "وهو غذاء كامل للروح، ومظهر قوي للنفس الأمانة بالسوء، وضمان أكيد لسلامة القلوب وطمانينتها، وهو محول فعال للشخصية البشرية من الضعف إلى القوة، ومن الدّل إلى العزة، ومن الهزيمة إلى الانتصار، ومن الضلال إلى الهداية والاستقامة، إنّه العلم النافع والزاد الخير، والحبل المتين والنور المبين"³.

تضمنت هذه الجمل فعلاً كلامياً مباشراً تمثّل في إخبار المسلمين، بأنّ لذكر الله سبحانه وتعالى فوائداً كثيرة منها: تقوية النفس، وتنقية القلوب من أدران الشرك، والكفر والفسق... الخ. أمّا الفعل الكلامي غير المباشر فتمثّل في حث المسلمين على ذكر الله

¹ الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تعليق: محمد الخضر حسين، المغرب: دت، دار الفكر، ص187.

² مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني.

العربي، ص190.

³ عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص64.

سبحانه وتعالى. ويؤدي عنصر التأكيد (إنّ) دوراً في تحديد قوة الفعل الكلامي؛ حيث جاءت الجملة على صيغة الخبر الطلبي، إذ عامل المتكلم مخاطبيه معاملة المخاطبين المرتابين؛ لأنّ بعض الناس لا يهتمون بهذه العبادة، ولا يذكرون الله إلا قليلاً فصاغ لهم الخبر على حسب حالهم، ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي استشهد المتكلم على ذلك بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) سورة الرعد 28.

جاءت الآية في سياق ذكر علامة المؤمنين الذين تطمئن أنفسهم لذكر الله، وحرى أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره؛ فإنه لا شيء ألدّ للقلوب من ذكره سبحانه وتعالى، وقد تكوّنت الآية من فعل كلامي مباشر هو وصف المؤمنين والثناء عليهم. وفعل كلامي غير مباشر تمثل في حثهم على ذكر الله سبحانه وتعالى؛ وللتأثير في المخاطب استعمل المتكلم الأداة (ألا) الدالة على التّحضيض بالإضافة إلى تكريره للفعل (تطمئن) الذي جاء بصيغة المضارعة الدالة على الاستمرارية، فإذا استمروا في ذكر الله يستمر نزول السكينة على قلوبهم. كما استعمل المتكلم مؤشرات لغوية أخرى ساهمت في زيادة قوة الغرض الإنجازي والتي تتمثل في لفظة (ذكر) والتي بدورها كررت مرتين؛ ليزرع المتكلم في نفسيّة السامع الرغبة في ذكر الله تعالى، إذ "أنّ اللّغة ليست أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب، وإنّما اللّغة وسيلة للتأثير في العالم، وتغيير السلوك الإنساني"¹؛ فالمتكلم (الله سبحانه وتعالى) سعى من خلال اللّغة إلى التأثير في السامع ودفع عنه الاعتقاد الباطل في أنّ هناك شيئاً يمكن أن يحقق له السعادة والاطمئنان دون ذكر الله تعالى، وبذلك تكون الآية قد جمعت أفعالاً كثيرة وهي: الإخبار والثناء، والحث على المسارعة إلى ذكر الله.

ولأنّ الخطيب يطمح إلى أن يكون كلامه ذا تأثير في المخاطبين، بيّن لهم أهميّة ذكر الله سبحانه وتعالى فقال: "أيها المسلمون اذكروا الله كثيراً، وسبحوه بكراً وأصيلاً، لا تغفلوا عن ذكر الله أبداً وعندئذ يكون الله معكم برحمته وتوفيقه وهدايته ورعايته وإعانتته؛ فتقل أخطاؤكم وتكثر حسناتكم"².

¹ - أوستين، نظرية أفعال الكلام العامّة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ص 6.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدنيّة والوطنية والدوليّة، ص 61.

احتوت هذه الجمل على أفعال كلامية كثيرة منها: النداء، والتنبيه والإغراء والأمر والنهي، والنصح والإرشاد. والنداء أول فعل كلامي استهل به المتكلم كلامه؛ لتبليغ مقاصده المتمثلة في: التنبيه على أهمية الذكر؛ ولأنّ بعض المخاطبين لا يداومون عليه أنجز المتكلم فعلا كلاميا غير مباشر تمثل في الإغراء ومعناه "الحث على التزام الشيء والزيادة فيه"¹؛ فالمتكلم يحث المسلمين على المحافظة على الذكر، والمداومة عليه وعدم الإغفال عنه. إذا الخطاب موجّه لتحقيق البعد التفاعلي للغة من خلال الفعل الكلامي الذي ينجز وفق معطيات السياق" فما يتلفظ به المتكلم من كلام يتحوّل إلى أفعال ذات امتداد اجتماعي وتعتبر في الوقت نفسه حملا للمخاطب على القيام بفعل معين"²، وهذا ما تضمّنه التوجيه باستعمال فعلي الأمر والنهي المتمثل غرضهما في النصح والإرشاد؛ فالخطيب نصح المسلمين بالمحافظة على ذكر الله من خلال محاولته التأثير عليهم كي يؤدوا الفعل المطلوب منهم؛ لأنّ فيه مصلحة لهم. ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي منها: ذكر جزاء الذاكرين لله والذكريات بأنّ لهم الأجر والثواب.

ومثلما يثني الله سبحانه وتعالى على الذاكرين له، فإنّه يحذر التاركين لهذا العبادة، وهذا ما بلغه الخطيب لمخاطبيه؛ فقال: "إنّ الله تبارك وتعالى يحذرنا من الانهماك في خدمة الدنيا من أموال وأولاد ونسيان ذكر الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ ذلك يسبب لنا الخسران المبين"³.

استعمل المتكلم أسلوب التحذير وهو آلية من آليات التوجيه التي يستعملها المتكلم ويختص هذا الأسلوب بالمخاطب؛ إذ "حق التحذير أن يكون للمخاطب"⁴؛ حيث دلت الصيغة المعجمية لفعل "احذر" والتي وردت بصيغة المضارع على معناه الحقيقي وهو النهي. ولأنّ المتكلم يستحضر السامع في كلّ عملية إبلاغية، ولو بصورة ذهنية؛ لأنّه

¹ - عيسى علي العاكوب، علي سعد الشتوي، الكافي في علوم البلاغة المعاني، البيان، البديع، ص289.

² - عمر بلخير، مقالات في التداوليات والخطاب، ص 89.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص61.

⁴ - ابن عقيل بهاء الدين عبد الله، شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج3

القاهرة: 1998، مكتبة دار التراث، ص300.

مشارك في إنتاج الخطاب مشاركة فعالة استخدم عناصر لغوية أسهمت في تعديل القوة الإنجازية؛ منها أداة التوكيد (إن)؛ لأن المتكلم لم يعامل المتلقي على أنه خالي الذهن، وإنما عامله معاملة المتلقي المتردد لأن كثير من المسلمين ينشغلون بالدنيا وزينتها وينسون ذكر الله سبحانه وتعالى، ولذلك أخرج المتكلم كلامه على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن المخاطب إذا لم يعمل بمقتضى علمه؛ فإن الكلام يلقي إليه بحسب سلوكه.

وبيّن المتكلم للمخاطبين فضل مجالس الذكر والذاكرين وفضل الاجتماع على ذلك بقوله: "إنّ الله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم على السماء. قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم. ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله يا رب ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأوني قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيذا وأكثر لك تسبيحا. قال: فيقول فما يسألوني؟ قال يقولون: يسألونك الجنة، قال فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة. قال فم يتعوذون؟ قال: يقولون: يتعوذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. قال يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها لكانوا أشد منها فرار وأشد لها مخافة. قال فيقول أشهدكم أنّي قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنّما جاء لحاجة. قال هم القوم لا يشقى جليسهم"¹.

تضمن هذا الحديث مجموعة من الأفعال الماضية (وجدوا، تنادوا، قال، رأوني رأوك غفرت، جاء) أفادت الوصف والإخبار والمضارعة منها: (يطوفون، يلتمسون، يذكرون يحفونهم، يسألهم، يقول، يقولون، يسبحونك، يكبرونك، يحمدونك، يمجدونك، يسألوني يسألونك، يتعوذون، أشهدكم، ليشقى)، وفعل الأمر (هلموا)، وتضمنت هذه الأفعال قوة متضمنة في القول؛ أي "ملء اللفظ بقوة إنجازية معينة والقوة التعبيرية هي الصيغة التي

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 63.

يخرج بها الكلام، كأن يكون وعدا أو تهديدا أو التماسا أو تقريرا)¹؛ وهي في هذا الحديث حث العباد على طاعة الله سبحانه وتعالى، واتجاه المطابقة في هذا الحديث هو من الكلمات إلى العالم، لأنّ هذا الصنف يتضمّن التقريرات؛ حيث نلاحظ أنّ الجملة التقريرية هي الأكثر حضورا: (يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما، فيسألهم ربّهم... الخ). ويسأل الله سبحانه وتعالى الملائكة عن عبادته سؤالا معلوم الجواب، وهذا ما يسمى بالاستفهام التقريري؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى أراد بسؤاله لهم أن يتباهى بعبادته أمام الملائكة. ولقد طغى في هذا الحديث أسلوب الحوار "لأنّ الحوار أسلوب متقدّم في الفكر البشري إذ يضيف الحيويّة على الموقف الكلامي، ويبعد الملل والشروء على المتلقي فيشدّ انتباه السامع ويجعله أكثر إقبالا على المتابعة، كما يجعل ذهنه أكثر تفتحا وتجاوبا مع المرسل"² وقد أحسن المتكلم انتقاء الأحاديث التي تمتاز بالطابع الحوارية؛ الذي يسهم في تبليغ الغرض، وتبيين قيمة الذكر، وأنّ من يتّصف به من عباد الله الذاكرين لهم شرف المنزلة الرفيعة عند خالقهم، ومن جهة أخرى فيه حث للناس على الاقتداء بهم؛ لنيل الكرامة التي خصّهم الله بها. أمّا الفعل الناتج عن القول؛ فهو ما دلّ على ترك أثر في الواقع، ويتجلّى ذلك في محبة الله لعباده، وتسخير الملائكة؛ ليشهدوا عليهم إكراما لهم وبيانا لشرف منزلتهم. وإنّ لذكر الله تبارك وتعالى صيغا كثيرة لكلّ منها فضائل عظيمة منها الاستغفار "والإكثار من الاستغفار يدلّ على قوّة الإيمان وصدق اليقين وجميل التأسّي بالرسول (ﷺ) الذي كان يستغفر في اليوم أكثر من مئة مرّة، والذي كان الصحابة يعدون له أكثر من سبعين استغفارا في مجلس واحد"³.

تضمنت هذه الجمل فعلا كلاميا مباشرا تمثل في الإخبار، وتضمّن الإخبار بهذه الحقيقة فعلا كلاميا غير مباشر مؤداه توجيه وحث المسلمين على القيام بهذه العبادة؛ وقد داوم الرسول (ﷺ) على ذكر الله سبحانه وتعالى وشكره حتّى بعد أن قيل له هوّن على نفسك

¹ - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، د. ط. بيروت: دار التّوير للطباعة والنشر، ص 140.

² - ينظر: ناغش عابدة، أسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية في رياض الصالحين دراسة نحوية بلاغية تداولية مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تيزي- وزو: 2012.

³ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدنيّة والوطنية والدوليّة، ص 67.

فقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؛ فقال "أفلا أكون عبدا شكورا"¹، وفي هذا دعوة للنّاس كي يقتدوا به، وبذلك يغفر الله لهم ذنوبهم، ويدخلهم جنات عدن التي وعدهم بها.

4. أفعال الوعد وتجلياتها في الخطاب الديني :

يتضمن الخطاب الديني مجموعة من الأفعال منها ما ينتمي إلى صنف الطلبات ومنها ما ينتمي إلى صنف التّعبيرات، ومنها ما ينتمي إلى صنف الوعديات. وتتمثل هذه الأخيرة في الأفعال التي يلتزم المتكلم من خلال النطق بها بالقيام بفعل في المستقبل ينفذ المخاطب، شريطة أن يمثل هذا الأخير لإرادة المتكلم، ولتوضيح هذا الصنف من الأفعال صاغ الخطيب "عبد الحميد مهدي" بعض الأمثلة كشف من خلالها على بعض أفعال الرسول (ﷺ) والذي كان "يقوم في التّث الأخير من اللّيل ويناجي ربّه، ويقبّل وجهه في السّماء، ويبسط يديه في الدعاء ويقول: إنّ ربكم ينزل كلّ ليلة إذا جاء التّث الأخير من اللّيل وينادي هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مبتلى فأعافيه؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من كذا هل من كذا حتّى يطلع الفجر"²

أفادت الأفعال الكلامية في هذا الحديث الخبر، وهو فعل كلامي مباشر بين المتكلم من خلاله فضل الدعاء؛ وأطلع المخاطبين عمّ كان يقوم به الرسول (ﷺ) في ثلث اللّيل الآخر من عبادة وتضرع لله سبحانه وتعالى. كما أخبر الخطيب المسلمين بأنّ الله سبحانه وتعالى ينزل كلّ ليلة إلى السّماء الدنيا ويقول: (هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مبتلى فأعافيه؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من كذا هل من كذا حتّى يطلع الفجر)، ومن الأهمية بمكان أن أشير هنا إلى مسألة مهمة تتعلق بأفعال الله سبحانه وتعالى؛ فالفعل ينزل في قوله: (إنّ ربكم ينزل كلّ ليلة) "مسألة اختلف فيها العلماء، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التّأويل، وإجراء الظواهر على

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 307.

² - المرجع نفسه، ص 81

مواردها، وتفويض معانيها إلى الله تعالى¹؛ لأنّ عقل الإنسان عاجز على إدراكها، أما في قوله: (هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مبتلى فأعافيه؟ هل من سائل فأعطيته؟ هل من تائب فأتوب عليه؟...) فقد عدل الاستفهام عن دلالاته الحقيقيّة إلى دلالة مجازيّة تمثلت في حث العباد على الدعاء. وقد تضمن الحديث شروط الأفعال الكلاميّة وفق رؤية "سيرل" (Searle)؛ فشرط المحتوى القضويّ تمثل في مضمون الحديث والذي هو وعد المتكلّم- الله سبحانه وتعالى- الذين يدعون به بأنّه سيستجيب له ويعطيهم ما سألوا ويغفر لهم ذنوبهم وقد توفر شرط الصدق؛ لأنّ وعد الله حق. والشرط التمهيديّ تمثل في ما يعرفه المتكلّم (الله سبحانه وتعالى) عن قدرات عباده الذين باستطاعتهم التضرع إليه والتذلل والتوجه إليه بالدعاء؛ ليغفر لهم ذنوبهم. أما الشرط الجوهريّ فتمثل في الغرض من هذا الحديث والذي هو إخبار الناس عن رحمة الله بعباده، ودعوتهم إلى الإكثار من طاعته والتوجه إليه بالدعاء حتى يغفر ذنوبهم.

كما يعدّ الاستغفار وسيلة لزوال الهموم والحصول على الرزق، وفي ذلك يقول الرسول (ﷺ): "من لزم الاستغفار جعل الله له من كلّ هم فرجا، ومن كلّ ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب"².

وعد الرسول (ﷺ) المستغفرين بأنّ الله سبحانه وتعالى سيفرج همومهم، ويغفر ذنوبهم ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، ولذلك حثهم على مداومة الاستغفار. واتجاه المطابقة في هذا الحديث من العالم إلى الكلمات؛ لأنّ المتكلّم هو الرسول (ﷺ) الذي يبلغ النّاس رسالة ربّه، فالذي ينجز فعل الوعد هو الله تعالى بتفريجه للهموم ورزقه لعباده، ليتحقق الشرط التمهيديّ وشرطه العام هو قدرة المتكلّم على أداء ما يلزم به نفسه. ويمكن توضيح هذا المثال في الشكل التّالي:

² - عبد القادر عرفات، الأحاديث القدسية نقلا عن حورية رزقي، الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية، ص95.

² - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدنيّة والوطنية والدوليّة، ص68.

الوعديات	المحتوى القضوي	اتجاه المطابقة+ شرط الصدق	الشروط الجوهرية	الشروط التمهيدية
من لزم الاستغفار جعل الله له من كلّ هم فرجا، ومن كلّ ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب"	وعد الرسول (ﷺ) كل من لزم الاستغفار بأنّ الله سبحانه وتعالى سيفرج همومه، ويرزقه من حيث لا يحتسب.	من العالم إلى الكلمات، ولا شك بأنّ هذا الوعد سيتحقق لأنّ وعد الله ورسوله حقّ والله لا يخلف وعده لعباده إذا ما امتثلوا له	يهدف الرسول (ﷺ) إلى تعليم الناس كلّ ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.	التزام المخاطب بالاستغفار + قدرة الله على تنفيذ الوعد = فعلا إنجازيا ناجحا.

ويعد الاستغفار وسيلة لمغفرة الذنوب، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ

يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ سورة النساء 110.

وعد الله سبحانه وتعالى المستغفرين بأنّه سيغفر ذنوبهم، وقد بيّن لعباده المسرفين على أنفسهم بأنّ رحمته واسعة، وأنّه يغفر الذنوب جميعها فلا يقنطوا من رحمة الله تعالى، بل يجب عليهم أن يسألوه المغفرة ويمكن تلخيص ذلك في الشكل التالي:

الوعديات	المحتوى القضوي	اتجاه المطابقة + شرط الصدق	الشروط الجوهرية	الشروط التمهيدية
وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾	وعد الله سبحانه وتعالى المستغفرين بالمغفرة.	من العالم إلى الكلمات.	الغرض من هذه الآية هو دعوة العبادة إلى عدم القنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى.	التزام المخاطب بالاستغفار + قدرة الله على تنفيذ الوعد = صدقه = فعلا إنجازيا ناجحا.

ويغفر الله تعالى لعباده إذا استغفروه، ويفرّج عنهم الهموم، ويزيل عنهم الغم إذا ذكروه وسبحوه؛ فقد نجى الله سيّدنا يونس (عليه السلام) من الهلاك بفضل التّسبيح؛ وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضِّبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ الأنبياء الآيتان 87- 88.

أخبر الله سبحانه وتعالى عباده عن قصة سيّدنا يونس (عليه السلام)، الذي انصرف عن قومه غاضبا بغير إذن من الله تعالى؛ لأنّه ظنّ بأنّ الله تعالى لن يضيّق عليه لقربه منه، لكنّ الله سبحانه وتعالى أمر الحوت بالتقامه، فظن سيّدنا يونس (عليه السلام) لذنبه واعترف به، وندم عليه ونادى في الظلمات قائلا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنبياء 87 وقد ألهمه الله سبحانه وتعالى هذه الكلمات؛ لينجيه مما نزل به من الكرب والضيّق، كما تضمّنت الآية فعلا كلاميا مباشرا تمثّل في فعل الوعد الذي دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنبياء 88.

ينجي الله سبحانه وتعالى المؤمنين مثلما أنجى سيدنا يونس (عليه السلام) الذي خرج من بلدة قومه غاضبا، فابتلاه الله سبحانه وتعالى، وكانت نتيجة هذا الابتلاء ندم سيدنا يونس (عليه السلام) على فعلته، وعودته إلى قومه واستغفاره ربه وتسبيحه له؛ فاستجاب الله لدعائه وأنجاه. وقد وعد الذاكرين له بأن ينجيهم كذلك، وقد وعدهم بشيء يرجونه ويحسبونه إيجابيا، ويؤثرون رؤيته قد عمل على أن يهمل، فمن منا لا يتمنى أن ينجيه الله ويفرج همه؟. وبما أن الله سبحانه وتعالى هو الذي وعد المؤمنين بأنه سينجيهم إذا سبحوا له واستغفروه؛ فإنه لا مجال للشك في عود الله تعالى الصادقة؛ واتجاه المطابقة في هذا الحديث هو من العالم إلى الكلمات، وتوفر الشرط التمهيدي والمتمثل في قدرة المتكلم على تنفيذ وعوده، ويمكن تلخيص ما ورد في الآيتين في الشكل التالي:

الوعديات	المحتوى القضوي	اتجاه المطابقة + شرط الصدق	الشروط الجوهرية	نمط الإنجاز
وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَادِي فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾	وعد الله سبحانه وتعالى عباده الذين يسبحونه ويذكرونه؛ بأنه سيفرج كرباتهم ويزيل الهم والغم عنهم.	من العالم إلى الكلمات، وتحقق شرط الصدق؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو من وعد	الغرض من الآيتين هو جعل الناس يعتبرون مما يقص عليهم من قصص ويقتدون بالأنبياء.	التزام المخاطب بالاستغفار والتسبيح + قدرة الله على تنفيذ الوعد وصدقه = فعلا إنجازيا ناجحا.

ويواصل الخطيب "عبد الحميد مهدي" استحضار الشواهد التي تتضمن وعود الله سبحانه وتعالى لعباده منها قوله (عليه السلام): "ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حتى يفطر، والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين"¹.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 93.

أخبر الرسول (ﷺ) المسلمين عن الثلاثة الذين لا ترد دعوتهم، وعن نصره الله للمظلوم، ومنه نقول إن الحديث يتكون من فعلين كلاميين مباشرين هما الإخبار والوعد؛ فالغرض الإنجازي في هذه الأفعال هو وعد الله عز وجل لعباده المظلومين، والصائمين والقضاة العادلين بأن يتقبل دعواتهم. وقد ارتبط الفعل الإنجازي بمقصد المتكلم، والمتمثل في إخبار الناس بما ينفعهم، فإذا علم المسلمون أنّ الصيام فرصة لاستجابة الدعاء فلا شك أنّ كثيرا منهم سوف يكثر من هذه العبادة، وسيحكم القاضي بين المتخاصمين بالعدل وسيبتعد الناس عن الظلم. وقد أدت الأفعال التالية: (لا ترد، ويرفع، ويفتح، ولأنصرن) دورا في زيادة شدة الغرض الإنجازي؛ إذ فيها حركية قوية وسرعة نفاذ؛ "فالأفعال المضارعة مدعمة بقرائن فعالة: كالتنفي والتوكيد وسرعة الاستجابة والقسم، وكلّ هذا يؤول إلى أنّ وعد الله حق¹، كما توفر في الحديث الشرط التمهيدي، وقوامه قدرة المتكلم على أداء ما وعد به المخاطب بشرط دوامه على الفعل، فالصائم دعوته مستجابة مادام صائما، والإمام العادل القائم حكمه على ما يرضي الله، ودعوة المظلوم على من ظلمه وأخذ حقه. وفي الحديث إشارة إلى علو شأن دعوة المظلوم؛ حيث تفتح لها أبواب السموات، كما توفر شرط الصدق والمتمثل في صدق المتكلم في فعل الشيء الموعود به، وهكذا يتحقق الشرط الجوهرية الذي يتمثل في الغرض التواصلي من هذا الفعل الكلامي والمتمثل في رغبة الرسول (ﷺ) في تعليم الناس ما ينفعهم واتجاه المطابقة في هذا الحديث هو من العالم إلى الكلمات، وألخص مضمون الحديث في الشكل التالي:

¹ - حورية رزقي، الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية، باب الذكر والدعاء أنموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، بسكرة: 2006، ص 98.

الوعديات	المحتوى القضوي	اتجاه المطابقة	الشروط الجوهرية	الشروط التمهيدية
ثلاثة لا تردّ دعوتهم: الصائم حتى يفطر والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الربّ وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين	أخبر الرسول الناس بأنّ الله سبحانه وتعالى قد وعد باستجابة دعوة الصائم والإمام العادل والمظلوم.	من العالم إلى الكلمات.	قصد الرسول (ﷺ) أن يعلم الناس ما ينفعمهم	التزام المخاطب بالطاعة + قدرة المتكلم على تنفيذ الوعد وصدقه = فعلا إنجازيا ناجحا.

ومن الأحاديث التي تتضمن الوعد قوله (ﷺ): "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قال: ذكر الله تعالى"¹.

وظف الرسول (ﷺ) أسلوب الاستفهام في قوله: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها) بغرض تشويق وتنبيه المخاطبين؛ لتلقي الرسالة والتي تمثلت في إخبارهم بأنّ ذكر الله تعالى من خير الأعمال، وأزكاها عند الله تعالى. واستخدم المتكلم أسلوب الاستفهام قصد إثارة انتباه المخاطبين؛ لتبليغهم رسالة تحمل إفادة، ومبدأ الإفادة هو الفائدة التي يجنونها من الخطاب، وهي فائدة تواصلية ذات أبعاد تداولية بين المتكلم والمستمع.

وفي هذا الحديث تحقق الغرض من فعل الكلام والمتمثل في إخبار الرسول (ﷺ) الصحابة (رضي الله عنهم) بأنفع الأعمال؛ فكان قصده تعليم الناس ما ينفعمهم والمقصد من الفعل الكلامي هو القول الذي ينوي القائل إنجازه فنحن "حين نقول شيئا ما فإننا ننجز شيئا ما"²؛ ويشترط في صنف الوعديات صدق المتكلم في فعل الشيء الموعود به. وقد تحقق هذا الشرط؛ لأنّ المتكلم هو النبي الصادق الأمين، واتجاه المطابقة في هذا الحديث هو من

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص64.

² - J. Austin. Quand dire c'est faire, Paris: 1970, traduction Gilles-Lanes, édition du seuil, p47

العالم إلى الكلمات، وتوفر نمط الإنجاز وشرطه العام هو قدرة المتكلم على أداء ما يلزم به نفسه. ونلخص ما سبق في ما يلي:

الوعديات	المحتوى القضوي	اتجاه المطابقة	القصدية	نمط الإنجاز
ألا أنبتكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قال: ذكر الله تعالى ¹ .	وعد الرسول (ﷺ) الصحابة بأن يخبرهم بأرفع الأعمال وأزكاها عند الله تعالى.	من العالم إلى الكلمات.	قصد الرسول (ﷺ) أن يعلم الناس ما ينفعهم	قدرة المتكلم على تنفيذ الوعد وصدقه + ذكر المؤمن لله تعالى = فعلا إنجازيا ناجحا.

وينصح الرسول (ﷺ) المسلمين بتلاوة القرآن مبرزا فضله بقوله: "اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه"².

تضمن هذا الحديث فعلا كلاميا مباشرا تمثل في الأمر الذي عدل عن دلالاته الحقيقية إلى دلالة النصح والإرشاد، كما تضمن فعلا متضمنا في القول تمثل في الوعد؛ حيث بين الرسول (ﷺ) للمسلمين ما ينفعهم في الآخرة، وما يزيد في ميزان حسانتهم، ووعد المنشغلين بتلاوة القرآن، بأنه سيشفع لهم يوم القيامة؛ فالرسول (ﷺ) مبلغ لرسالة ربه، ويخبر بوعود الله لعباده، وما قوله إلا وحي يوحى، واتجاه المطابقة في هذا الحديث من العالم إلى الكلمات وتوفر الشرط التمهيدي وشرطه العام هو قدرة المتكلم على أداء ما يلزم به نفسه ويمكن تلخيص مضمون الحديث في الشكل التالي:

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 64.

² - المرجع نفسه، ص 96.

الوعديات	المحتوى القضوي	اتجاه المطابقة+ شرط الصدق	الشروط الجوهرية	الشروط التمهيدية
اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه.	وعد الرسول (ﷺ) المسلمين بأن الله سبحانه وتعالى سيجعل القرآن يشفع لأصحابه يوم القيامة.	من العالم إلى الكلمات،	حث المسلمين على قراءة القرآن الكريم حتى ينالوا الثواب العظيم.	التزام المخاطب بتلاوة القرآن+ قدرة المتكلم على تنفيذ الوعد وصدقه = فعلا إنجازيا ناجحا.

وبيّن الرسول (ﷺ) فضل الصلاة عليه فيقول: "من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله

عليه بها عشر صلوات ويحط عنه بها عشر سيئات، ويرفعه بها عشر درجات"¹.

يتكون هذا الحديث من فعل كلامي مباشر هو الإخبار، وفي الآية فعل كلامي آخر

عبّر عنه المحتوى القضوي هو الوعد؛ حيث وعد الرسول (ﷺ) الذين يصلون عليه بأن الله

سبحانه وتعالى يرفع من درجاتهم ويحط من سيئاتهم، واتجاه المطابقة في هذا الحديث هو

من العالم إلى الكلمات، وتوفر الشرط التمهيدي والمتمثل في قدرة المتكلم على أداء ما يلزم

به نفسه، ويمكن تلخيص مضمون الحديث في الشكل التالي:

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 69.

الوعديات	المحتوى القضوي	اتجاه المطابقة+ شرط الصدق	الشروط الجوهرية	الشروط التمهيدية
من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشر صلوات ويحط عنه بها عشر سيئات ويرفعه بها عشر درجات.	وعد الرسول (ﷺ) المسلمين بأن من صلى عليه صلاة؛ فإن الله سيصلي عليه بها عشر صلوات، ويحط عنه بها عشر سيئات، ويرفعه بها عشر درجات.	من العالم إلى الكلمات	حث المسلمين على الصلاة على النبي (ﷺ) لهم يوم القيامة	التزام المخاطب بالصلاة+ قدرة المتكلم على تنفيذ الوعد وصدقه = فعلا إنجازيا ناجحا.

5. دلالة الأمر على معنى الدعاء:

يعدل أسلوب الأمر عن دلالاته الحقيقية إلى دلالات مختلفة منها: الدعاء، ويمكن التمثيل لذلك بقول الخطيب "عبد الحميد مهدي": "اللهم أصلح أحوالنا، وبلغنا بما يرضيك آماننا، واختم بالصالحات أعمالنا وبالسعادة أجاننا وتوفنا وأنت راض عنا، اللهم احشنا في زمرة سيدنا محمد (ﷺ) واسقنا من حوضه بيده الشريفة شربة ماء لا نظماً بعدها حتى تدخلنا الفردوس الأعلى برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين، اللهم اغفر لنا واغفر لوالدينا وارحمنا وارحم والدينا، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا. سبحانه رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين"¹.

عدلت صيغة الأمر في هذه الجملة عن دلالاتها الأصلية إلى دلالة الدعاء لأن المتكلم استعمل صيغة الأمر في "سياق التضرع والاستعانة، ووجه خطابه لمن هو أعلى منه"² وليدعم المتكلم إنجازية الفعل الكلامي كمر الصيغة المستعملة للدعاء (اللهم) لأنها تفيد التضرع إلى الله تعالى، وليظهر أن كل دعوة من هذه الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر هذه الصيغة (اللهم) إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى.

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص 300.

² - عيسى علي العاكوب، علي سعد الشتوي، الكافي في علوم البلاغة المعاني، البيان، البديع، ص 252.

وارتبط شرط المحتوى القضوي بفعل في المستقبل مطلوب من المخاطب هو إجابة دعاء السائل، وقد قوى الشرط التمهيدي هذا المحتوى؛ لأنّ المخاطب قادرٌ على إنجاز الفعل وإجابة الدعاء، والمتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إنجاز الفعل، ويتحقق الفعل الطلبي بشرط الإخلاص، فالتكلم يريد حقا من المخاطب (الله سبحانه وتعالى) أن يستجيب لدعائه، وبذلك يتحقق الشرط الأساس بمراعاة المتكلم لشروط الدعاء؛ ليحقق له ما طلبه منه مستعينا بأدوات تدعيم القوة الإنجازية ومنها قوله: (يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين) وختم المتكلم دعاءه بالذكر والثناء وتتزيه الله عمّ لا يليق بجلاله؛ بقوله: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين).

ويقول الخطيب "عبد الحميد مهدي" في دعاء آخر: "اللهم أصلح شؤوننا كلها، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك يا رب العالمين، اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق؛ فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت يا رب العالمين. اللهم اجعلنا مصلحين ولا تجعلنا مفسدين. اللهم إنا نسألك أن تصلح ولاية أمور المسلمين، وأن ترزقهم بطانة الخير يا رب العالمين. اللهم أصلح نساءنا وأبناءنا وبناتنا اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين. اللهم اغفر لنا واغفر لوالدينا وارحمنا وارحم والدينا، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين"¹.

تتشكل الحمولة الدلالية لهذا الخطاب من قوة إنجازية حرفية تتمثل في الأمر (أصلح آت، اهدنا اجعلنا، أحينا، ألحقنا، اغفر)، وقوة إنجازية مستلزمة تتمثل في الدعاء؛ لأنّ السائل توجه إلى من هو أعلى مرتبة منه، متضرعا له، مستعينا به طالبا منه أن يجيب دعاءه؛ ولأنّه "لا يمكن أن يكون الفعل الإنشائي ناجحا تماما دون أن يحدث تأثيرا على المخاطب"²؛ فإنّ المتكلم قوى إنجازية الفعل الكلامي بقوله: (يا رب العالمين)، (أنت خير من زكاها)؛ فهو بقوله هذا يعترف لله تعالى بالربوبية، وأنّ الخير كلّه بيد الله تعالى، وختم

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص365.

² - J. Austin, Quand dire c'est faire, p124

المتكلم دعاءه بتنزيه الله عما لا يليق بجلاله، فيكون اختيار المتكلم لهذه الأدوات عن قصد؛ ليستجيب الله دعائه ويغفر ذنوبه: " اللهم بصرنا بعيوننا واجعلنا من التوابين واجعلنا من المتطهرين. اللهم وفقنا إلى فعل الخيرات وأكل الطيبات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحب المساكين والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين. ونسألك يا ربنا أن تغفر لنا وأن تغفر لوالدينا وأن ترحمنا وترحم والدينا. آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين" ¹

عدل الأمر في هذا الخطاب عن دلالاته الحقيقية المتمثل في طلب القيام بالفعل على وجه الإلزام إلى دلالة مجازية تمثلت في الدعاء؛ لأنّ فعل الأمر كما يقول "ديكرو" (Ducrot): "يتطلب نوعاً من العلاقة الترتيبية بين الذي يأمر والذي يؤمر" ²؛ فيتوجه المؤمنون إلى الله بالتضرع والدعاء لا بالأمر، وفي هذه الآية ارتبط شرط المحتوى القضوي بفعل في المستقبل مطلوب من المخاطب، هو طلب المؤمنين من الله تعالى أن يجيب دعاءهم، وقد قوى الشرط التمهيدي هذا المحتوى؛ لأنّ المخاطب قادرٌ على إنجاز الفعل وإجابة الدعاء، والمتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إجابة الدعاء، ويتحقق الفعل الطلبي بشرط الإخلاص فالمتكلم يريد حقاً من المخاطب أن ينجز الفعل، وبذلك يتحقق الشرط الأساس بمراعاة المتكلم لشروط استجابة الدعاء منها: الاعتراف بنعم الله والصلاة والسلام على المرسلين في قوله: (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين).

¹ - عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، ص26.

² - O. DUCROT, Dire et ne pas dire, p9.

خلاصة:

سعت في هذا الفصل الموسوم بـ "سلطة الفعل الكلامي في الخطاب الديني" إلى دراسة المقاصد الظاهرة والمتضمنة في الأفعال الكلامية الواردة في خطب الشيخ "عبد الحميد مهدي" حول موضوع: الأخلاق والآداب والقيم، وخطب الجمعة حول موضوع: "الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية؛ حيث تناولت في المبحث الأول الموسوم بـ: "أسلوب الاستفهام وترسيخ المفاهيم الدينية" مجموعة الأفعال الكلامية حول موضوع الأخلاق وقد توصلت من خلال دراستها إلى أنه "خلف كل عملية تلفظ مهما زعمت من البراءة وحسن الظن" نية مبيتة" لا تعدو أن تكون وجهاً لتلك المقاصد والأغراض أو هي بالإصطلاح الحديث "القوى المقصودة بالقول" *les forces illocutoires* المنجزة للأعمال اللغوية *les actes de langage*¹؛ فمعظم الأفعال الكلامية تضمنت بالإضافة إلى دلالاتها الحرفية دلالة متضمنة في القول؛ ولأنّ اللغة ترتبط بالأفعال الكلامية في قضية مفادها أنّ اللغة تمكن من التأثير في المتلقي؛ فإنّ الخطيب "عبد الحميد مهدي" قد عمد ضمن هذا الأساس إلى استخدام كلّ ما من شأنه أن يدعم القوة الإنجازية للأفعال الكلامية؛ من وسائل لغوية ونحوية وبلاغية، وقد اعتمد في المبحث الأول على أسلوب الاستفهام لتبليغ مقاصده وقد ظهرت فطنة الخطيب واضحة كل الوضوح؛ فهو يطرح أسئلة في منتهى الدقة والتّركيز، والغريب في الأمر هو أن هذه الأسئلة نفسها هي التي من المتوقع جداً أن يطرحها المخطّاب في نفسه.

وقد عدل أسلوب الاستفهام في مختلف السياقات التي ورد فيها عن دلالاته الحقيقية إلى دلالات مجازية، منها توجيه المخاطبين إلى إنجاز فعل في المستقبل أو إنكار بعض أفعالهم، كما ورد الأسلوب الخبري والذي تتوّعت دلالاته منها: الظاهرة والمتضمنة، حسب السياقات التي ورد فيها، أما المبحث الثاني الموسوم بـ: "قصدية الامتثال في الخطاب الديني" فقد طغى أسلوب الأمر، وتعدّدت مقاصده؛ فمنها الأمر على سبيل الوجوب، وقد جاء ذلك مرتبطاً بأركان الإسلام منها: الصلاة والصوم والحج... الخ وعدل الأمر عن دلالاته الحقيقية إلى دلالات أخرى منها: الإباحة، والتّصح والدعاء... الخ.

¹ - الصبحي هدوي، الإنشاء بالقول مقارنة نحوية تداولية للأوامر والنّواهي أعمالاً لغوية، ص 115.

وأهمّ نتيجة خلصت إليها في هذا الفصل هي أنّه يمكن بناء نظريّة عربيّة موازية لنظريّة الأفعال الكلاميّة الغربيّة بناء على ما قدّمه العلماء العرب في أقسام الكلام ومعاني الأساليب.

خاتمة

وتوصلت من خلال ما تناولته في هذه الأطروحة إلى مجموعة من النتائج، وإليكم أهمها:
- إثارة مصطلح "الخطاب الديني" لعديد الإشكالات والقضايا؛ لأنه يجمع بين أشكال متعددة من الخطابات؛ القرآن الكريم، الأحاديث النبوية الشريفة، تفسير القرآن، الوعظ... الخ وقد تولد عن هذا التداخل عدم التمييز بين الدين بوصفه نصًا مقدسًا مجسدًا في (القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة) وبين الدين بوصفه قولًا وفكرًا؛

- الكشف على أنّ الدين بوصفه نصًا مقدسًا لا تشويه شائبة ولا يعتريه النقص؛ بل هو خطاب كامل صالح في كلّ زمان ومكان، أما الدين بوصفه قولًا وفكرًا مجسدًا في الخطابات البشرية الصادرة عن هيئات إسلامية فهذا له كل خصائص الخطاب البشري بخاصة قابليته للخطأ والصواب، ومن ثم للنقد؛

- ضرورة نقد بعض الموضوعات المختارة، والتي لا تكاد تخرج عن المناسبات الدينية، وكأنّ الدين أصبح دين مناسبات؛ حتّى كاد الناس يعرفون مسبقًا موضوع الخطبة التي ستلقى عليهم، السبب الذي جعل بعضهم يملون وينفرون من هذه الخطابات التي أهملت جانبًا مهمًا ألا وهو الإبداع؛

- غياب الإبداع يعني غياب الجانب التوعوي؛ فأصبحت الخطابات الدينية لا تسد حاجة المجتمع، ولا تفيد شيئًا سوى التخويف بالموت، كما يؤدي غياب الإبداع في استراتيجيات بث تلك الخطابات إلى إخفاقها؛

- ضرورة إعادة النظر في إنتاج الخطاب الديني، بما يتماشى ومتطلبات العصر شريطة الاحتكام إلى العقل، واستحضار الوعي الكافي؛ إذ لا نقصد بالعصرنة، إقحام الأنا في الآخر؛ بل نقصد بالعصرنة الاستفادة من الآخر؛ بهدف خدمة الدين الإسلامي وعرضه بطريقة تليق به؛ لكي يتحقق الهدف من إنتاجه والمتمثل في إقناع الآخر وجعله يمتثل للأوامر والنواهي؛

- تجديد الخطاب الديني مطلب ملح، وضرورة من ضرورات العصر تفرضها المستجدات الراهنة، ونشير هنا إلى أنّ تجديده لا يتعارض مع الاحتفاظ بالثوابت التي لا

يجوز المساس بها، بل نعني بتجديده، تنقيته من البدع والخرفات التي ألحقها به أعداء الإسلام؛

- بروز أهمية إعداد الأئمة وتكوينهم؛ لأنهم العامل الأساس في تجديد الخطاب الديني؛ ولذلك لا بد أن يحرص القائمون على هذه المهمة على اختيار الأئمة والخطباء الذين تتوفر فيهم الشروط الكاملة التي تؤهلهم للقيام بهذه المهمة؛ إذ لا شك في أن مهمة الخطابة وإعداد الخطب من أشق المهام؛ فماذا لو أهملت وتم الاعتماد في أدائها على الأساليب التقليدية؛

- الارتقاء بالخطاب الديني مسألة في غاية الأهمية تتحقق بدعم الفكر الديني الصحيح الذي يؤمن بفكرة الحوار، ويدعو إلى الالتزام بها، ويهدف إلى تحقيق الصلح وبنفتح على الآخر إيماناً منه بأن الاختلاف سنة من سنن الله تعالى، ويرفض التطرف والتعصب؛ - ضرورة التمييز بين الالتزام والتشدد، والتجديد ومسح الهوية... الخ؛ فمشروع التجديد يركّز على فهمنا للدين، وضرورته تأتي من ضرورة فقه الواقع؛ فالظروف المحيطة والزمن الذي يعيشه العالم، يفرض على الخطيب أن يساير العصر في دعوته إلى الله تعالى، وإلاّ اتهم بالتخلف، ونفر الناس منه؛

- الكشف على أن فكرة تجديد الخطاب الديني ليست وليدة عصرنا، بل تفجرت إثر عصور التخلف التي عاشها العالم الإسلامي، كما أن فكرة التجديد سنة من سنن الله تعالى تأتي ضرورتها من أهمية نقد الفكر الذي أدى إلى تخلف المسلمين، ومن فكرة تطوّر العلوم الطبيعية والإنسانية، ومن فكرة ظهور المجدد على رأس كل قرن، ومن فكرة تحقيق التكامل والتعايش مع غيرنا؛

- بروز أهمية التواصل مع غيرنا من بني البشر، والأهم في عملية التواصل هو ضمان حسن سير العملية التواصلية، ولن يتحقق ذلك إلا إذا فقه طرفا التخاطب فن التعامل الأخلاقي لما له من أهمية بالغة في تحقيق انسجام الفرد مع مجتمعه؛ ولذلك يجب على الإنسان أن يستخدم الأساليب الأدبية في خطابه، وأن يعامل غيره بلين وأدب، حتى يستطيع

كسب قلوبهم، والتأثير فيهم، وبذلك يتحقق الهدف من الخطاب، والذي هو باختصار جعل الآخر يتفاعل مع الذات؛

- بروز أهمية الأخلاق في جعل الآخر يتفاعل مع الأنا، وهذا ما كشفت عنه من خلال تحليلي لقصة سيدنا محمد (ﷺ)؛ الذي استطاع بخلقه وصدقته، أن يؤثر في الآخرين ويجعلهم يقفون إلى جانبه، ويساندونه في مهمته، ويمتثلون لأوامره ونواهيته؛

- تعدد الاستراتيجيات التي استخدمتها الذات المحورية في المقاطع الحوارية التي تضمنتها قصة سيدنا محمد (ﷺ)؛ حيث نجد استراتيجية المصادقة التي وضع المتكلم نفسه من خلالها في موقع التزام، كما نجد الاستراتيجية التضامنية التي سعى المتكلم من خلالها إلى توطيد العلاقة بينه وبين مخاطبيه، إلا أن السياق في بعض الأحيان يفرض على المرسل استراتيجيات أخرى منها الاستراتيجية التوجيهية؛

- ارتباط الاستراتيجية التوجيهية بمفهوم إضفاء المشروعية الذي يرمي إلى تحديد موقع السلطة هذه الأخيرة تمنح للذات الحق في فرض ذاتها، من خلال استعمالها لعناصر الذاتية منها الضمائر، ولقد كان ضمير المتكلم هو الضمير الأكثر حضورا في المقاطع الحوارية التي تضمنتها قصة سيدنا محمد (ﷺ)؛ لأن ضمير المتكلم ضمير حضور، والحضور هو الذي يهدف منتج الخطاب لتحقيقه؛ لأنه في ذاته غاية حاجية؛

- الحجاج فعل مقصود لإحداث الإقناع الذي يعدّ مقوما أساسيا من مقومات الخطاب الديني؛ الذي يهدف إلى غرس الفضيلة والأخلاق العالية والمبادئ السامية، ولهذا ينبغي للإنسان المسلم أن يتشبّث بها، وأن يبحث عن الطريق الصحيح الذي يعينه على التمييز بين الحق والباطل، والنافع والضار، وليس هناك من سبيل إلا سبيل العلم، ولذلك اعتمد الخطيب عبد الحميد مهدي" على مختلف الآليات الحجاجية؛ لأجل إثبات أطروحته المتمثلة في التأكيد على مكانة "العلم" في الإسلام ودوره في بناء الفرد والمجتمع؛

- تعدد الوسائل الحجاجية التي اعتمد عليها الخطيب "عبد الحميد مهدي" لإبراز مكانة العلم في الإسلام؛ منها: الآليات اللغوية التي تمدنا بها اللغة ومن بين تلك الآليات نجد الأفعال اللغوية والتكرار والإحالة والروابط الحجاجية، والسلم الحجاجي، ومنها: الآليات

البلاغية والمتمثلة في الاستعارة، والكناية، والتشبيه... الخ. وأخيرا الآليات المنطقية المتجسدة في القياس بأنواعه المختلف؛

- بروز دور الأساليب الحجاجية في التأكيد على أنّ "العلم" أهمّ عامل من عوامل قيام العالم الإسلامي؛ وبخاصة والعالم الإسلام يواجه مخاطر جمّة، الأمر الذي يستدعي المواجهة والمجابهة والتّحدي، ولن نتمكن من المواجهة إلا إذا اعتنينا بالطاقات الإسلامية وبالعوامل الأساسية لقيام العالم الإسلامي، وهذا ما سعى الخطيب "عبد الحميد مهدي" إلى التأكيد عليه من خلال تطرقه لأهميّة العلم والعلماء والأئمة والمعلّمون ودور المرأة في المجتمع؛

- ضرورة الاعتراف بحقوق المرأة فهي أساس بناء المجتمع باعتبارها معدّة الأجيال؛ والمرأة المتعلّمة مدرسة؛ لأنّها تعلّم أبناءها وتربّهم على الأخلاق السّامية، والمبادئ العالية وهي التي جاهدت وكافحت بكلّ ما أوتيت من قوّة من أجل إعداد الأجيال التي تخدم الوطن ووقفت بالجانب الرجل في مواقف كثيرة، وبرهنت على أنّها رمز من رموز الوطن؛

- بروز أهميّة انتقاء الرّموز المعبرة عن الانتماء الثقافي والاجتماعي، وقد أحسن الخطيب "عبد الحميد مهدي" اختيار الرّمز الذي يعبر عن "العلم"؛ والذي يؤدي استحضاره إلى تحريك عاطفة المستمع؛ والمتمثل في شخص الشّيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي جاهد وضحى مع إخوانه من أجل توفير المدارس لطلب العلم؛

- تقسيم العلماء لفريضة العلم إلى قسمين: "القسم الأول فرض عين" "والقسم الثاني فرض كفاية"، وفي هذا الإطار عمد الخطيب "عبد الحميد مهدي" إلى تصحيح الخطأ الشائع بين النّاس والمتمثل في أنّ كلمة "علماء" تطلق على علماء الشريعة فقط، وبين أنّها تطلق أيضا على المختصين في باقي العلوم الأخرى؛ وبهذا يكون قد أرشد بعض الشباب الذين اهتموا بالعلوم الشرعية فقط، وأهملوا العلوم الكونية المختلفة إلى التّراجع عن قرارهم، وذلك باعتبار نتائجه السّلبية؛ فالمتكلم يسعى بواسطة حججه إلى تثبيت محتوى أو تغيير اعتقاد المخاطب في القضايا التي كانت تحتاج ذلك؛

- الكشف عن أهمية الوصول إلى مقاصد منتج الخطاب، وقد أوضح "سيرل" (Searle) المراحل الاستدلالية المساعدة على ذلك؛ حيث يمكن للمتكلّم أن ينتقل من المعنى الحرفي إلى المعنى الضمني ولا يمكن أن يكون قصد المتكلّم شيئاً لا تحمله اللّغة؛ إنّما قصده مضمّن في اللّغة مضاء بالسياق؛
- توضيح الأبعاد التّداوليّة للأفعال الكلاميّة التي تضمنتها المدوّنّة، والتي تناولت جوانب عديدة من الحياة؛ بخاصّة في ما يتعلق بـ: الآداب والقيم والأخلاق؛ حيث حث الخطيب على التّوبة، والصدق، والعدالة والمساواة؛
- اعتماد الخطيب في تبليغ مقاصده على أسلوب الاستفهام الذي انتقلت دلالاته من القوّة الإنجازية الحرفيّة إلى القوّة الإنجازية المستلزمة مقامية، وقد اعتمد عليه الخطيب نظراً للدور الهام الذي يؤديه هذا الأسلوب؛ فهو إلى جانب دوره في البناء الأسلوبي للخطابة يؤدي دوراً تعليمياً بارزاً يستطيع الخطيب من خلاله أن يمرر معلومات وإضافات وإرشادات تهم عدّة جوانب من موضوع الخطبة؛
- تعدّد دلالات أسلوب الأمر بحسب السياقات التي ورد فيها؛ منها الأمر على سبيل الوجوب، وفي هذه الحالة يشترط توفر شرط الاستعلاء، وإن لم تستعمل صيغة الأمر على سبيل الاستعلاء؛ فإنّها تخرج إلى دلالة الالتماس أو الدعاء. ويندرج فعل الأمر عموماً حسب تصنيف "سيرل" (Searle) للأعمال اللّغوية ضمن قسم الطلبات ومن مميزات أنّها تلزم المخاطب على الامتثال شريطة أن يكون قادراً على ذلك.

قائمة المصادر والمراجع

أ. القرآن الكريم.

ب. المعاجم:

1. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، ط1، بيروت: 1992، دار صادر.
2. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، بن منظور، لسان العرب، ط1، مج 1، بيروت: 1968 دار صادر للطباعة والنشر.
3. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، د، ط. مصر: 1985، شركة الإعلانات الشرقية.

ج. الكتب

1. أحمد كروم، مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي، ط1، عمان: 2015، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
2. أرسطو، فن الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العربية، آفاق عربية.
3. إدريس حمادي، الخطاب الشرعي وطرق استثماره، ط1، بيروت: 1994.
4. أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ط1. بيروت: 1988.
5. أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تعليق: محمد الخضر حسين المغرب: دت، دار الفكر.
6. إلهام المتمسك، الخطاب الديني عند الدكتور عباس الجراري المرجع والبنية، ط1، الرباط: 2008، منشورات النادي الجراري.
7. إميل بنفنست، عن الذاتية في اللغة، ضمن: تلوين الخطاب، فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والحجاج، الدار الوسطية للنشر، تونس، ط1، تونس: 2007.
8. أن ربول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد للتواصل، تر: سيف الدين دغفوس محمد شيباني، ط1، بيروت: 2003، دار الطليعة للطباعة والنشر.
9. باتريك شارودو، دومينيك منغو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري حمادي صمود، دط، تونس: 2008، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة

10. بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2 بيروت: 1972. المكتبة العصرية.
11. بسطامي محمد سعيد، مفهوم تجديد الدين، ط1، الكويت: 1984، دار الدعوة.
12. أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تح: علي محمد البجاوي، ج1 د.ط، دت.
13. أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ط1، بيروت: 2009، الرّحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.
14. أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ط1، المغرب: 2007، الأحمديّة للنشر.
15. بكري شيخ أمين، التّعبير الفني في القرآن الكريم، ط2، المغرب: 1976، دار الشروق.
16. بهاء الدين عبد الله بن عقيل ، شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج3، القاهرة: 1998، مكتبة دار التراث.
17. تودوروف، اللّغة والأدب في الخطاب الأدبي، تر: سعيد الغانمي، د.ط، بيروت: 1993، المركز الثقافي.
18. جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللّسانيات النّصية، د.ط. مصر: 1998، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
19. جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامّة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، تر: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق: 1991.
20. جون لايز، علم الدلالة اللساني، تر: صابر حباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، (مقالات مترجمة)، ط1، سوريا: 2010، دار الحوار للنشر والتوزيع
21. جيلالي بوبكر، تأملات في أصول المجد ومبلغ الكمال الإنساني، ط1، تيزي- وزو: 2014، دار الأمل.
22. جيلالي دلّاش، مدخل إلى اللّسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، الجزائر: 1994.
23. حامد الغزالي، المستصفى في علم الأصول، تح: عبد السلام عبد الشافي، د.ط. بيروت: 1996، دار الكتب العلميّة.

24. حسين علي بن عيسى الروماني، معاني الحروف، تح: عرفان بن سليم، ط1. بيروت: المكتبة العصرية. 2005.
25. خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ط1. الجزائر: 2009م بيت الحكمة للنشر والتوزيع.
26. داوود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، ج4
27. ذهبية حمو الحاج، التداولية واستراتيجية التواصل ، ط1، القاهرة: 2015، رؤية للنشر والتوزيع
28. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلّفظ وتداوليّة الخطاب، ط2، تيزي- وزو: 2012 الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.
29. ساجد العبدلي، القراءة الذكية، كيف تقرأ بذكاء.. بسرعة.. وبإدراك كبير، ط2، الكويت: 2007، شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع.
30. سالم عطية، شرح الأربعين النووية، باب هل تدخل النية في جميع الأعمال، ج1
31. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني، بنياته وأساليبه، ط1: تونس: 2007، عالم الكتب الحديث.
32. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ط1، بيروت: 1989، المركز الثقافي العربي.
33. سيف الدين أبو الحسن الأمدي، الأحكام في أصول الأحكام، تح: أحمد محمد شاكر مج1، ط1، بيروت: 1980، دار الأفاق الجديدة.
34. صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مدخل ونصوص، ط1، سوريا: 2008.
35. صالح بلعيد، في أصول النحو، ط1، الجزائر: 2005، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع.
36. صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، ج، ط1، مصر: 2000، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
37. الصبحي هدوي، الإنشاء بالقول مقارنة نحوية تداولية للأوامر والنواهي أعمال اللغوية ط1، عمان: 2016، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

38. صلاح إسماعيل عبد الحق، التّحليل اللّغوي عند مدرسة أكسفورد، ط2، لبنان: 1993 دار التنوير للطباعة والنشر.
39. صلاح حسين، مدخل إلى علم الدلالة، ط1، القاهرة: 2008، دار الكتب الحديثة
40. ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج9، ط2، مصر: 1973، دار النهضة.
41. عبد الرحمن طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المغرب: 1998، المركز الثقافي العربي.
42. عبد الرحمن طه، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط3. الدار البيضاء: 2007، المركز الثقافي العربي.
43. عبد الرحمن طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المغرب: 2000، المركز الثقافي العربي.
44. عامر مصباح، الإقناع الاجتماعيّ، خلفيته النظرية وآلياته العملية، ط2 الجزائر: 2006، ديوان المطبوعات الجامعية.
45. عباس حسن، النحو الوافي، ط3، مصر: 1966، دار المعارف بمصر.
46. عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، ط1 الأردن: 2014، عالم الكتب الحديث.
47. عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، د، ط، الجزائر: 1964، دار الكتاب الجزائري.
48. عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في الأخلاق والآداب والقيم، ط1، تيزي- وزو: 2015، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.
49. عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة في حياة الأنبياء والرسل، قصة وعبرة وأسوة، ط2 تيزي- وزو: 2016، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.
50. عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، الأعياد والمناسبات الدينية، والوطنية والدولية، ط1 تيزي- وزو: 2008، دار الأمل.

51. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: درويش الجويدي، ط1، بيروت: 1997، المكتبة العصرية.
52. عبد الرحمن صيام، دراسات في أدب العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ط1، الجزائر: 1984.
53. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ط1، المغرب: 2006، إفريقيا الشرق.
54. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تح: عبد الحميد الهنداوي، ط1 بيروت: 2001، دار الكتب العلمية.
55. عبد اللطيف عادل، الحجاج في الخطاب مقاربات تطبيقية، ط1، مراكش: 2017 مؤسسة آفاق للنشر والتوزيع.
56. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط1 تونس: 2001، جامعة منوبة، منشورات كلية الآداب
57. عبد المتعال الصعيدي، البلاغة العالية علم المعاني، ط2. مصر: 1991.
58. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ط1 بيروت: 2004، دار الكتاب الجديد المتحدة.
59. عبيدة مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان، القول المبين في أخطاء المصلين، ط4 الرباط: 1996، دار بن حزم
60. عز الدين الناحج، تداولية الضمني والحجاج بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب بحوث ومحولات، ط1، تونس: 2015، مركز النشر الجامعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس.
61. عفة الشراوي، الفكر الديني في مواجهة العصر، دراسة تحليلية لاتجاهات التفسير في العصر الحديث، ط2، بيروت: 1979، دار العودة.
62. علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، د.ط، بيروت: 1995، دار الكتب العلمية.
63. علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، د.ط. القاهرة: 1959.

64. عماد علي عبد السميع حسين، تجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع روح العصر صورة دعوية في ضوء المستجدات والمتغيرات المعاصرة، ط1، بيروت:2004، دار الكتب العلمية.
65. عمر بلخير، "مقالات في التداولية والخطاب"، الجزائر: 2013، دار الأمل للطباعة والنشر.
66. عياشي أدرواي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، ط1، الرباط: 2011، منشورات الاختلاف.
67. عيد بلبع، التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس من اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة، ط1، مصر: 2009، جمهورية مصر العربية.
68. عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشتوي، الكافي في علوم البلاغة المعاني، البيان البديع، د.ط. الإسكندرية: 1993.
69. فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكسون، دراسة ونصوص، لبنان: 1993، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
70. فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، د.ط. المغرب: 2000.
71. فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ط1، ج1، بيروت: 1990م.
72. فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ط1، سوريا: 2007، دار الحوار للنشر والتوزيع.
73. قاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشف، ط1، بيروت: 1977، دار الفكر.
74. كاترين أوركيوني، فعل القول من الذاتية إلى اللغة، ترجمة: محمد نظيف، ط1 المغرب: 2007، إفريقيا الشرق.
75. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، د.ط. تونس: 1984، الدار التونسية للنشر والتوزيع.

76. محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، دط، القاهرة: 2005، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، المهندسين.
77. محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، ط2، المغرب: 2002، الدار البيضاء
78. محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، ط1، الدار البيضاء: 1991، دار المركز الثقافي العربي.
79. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط1، لبنان، 2008، دار الكتاب الجديدة المتحدة.
80. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ط10، بيروت: 2009، مركز دراسات الوحدة العربية.
81. محمد مشبال، بلاغة الخطاب الديني، ط1، الرباط: 2015، منشورات الاختلاف.
82. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، د ط. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.
83. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د، ط، الإسكندرية: 2002، دار المعرفة الجامعية.
84. محي الدين أبو بكر بن محمد بن علي بن محمد بن عربي، تفسير القرآن الكريم، تح: مصطفى غالب، مج 2، ط3، بيروت: 1978، دار الأندلس للنشر والتوزيع.
85. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط1. بيروت: 2005، دار الطليعة للطباعة والنشر.
86. موفق الدين بن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، ط1. ج3، بيروت: 2001، دار الكتب العلميّة.
87. مؤيد آل صوينت، الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، ط 1، بيروت: 2010.
88. نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ط6، الدار البيضاء: 2001، المركز الثقافي العربي.

89. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، ط5، الدار البيضاء: 2000، المركز الثقافي العربي.
90. نور الدين أجييط، الوظائف التداولية للتخاطب السياسي وأبعادها الحجاجية، ط1 الأردن: 2016، عالم الكتب الحديث.
91. هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ج1، ط2، بيروت: 2007.
92. هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، د. ط بيروت: 1986، منشورات المكتبة العسكرية صيدا.
93. يعقوب خام، البرجماتية، ط2. مصر: 1998، الهيئة المصرية للكتاب.
94. يعقوب يوسف بن أبي بكر سكاكي، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، ط1. بيروت: 1983، دار الكتب العلمية.
- د- الرسائل والآطاريح الجامعية:
1. أم الخير سلفاوي، البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم. لـ"السكاكي". أطروحة ماجستير، ورقة: 2009.
2. أودينة سليم، فلسفة التداوليات الصورية وأخلاقيات النقاش عند يورغن هابرماس، مذكرة ماجستير في الفلسفة، قسنطينة: 2009.
3. إدريس سرحان، طرق التضمين الدلالي والتداولي، أطروحة دكتوراه، المغرب: 1999 جامعة سيدي محمد بن عبد الله.
4. إسماعيل زردومي، الحجاج في الإمتاع والمؤانسة، أطروحة ماجستير، باتنة: 2009.
5. حورية رزقي، الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية، باب الذكر والدعاء أنموذجا الأحاديث القدسية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، بسكرة: 2006.
6. شهرة شفري: الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دراسة مقارنة بين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، باتنة: 2009.

7. شيخ اعمر الهوارية، تقنيات الإقناع في الخطاب الديني وآلياته التداولية دراسة في استراتيجية التّواصل اللّساني، أطروحة دكتوراه، وهران: 2015.
8. عربي زروقي، التّكوين الديني والبنية المعرفية للأئمة في الجزائر، رسالة ماجستير، وهران: 2014.
9. عمر بلخير، الخطاب تمثيل للعالم، دراسة بعض الظواهر التداولية في اللّغة العربية (الخطاب المسرحي نموذجاً)، رسالة ماجستير، الجزائر: 1997.
10. فتيحة بوسنة، استراتيجية الخطاب النبوي من خلال التبليغ القرآني، أطروحة لنيل شهادة الدّكتوراه، تيزي- وزو: 2016.
11. محمد بوعمامة، وسائل الإقناع في خطبة طارق بن زياد دراسة تحليلية في ضوء نظرية الحجاج، مذكرة ماجستير، باتنة: 2011.
12. محمد مدور، الأفعال الكلامية في القرآن الكريم سورة البقرة دراسة تداولية، أطروحة دكتوراه، باتنة: 2014.
13. مهى محمود إبراهيم العتوم، تحليل الخطاب في النّقد العربي الحديث دراسة مقارنة في النظرية والمنهج، أطروحة دكتوراه الأردن: 2004.
14. ناغش عايدة، أسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية في رياض الصالحين دراسة نحوية بلاغية تداولية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تيزي- وزو: 2012.
15. هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، دراسة تطبيقية في (كتاب المساكين) ل: الرافعي، مذكرة ماجستير، ورقلة: 2003.
16. هشام فروم، تجليات الحجاج في الخطاب النبوي دراسة في وسائل الإقناع الأربعون النووية أنموذجاً، مذكرة ماجستير، باتنة: 2009.

هـ - المجلات والدوريات:

1. حسن بنو هاشم، "بعض خصائص الحجاج في الخطاب الديني من خلال خطاب السيّد يوسف القرضاوي في برنامج" الشريعة والحياة"، مقال منشور ضمن بلاغة الخطاب الديني إعداد وتنسيق: محمد مشبال، ط1، الرباط: 2015، منشورات الاختلاف.
2. حكيمة بوقرومة، "دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم"، مجلة الخطاب، ع3، تيزي وزو: 2008.
3. سحالية عبد الحكيم، "التداولية النشأة والتطور"، مجلة مخبر أبحاث في اللّغة والأدب الجزائري، بسكرة: 2009، العدد 5.
4. سعيد جبار، "بلاغة الإقناع في خطاب الوعظ"، مقال منشور ضمن كتاب: بلاغة الخطاب الديني، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، ط1، الرباط: 2015، منشورات الاختلاف.
5. شكري المبخوت، "نظرية الحجاج في اللّغة" ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تأليف: مجموعة من الباحثين، إشراف حمادي صمود د. ط، تونس: د. ت، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة.
6. صالح بلعيد، "مدخل في الإعجاز اللّغوي للقرآن الكريم" مقال منشور ضمن أعمال اليوم الدراسي التاسع حول: الإعجاز اللّغوي في القرآن الكريم، تيزي- وزو: 2014، منشورات مخبر الممارسات اللّغوية في الجزائر.
7. عبد الله صولة، "الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج الخطابية الجديدة لبرلمان وتيتيكا"، مقال منشور ضمن كتاب، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تأليف: مجموعة من الباحثين، إشراف حمادي صمود، د. ط، تونس: د. ت، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة.
8. عماد عبد اللطيف، "كيف ندرس التناص في الخطاب؟ إطار نظري وتطبيقات على بلاغة السياسة الدينية" مقال منشور ضمن كتاب بلاغة الخطاب الديني، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، ط1، الرباط: 2015، منشورات الاختلاف.

9. محمد الوالي، "الاستعارة الحجاجية بين أرسطو وشايم بيرلمان"، فكر ونقد، المغرب ع61، سنة 2004.

10. ولي محمد، "مدخل إلى الحجاج: أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان"، مجلة عالم الفكر المجلد 40، العدد 2، السنة 2011.

و- المواقع الإلكترونية:

1. "أهمية العلم بالنسبة للفرد والمجتمع"، مقال على الموقع الإلكتروني: العلم
www.mawdoo3.com

2. أحمد محمد هليل، "تحديات الخطاب الديني في ظل التحولات المجتمعية والدولية الراهنة"، عن الموقع الإلكتروني: <http://repository.nauss.edu.sa/handle>.

3. أسامة عبد العزيز جاب الله، "السياق في الدراسات البلاغية والأصولية دراسة تحليلية في ضوء نظرية السياق"، ص 31، منشور على الموقع الإلكتروني: www.kfs.edu.eg

4. إسماعيل محمد شندي، محمد محمد الشلش، "مواصفات خطبة الجمعة الناجحة"، ورقة علمية مقدمة إلى مؤتمر: خطبة الجمعة (بين الواقع والمأمول)، جامعة الخليل: 2014 نشر في الموقع الإلكتروني: www.qou-edu/home/sciresearcherspages/ismailshindi/r34-drismailshindi.pdf.

5. جمال محمد بواطنه، "تجديد الخطاب الديني المعاصر ضرورة ملحة"، مقال منشور على الموقع الإلكتروني: Kep.org-sa/wp-content/uploads/2015/09/renewal.of_.islamic_discourse.04.pdf

6. خالد روشه: "الخطاب الإسلامي مقاربة منهجية" عن الموقع الإلكتروني: <http://www.Islamselect.Com/article/37174>

7. محمد الروكي، "العلم والأخلاق وأثرهما في بناء الإنسان عند النورسني" مقال منشور على الموقع الإلكتروني: [file:///C:/Users/Global info laga/Desktop](file:///C:/Users/Global%20info%20laga/Desktop).

8. محمد بن عدنان بن محمد السمان، "خطبة الجمعة أهميتها، وأثرها في تعزيز الأمن الفكري" بحث منشور على الموقع الإلكتروني: Repository.taibahu.edu.sa/handle.

9. يوسف القرضاوي، "بين ضغوط الخارج ومخاوف الداخل علماء ودعاة يشددون على ضرورة تجديد الخطاب الديني دون إملاءات خارجية" عن الموقع الإلكتروني: http://Memnber-alhewar.net/Forum.php?action=view&id=793&cat_id=16

المراجع الأجنبية:

1. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, Paris:1974, Gallimard.
2. Catherine Kerbrat- Orecchioni, l'énonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, 1980, Armand Colin.
3. Catherine Kerbrat- Orecchioni, L'implicite, Paris:1986, Armand Colin éditeur.
4. J. Austin. Quand dire c'est faire, Paris: 1970, traduction Gilles-Lanes, édition du seuil.
5. J. Searle, Les actes de langage, Paris, Hermann, 1972.
6. J. Searle, Sens et expression, études de théorie des actes de langage, trad et préface- par, Joelle Proust, Paris : 1982.
7. Jean Claude Anscombe et Oswald Ducrot, l'argumentation dans la langue, Pierre Mardaga, éditeur, Bruxelles,1983,
8. Mainguenu, Éléments de linguistique pour le texte littéraire, 3^{ème} édition, Paris: 1987, Bordas.
9. Oswald Ducrot, Dire et ne pas dire, 3^{ème} édition, Paris:1972, Hermann éditeur.
10. Oswald Ducrot, Les échelles argumentatives, Paris:1989, éditions de minuit.
11. Perelman et Tyteca, Traité de l'argumentation; édition De L'université de Bruxelles 5^{ème} S.

فهرس الموضوعات

1	مقدمة
9	تمهيد
10	1.الخطاب الديني: المفهوم والمرجعية المؤسسة
10	1.1. مفهوم الخطاب في الثقافة العربية
12	2.1. الخطاب في الثقافة الغربية
13	3.1. مفهوم الخطاب الديني
16	4.1. المرجعية المؤسسة للخطاب الديني
19	2. خطبة الجمعة: صورة من صور الخطاب الديني
19	1.2. مفهوم خطبة الجمعة
19	2.2. أركان خطبة الجمعة
20	3. الخطاب الديني: أسباب الفشل وعوامل الإخفاق
20	1.3. غياب الإبداع
21	2.3. تجاهل المخاطب وضعف الرصيد المعرفي
22	3.3. تغييب التفسير اللغوي والبلاغي للآيات القرآنية والأحاديث النبوية
22	4. الخطاب الديني وضرورة التجديد نحو إحداث تغيير للأساليب التقليدية
22	1.4. تجديد الخطاب الديني
24	2.4. الإعداد الجيد للخطباء

الفصل الأول

الاستراتيجية التّواصلية والبعد الأخلاقي في الخطاب الديني

33	مدخل
34	المبحث الأول: العناصر التّلفظية وتحقق مبدأ التّفاعل
34	1. عناصر تشكّل الخطاب وشروط نجاحه
34	1.1. المتكلّم
35	2.1. المخاطب
36	3.1. السياق
37	4.1. زمان ومكان الخطاب
39	2. مفهوم المرجعية
39	1.2. المرجعية اللسانية
40	3.2. مرجعية الضمائر
41	3. تجليات الذات والكشف عن بؤادر النبوة
44	4. مرحلة نزول الوحي وتحقق مبدأ التّفاعل بين الذات
50	المبحث الثاني: استراتيجيات التّعامل الأخلاقي
51	1. مبدأ التّأدب واستراتيجية المصادقية
61	2. من الاستراتيجية التّضامنية إلى الاستراتيجية التّوجيهية وإضفاء المشروعية
73	3. الاستراتيجية التّلميحية وتجليات البعد الأخلاقي
80	4. الخطاب بين التّقويم الأخلاقي وغير الأخلاقي
89	خلاصة

الفصل الثاني

الحجاج ودور العلم في بناء الخطاب الديني

92	مدخل
93	المبحث الأول: الأساليب الحجاجية وعوامل قيام العالم الإسلامي
93	1. من الفعل اللغوي التوجيهي إلى تحقيق النتيجة
97	2. أنواع التكرار وأبعاده الحجاجية
111	3. الإحالة وتحقيق التماسك النصي
117	4. الروابط اللغوية واستعمالاتها الحجاجية
125	5. السلم الحجاجي ومبدأ التدرج في توجيه الحجج
127	6. الاستشهاد دليل على صحة النتيجة
137	7. البعد الحجاجي للأساليب البلاغية
141	8. القياس وأنواعه
148	المبحث الثاني: أشكال الحجاج وحتمية المواجهة
149	1. الرموز المعبرة عن الانتماء الثقافي والاجتماعي
152	2. المسؤولية من العلاقة السببية إلى تقسيم الكل إلى أجزاءه
156	3. العلم والعلماء بين المعتقد الخاطئ والمفهوم الصحيح
160	4. حجة الغائية وتجديد الخطاب الديني
163	5. العلم وأشكال القيم في الخطاب الديني
165	6. حجة التّمودج في الخطاب الديني
168	خلاصة

الفصل الثالث

سلطة الفعل الكلامي في الخطاب الديني

171.....	مدخل
176.....	المبحث الأول: أسلوب الاستفهام وترسيخ المفاهيم الدينية
177.....	1. أسلوب الاستفهام ودوره في تربية الذات الإنسانية.....
187.....	2. مبادئ قيام العلاقات الإنسانية في الإسلام.....
197.....	3. مظاهر الإسلام ومعاملة المخاطب بحسب عمله.....
205.....	4. نتيجة الاستفهام فرصة للوقوف على نجاح الرسالة.....
211.....	5. ذكر العواقب وإيقاظ الضمير الإنساني.....
214.....	المبحث الثاني: قصيدة الامتثال في الخطاب الديني
215.....	1. الامتثال تحقيق لإرادة الذات عبر الآخرين.....
223.....	2. نبذ التطرف الديني.....
226.....	3. الأمر وقصد الإباحة.....
232.....	4. أفعال الوعد وتجلياتها في الخطاب الديني.....
241.....	5. دلالة الأمر على معنى الدعاء.....
244.....	خلاصة
246.....	خاتمة
252.....	قائمة المصادر والمراجع.....
265.....	فهرس الموضوعات

ملخص:

تهدف هذه الأطروحة المعنونة بـ: "تداولية الخطاب واستراتيجية التواصل اللغوي في الخطاب الديني" إلى تحليل "الخطاب الديني" ممثلاً في شكل من أشكاله ألا وهو "خطب الجمعة" لعبد الحميد مهدي؛ معتمدة على المقاربة التداولية التي أثبتت نجاعتها في تناول مختلف الخطابات ومنها "الخطاب الديني" رغم ما يثيره من إشكالات عديدة ومتنوعة خاصة حين يقع الخط بين الدين باعتباره نصاً مقدساً مجسداً في (القرآن الكريم والأحاديث النبوية) وبين الدين باعتباره قولاً وفكراً، وبالتالي قابليته للنقد وللتجديد؛ فالمتفق عنه هو أنّ الدين كامل لا يعترضه النقص، وأنّ هذا الأخير يشمل استراتيجية بث ذلك الخطاب وفق قواعد وأسس تسمح له بالوصول إلى هدفه والمتمثل في التأثير في المخاطبين وإقناعهم على اختلاف مستوياتهم، ومداركهم الذهنية؛ وتوجيههم الوجهة الصحيحة، وذلك بما يتضمّن من مقاصد الشريعة الإسلامية التي تهدف إلى بناء مجتمع متحضر ومتخلق.

Résumé :

La présente thèse intitulée « **le pragmatisme du discours et la stratégie de la communication linguistique dans le discours religieux** » vise à analyser le discours religieux représenté sous l'une de ses formes à savoir « les prêches du vendredi » de "Abelhamid Mahdi", en s'appuyant sur l'approche pragmatique qui a prouvé son efficacité dans le traitement des différents discours parmi lesquels « le discours religieux », ceci, malgré les différentes problématiques qu'il soulève telles que : ce qui se rapporte au concept quand la séparation n'est pas faite entre la religion considérée comme un texte sacré représentée dans le saint coran et les Ahadiths du prophète , et entre la religion en tant que paroles et idées, et ainsi, son assujettissement aux critiques et au renouvellement.

Ce qui est convenu , c'est que la religion dans son ensemble ne comporte pas de lacune, mais cette dernière concerne la stratégie de répandre ce discours suivant des règles et des bases lui permettant d'atteindre son objectif, lequel vise à convaincre et à influencer les allocutaires suivant leurs différents niveaux et conceptions mentales, et les orienter dans la bonne direction, ceci, par ce qui est contenu dans la jurisprudence islamique qui tend à bâtir une société civilisée et éduquée.

Abstract:

The present thesis entitled « **the pragmatism of the speech and the strategy of the linguistic communication in the religious discourse** » aims at analyzing the religious discourse represented under one of its forms which is «the sermons of Friday» of "Abelhamid Mahdi". It relies on the pragmatic approach that affirmed its effectiveness in treating different discourses among them "the religious discourse", despite different issues that it raises such as what relates to the concept when the separation is not made between religion considered as a sacred text represented in the (Holy Qur'an and the Ahadiths of the Prophet), and the religion as words and ideas, as well as, its ability to be criticized and renewed. What is agreed on is that the religion as a whole has not lacks, but the latter concerns the strategy of spreading this discourse according to the rules and bases that enables it to achieve its purpose, and which concerns the conviction and influence of the interlocutors despite their different levels and mind conceptions, and to guide them in the right path, with which is contained in the Islamic jurisprudence which tends to build a civilized and educated society.